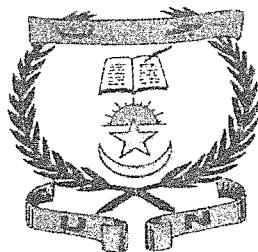


Université de Nouakchott
Faculté des Lettres et
Sciences Humaines



جامعة انواكشوط
كلية الآداب والعلوم
الانسانية

حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية مركز الدراسات والبحوث

مجلة علمية محكمة تغنى ببحوث الآداب والعلوم الإنسانية

الثمن 1200 أوقية

العدد الحادي عشر 2014

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة علمية، محكمة، سنوية، تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط

* تهتم المجلة بنشر البحوث والدراسات في مختلف مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، وتسعى إلى إتاحة الفرصة للباحثين للإطلاع على أهم التطورات المستجدة في ميدان البحث. وتستوعب المجالات التالية:

- دراسات وبحوث أساسية

- وثائق ونصوص

- نصوص مترجمة

- دراسات ميدانية وعروض بيبليوغرافية

- عروض لمختلف الكتب والمجلات

* تخضع البحوث والمقالات والعروض والدراسات للتحكيم والتقييم العلمي الذي يتولاه أساتذة باحثون مختصون، و لا تعاد البحوث والأعمال التي لم تنشر إلى أصحابها

* تنشر البحوث والأعمال المجازة، في العدد المناسب وفق خطة هيئة التحرير
* يشترط في الأعمال والأبحاث المقدمة أن تكون أصيلة ومبتكرة ولم تنشر من قبل وألا تكون جزءا من أعمال أكاديمية سابقة (رسالة ماجستير، دراسات عليا أو أطروحة...)

* يراعى في المساهمات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية المتعارف عليها
يمكن اعتماد المواقع الالكترونية المعترف بها علميا مع الإشارة إلى عناوينها والجهة التي تسيورها.

* يفضل ألا يقل العمل عن 10 صفحات وألا يزيد على 30 صفحة.

* يجب أن يكون العمل مراجعا من قبل صاحبه عند طباعته أو يحمل في قرص أو يرسل على البريد الإلكتروني.

* توجه المراسلات إلى سكرتيرية التحرير:

على العنوان الخاص بالكلية: FLSH@univ-nkc.mr

إدارة المجلة

المدير الناشر: حمودي ولد حمادي

مدير التحرير: عبد الله ولد محمد سالم ولد السيد

سكرتير التحرير: محمد عبد الرحمن بن عمار

لجنة القراءة:

محمد ولد عبد القادر

محمد المختار ولد سيد محمد

وان محمدون الملقب دودو

عبد الوهاب ولد محفوظ

أحمد ولد حبيب الله

اللجنة الاستشارية:

عبد السلام بنميسي: جامعة محمد الخامس، المغرب

موسى داف: جامعة الشيخ آنتا جوب، السنغال

محمد السيدى: جامعة محمد الخامس، المغرب

عبد الودود ولد عبد الله، جامعة انواكشوط، موريتانيا

الرواية العربية والنثرية العربية*:

مساهمة في إبراز دور محفوظ في تطور اللغة
والشكل في الرواية العربية.

أ.د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم
قسم اللغة العربية وآدابها

0.0- يسعى هذا البحث في مقاصده البحثية والمنهجية إلى إضاءة جوانب محددة من علاقة الرواية العربية بالنثرية العربية؛ تتعلق بتاريخ الظهور والتشكل؛ وهي العلاقة التي مازالت في نظرنا تحتاج إلى مزيد من الإضاءة؛ تعميقا لوعي نقدي عربي بدأت ملامحه تتشكل في الساحة النقدية العربية من ذو العقد الأخير من القرن العشرين؛ - يتبنى السرديات منهجا للمقاربة والتأريخ للأنواع والأشكال في السردية العربية. وذلك إسهاما منا في تجذير السرديات العربية، باعتبارها خيارا منهجيا لمقاربة السرد العربي والتأريخ له وهو خيار ينوع من نظرتنا إلى السرد العربي وأشكال كتابته بصفة عامة؛ ويعمق من وعينا الإبداعي بالرواية العربية وصيغ تشكل كتابتها بصفة خاصة. ولاشك أن ما عرفه النقد العربي الحديث في السنوات الأخيرة من تطور على مستوى النظرية والمنهج والتفكير يبين درجة من النضج لا في استيعاب المناهج النقدية بأطروحاتها المتعددة فحسب، وإنما أيضا في مستوى تعامل النقاد مع الموضوع؛ وإكسابهم ذهنية نقدية أكثر تحررا من سلطة

* - قدم هذا البحث في ندوة نجيب محفوظ والرواية العربية المنعقدة بالقاهرة على هامش مؤتمر

الاتحاد العام لأدباء والكتاب العرب لعام 2007

التنظير النقدي الغربي المدرسي؛ وأقدر على تطبيقات المناهج التي يختارونها؛ وفقا لرؤيتهم النقدية الخاصة؛ وقد كان حظ الشعرية وتطبيقاتها من هذا الوعي والممارسة بارزا حيث برزت أسماء مؤسسة لهذا المنهج وتطبيقاته في التجربة العربية؛ كان لها الدور الرائد في تكوين جيل من النقد الشباب في أغلب الجامعات العربية الممارسين والمتبنين لخيار الشعرية منهجا ومقاربة؛ وخاصة السرديات منها؛ حيث حظي السرد وأشكاله بالدراسة والتنظير وأنجزت في هذا المجال أطروحات جامعية مؤسسة وأعدت دراسات مهمة وألفت كتب عمدة وانتظمت ندوات أساسية ونشرت بحوث قيمة، هذه الجهود كلها كانت الحاضنة المعرفية والمنهجية؛ التي أدت إلى ظهور السرديات العربية وتطبيقاتها المنهجية.

1.0- في أفق هذا التوجه يأتي هذا البحث لينظر إلى الرواية العربية في علاقتها بالنثرية العربية؛ من زاوية محددة تتعلق بتطور اللغة والشكل في الرواية العربية؛ متخذين من نتاج محفوظ عينة على هذا التطور؛ منطلقين في هذا الجهد من السرديات الوصفية والتاريخية خيارا للمقاربة والتحليل. وننطلق في هذا الجهد من فكرة مؤسسة لأطروحته، مؤداها أن أشكال الكتابة عامة؛ لا تظهر إلا في سياق هيمنة نثرية معينة؛ إذ أن تداول هذه النثرية ومستويات تكثيفها وتطويعها للنثر، هو الذي يؤدي إلى ظهور أشكال كتابتها وتكريس سلطتها، وغياب أو اختفاء أشكال كتابة النثرية التي قامت على أنقاضها. ذلك أننا - وكما أبنا في ذلك في بحوث سابقة¹ - نفترض أن هيمنة أشكال الكتابة السردية الحديثة على أشكال

¹ من البحوث التي نشرت وتمكن العودة إليها الكتب التالية:

الكتابة الإبداعية العربية، إلى بداية السبعينيات من القرن العشرين وتعدد أشكال كتابة النثرية الحديثة، إنما كان نتيجة لانحسار النثرية العربية التراثية بأنساقها اللسانية النثرية وأساليب إبانها وطرق تحقق مجازاتها في وجه مد النثرية العربية الحديثة وبلاغتها "وتراجعها إلى مواقع خلفية، فرضها عليها مسار تحديث المجتمعات العربية، وموقع تبعيتها للآخر لاحقاً"¹.

2.0- فكان من نتائج ذلك على المستوى الأدبي، تراجع النثرية التراثية بأنساقها اللسانية وأشكال كتابتها إلى مواقع خلفية في الإبداع والثقافة. وهي السمة الخطابية التي عرفت النثرية العربية في المجتمعات العربية في أمكنة وأزمنة متفاوتة في تقادما. إذ يمكن أن نلاحظ هنا أن كلا من هذه المجتمعات العربية- وخلال فترة تحديثها- "قد عرفت هذا الانزياح التدريجي للنثرية التراثية إلى مواقع خلفية، تاركة الموقع الأمامي لنثرية عربية حديثة، ومكتفية بدرجات من الحضور متفاوتة في النثرية الأدبية لهذه المجتمعات"².

- بنية الخطاب ودلالاتها في رواية القبر المجهول أو الأصول: مساهمة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني، تقديم د. سعيد يقطين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1999.

- الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني: قراءة لظهور الأنواع والأشكال، تقديم د. محسن جاسم الموسوي، دار الأمين القاهرة 2001.

- شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص (النص الموريتاني نموذجاً). الكتاب الفائق بجائزة شفيق للآداب والفنون لعام 2004 تقديم: د.أ. سعيد يقطين، منشورات جامعة نواكشوط، كلية الآداب، 2012

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: بنية الخطاب ودلالاتها في رواية القبر المجهول، مرجع مذكور سابقاً، ص: 58.

² محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، المرجع السابق، ص: 58.

3.0- هذا الانزياح على مستوى النثرية- هو الذي يفسر- في نظرنا- ظهور الأشكال السردية الحديثة في المجتمعات العربية، وخاصة الرواية منها، عبر زمنية متفاوتة، كما يفسر تأخر ظهورها في البعض الآخر. وهي الأشكال السردية التي بدأت في الظهور منذ بداية القرن العشرين في بعض هذه المجتمعات، نتيجة لهيمنة النثرية العربية الحديثة وتجذر أنساقها اللسانية والفكرية في هذه المجتمعات، وتراجع سلطة النثرية التراثية وأشكال كتابتها السردية. ومن هنا يمكن النظر إلى تاريخ ظهور الأشكال السردية في الإبداع العربي من هذا المنظور الذي يعول في تأريخه لأشكال الكتابة الإبداعية- على اللغة وأنماط تطويع نثرها وصيغ تشكل كتابتها وطرائق إبانيتها ومستوياتها ودرجة شعريتها؛ وعلى المتغير اللغوي وطرائق تداوله في المجتمع ودرجات تكتيفه؛ لا على المتغير الاجتماعي ذاته ولحظات تحوله؛ وما ينشأ عن ذلك من تحولات أدبية وثقافية نظّر لها الدرس النقدي الاجتماعي، وعول عليها أصحاب البنيوية التكوينية. في بسط أطروحتهم النقدية، وفي تفسير ارتباط ظهور الرواية والأشكال السردية الأخرى باللغة والشكل كمعزز لتفسيراتهم الاجتماعية للأدب وأشكاله.

ولئن ظل الولاء لهذا الطرح سائدا في بعض الأوساط الجامعية العربية نتيجة لتدريس مناهج وأطروحات نقدية مدرسية تجاوزها التنظير النقدي - فإن منظورا آخر لظهور الرواية العربية وعوامل نشأتها وتشكل خطابها؛ بدأ يأخذ حظه من التلقي والولاء في هذه الأوساط.

1-النثرية العربية ونظام تبادل المواقع:

ميز المنشغلون بدراسة السردية العربية بين مكونين من مكونات النثرية العربية هما النثرية: تراثية والنثرية الحديثة لكل منهما أشكالها السردية. وتتحدد النثرية هنا بأنها "فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر العربي الفصيح لغرض كتابي إيداعي وفق

شروط الإبانة العربية، وهي بهذا المعنى، فعل لغوي متحقق وفق سياق محدد وعبر نسق لسانی متميز ومتنوع، ومن هنا جاء ثراء النثرية في اللسان العربي¹.

1.1- ومن أهم الدراسات التي ربطت بين أشكال السردية العربية وتطور النثر العربي جهود كل من د. عبد الفتاح كيليطو في كتابه "المقامات"² ود. عبد الله إبراهيم في كتابيه "السردية العربية"³ و"السردية العربية الحديثة"⁴، حيث بينت هذه الجهود تطور النثر العربي منذ عصوره القديمة واحتضان النثرية العربية التراثية لأشكال من السرد التراثي في نهاية القرن التاسع عشر نتيجة لهيمنة الأنساق اللسانية التراثية وأساليب إبانيتها وبلاغتها في القول، وهو الاحتضان الذي أظهر "هيمنة للذائفة التقليدية وتقريظ أسلوب أدبي يندمج في سياق الامتثال لسطوة تلك الهيمنة"⁵. وقد استمر تطوير هذا الخط من الكتابة السردية مع محاولات المصريين في بعث "المقامة" وتجذير كتابتها سرديا، كما بين ذلك محمد يوسف نجم، حين حاولوا بعث المقامة مجددا (كما حاولوا بعث الشعر التقليدي)، في "ثوب قشيب

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني: قراءة لظهور الأنواع والأشكال، مرجع مذكور سابقا، ص: 77.

² عبد الفتاح كيليطو: المقامات: السرد والأنساق الثقافية. ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1993.

³ عبد الله إبراهيم: السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي. المركز الثقافي العربي بيروت، 1992.

⁴ عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة: تفكيك الخطاب الاستعاري وإعادة تأسيس النشأة؛ المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2003.

⁵ عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص: 107.

لأعم روح العصر إلى حد كبير"¹. كما ظهر ذلك عند المويحلي في "حديث عسى بن هشام" وحافظ إبراهيم في "ليالي سطيح"، ومحمد جمعة في "ليالي الروح الحائر" وغير ذلك"².

2.1- وإذا كانت هيمنة هذه النثرية التراثية على النثرية الساعية وقتها إلى تحديث أساليب الكتابة العربية- عبر الكتابة الصحفية- قد أنتجت كتابات سردية حديثة تستلهم الأشكال السردية التراثية (الحديث، المقامة) وتجذبها أشكالاً سردية حديثة؛ فإن تراجع هذه النثرية إلى مواقع خلفية من الإبداع العربي وتنامي سطوة النثرية العربية الحديثة؛ هو الذي سيؤدي إلى الانكماش التدريجي لهذا النموذج وذلك قبل أن يتقلص دوره "ويتحلل ويتلاشى في النصف الأول من القرن العشرين"³، في وجه ظهور أشكال الكتابة السردية الحديثة وخاصة منها الرواية، ومن هنا يمكن القول إن ظهور الرواية العربية الحديثة؛ لم يكن مرتبطاً بتحويلات اجتماعية وفكرية عرفت فيها المجتمعات العربية في المشرق مطلع القرن العشرين فحسب، بقدر ما كان أولاً وقيل كل شيء تحولاً في النثرية العربية وأساليب كتابتها الإبداعية، اقتضتاهما مقامات القول الإبداعي الجديد؛ نتيجة لهيمنة النثرية العربية الحديثة على النثرية العربية التراثية؛ وهي الهيمنة التي ستتراجع معها النثرية التراثية وأشكال كتابتها السردية إلى مواقع خلفية من الإبداع العربي؛ تاركة لأشكال النثرية العربية الحديثة سلطة الفعل في الكتابة السردية العربية الحديثة وهي السلطة التي بلغت كبرى درجات تجليها بظهور الرواية العربية الحديثة مع جيل الرواد الأول قبل

¹ محمد يوسف نجم. القصة في الأدب العربي، ص: 12-13. نقلاً عن عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المرجع السابق، ص: 113.

² عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص: 114.

³ عبد الله إبراهيم السردية العربية الحديثة، مرجع سابق، ص: 107.

أن تتجذر في الإبداع العربي بكتابة رواية التاريخية فالاجتماعية النقدية فالذهنية مع نجيب محفوظ وجيله من الكتاب الروائيين العرب. حيث أخذت مستويات من الشعرية أغنت الكتابة الرواية العربية ونوعت من مصادر إبداعها مع منتصف الستينيات من القرن العشرين.

3.1- والذي يبدو لنا؛ أن ظهور الرواية العربية الحديثة وتجذر شكلها السري في الكتابة العربية الحديثة كان إلى حد كبير مرتبطاً بتغير مكونات النثرية العربية ونظام تبادل المواقع فيها؛ فقد لاحظنا أن هيمنة النثرية العربية التراثية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على جهود تحديث النثرية العربية- هو الذي أدى إلى ظهور أشكال السرد التراثي في الكتابة العربية؛ وهي السلطة التي ستراجع بلوغ جهود التحديث أوج مداها في الربع الأول من القرن العشرين؛ وبهيمنة النثرية العربية الحديثة على النثرية العربية التراثية.

4.1- وبهذا يمكن القول إن ظهور الرواية العربية كان تحولاً في النثرية العربية، ونظام تبادل المواقع فيها؛ وهو ما يفسر- في نظرنا- هذا الارتباط في تاريخ السردية العربية، بين هيمنة نثرية وتراجع أخرى وظهور أشكال سردية واختفاء أو تراجع أخرى؛ وهي السمة الشعرية التي حددت إلى حد كبير تاريخ ظهور الأشكال السردية أو اختفائها وتراجع سلطتها، في السرد العربي الحديث؛ لذلك يمكن أن نلاحظ هنا في تاريخ السرد العربي المعاصر؛ تلك العودة القوية لأشكال السرد التراثي حينما بدأ يتشرب خطاب الرواية أنساقها السردية مع بداية سبعينيات القرن العشرين؛ في ما عرف برواية التراث؛ ولم يكن ذلك إلا نتيجة للحضور المتزايد لسلطة النثرية التراثية واستيعاب خطاب الرواية لها؛ على يد روائيين من أمثال محمود المسعدي؛ وجمال الغيطاني وغيرهما.

2- النص الروائي والنثرية العربية:

مثل ظهور الرواية في السردية العربية مرحلة مهمة من تاريخ تطور الكتابة الإبداعية العربية- فيها أختبر الروائي العربي مساحات من الكتابة لم يكن ليصل إليها؛ لولا الإمكانيات الإبداعية التي يتيحها الخطاب الروائي؛ وهي إمكانيات نابعة من اللغة بالأساس باعتبارها أداة للتواصل والبوح والتخاطب ومادة غنية لتشكيل الكتابة والخلق الفني؛ ومن هنا كان النص الروائي دون غيره من الأشكال السردية- أكثر الأشكال الأدبية انفتاحا على البنية الاجتماعية الحديثة والتكوينات الاجتماعية التقليدية نظرا للصلة الشعرية القوية التي تربط خطاب الرواية باللغة. وهي الصلة التي ركز عليها نقاد ومنظرو الرواية؛ بداية من باختنن فكولد مان فيبرزيما؛ حين كان الاهتمام باللغة ومستوياتها في النص الروائي؛ هو المشغل الأساسي لأي تنظير أو مقارنة.

1.2- إن الصلة ما بين الرواية واللغة صلة قوية وقائمة لا على مستوى البنية الروائية وقدرة الخطاب الروائي على احتواء وتشرب مستويات اللغة بمختلف خطاباتها فحسب؛ وإنما أيضا - وهذا هو الأهم- في تاريخ التشكل وأسباب الظهور؛ إذ أن ظهور النص الروائي في مجتمع من المجتمعات كان دائما مرتبطا بمستويات كثافة النثرية وهيمنة مكون من مكوناتها وقدرته على استيعاب الأنساق السردية؛ كما أن تطور الخطاب الروائي وتجده كان يأتي دوما من جهود الكتاب والروائيين المتميزين؛ الذين يتركون بصماتهم الفنية في تاريخ تشكل الرواية في مجتمع من المجتمعات؛ مثل ما هو الحال بالنسبة لنجيب محفوظ في الرواية العربية؛ حيث مثل هذا الروائي نموذجا عربيا، ترك بصماته الفنية في تاريخ الرواية العربية؛ انتقلت بها الكتابة الروائية العربية في كل مرة من مراحل تطورها إلى لحظة أخرى من تاريخ تشكل الخطاب الروائي العربي؛ وقد تعدد

هذا الفعل والإنجاز الإبداعي لفترة ناهزت الثلاثين عاما؛ إلى درجة أصبح معها ينظر إلى هذا الروائي المتميز وقتها، بأنه عقبة كأداء في وجه كل روائي عربي يريد أن يتميز ويضيف إلى الرواية العربية بصمة جديدة.

3- محفوظ والنثرية العربية:

يتحدد انجاز محفوظ، بشيء من الإيجاز المخل - في الرواية العربية؛ في أنه كان أحد الكتاب والروائيين العرب؛ الذين طوعوا النثر العربي؛ لأغراض إبداعية، وساهموا في تدعيم سلطة النثرية العربية الحديثة في الكتابة السردية العربية الحديثة؛ وعملوا على تشرب هذه النثرية ببلاغتها الحديثة للسرد وأشكاله؛ خاصة منها الرواية؛ حيث كانت تجربة الكتابة عند محفوظ عينة فنية متميزة ونادرة على مراحل تطور الرواية العربية؛ فقد رافقت كتابة الرواية عند محفوظ مختلف لحظات التطور والتشكل الفني للنص الروائي العربي إلى درجة يمكن القول معها، إنما عرفه النص الروائي العربي في مصر من تطور فني منذ منتصف الثلاثينيات إلى منتصف الستينيات على يد نجيب محفوظ، كان العينة والنموذج النصي؛ لانتقال الخطاب الروائي العربي من لحظة فنية إلى أخرى؛ من لحظة انجاز ما سمي في تاريخ السرد العربي بالرواية التاريخية فالواقعية النقدية فالرواية الذهنية وهي اللحظات التي رصدها مؤرخو السرد العربي والمشتغلون بالشعرية العربية وبالسرديات التاريخية منها خاصة - انطلاقا من مدونة محفوظ الروائية؛ بشيء من التتابع والتمفصل الفني يقيم شبه تطابق ما بين تطور الرواية العربية ولحظات تشكل خطابها وبين تطور الكتابة الروائية عند محفوظ وأزمة انتقاله من نسق سردي إلى آخر؛ وهذا - في نظرنا - هو المظهر الفني الشعري المجسد للمقولة القديمة الجديدة؛ القائلة بأن محفوظ كان عقبة كأداء في وجه ظهور روائيين جدد إلى أن

"انفرط العقد المقدس"¹ نهاية الستينيات؛ ودخلت الرواية العربية لحظة أخرى من لحظات تشكل خطابها؛ على يد روائيين جدد.

1.3- هذا التطابق ما بين تطور الرواية العربية وتطور الكتابة الروائية عند محفوظ على مستوى الانجاز؛ كان نابعا في نظرنا من سمة فنية لازمت الكتابة الروائية عند محفوظ؛ وكانت في ذات الوقت الخاصية الشعرية؛ التي دعمت باستمرار سلطة النثرية العربية الحديثة، هذه السمة هي الاشتغال باللغة كمقوم أساسي من مقومات شعرية الرواية؛ فقد انتبه نجيب محفوظ في بداية كتابته السردية إلى أن اللغة مقوم فني أساسي من مقومات الخطاب الروائي؛ وأن الرواية إبداع تخيلي يتوسل باللغة؛ ولأن خبرة محفوظ بالنثرية العربية وتمكنه من أنساقها اللسانية كانت عميقة فقد أتاحت له هذه الخبرة؛ القدرة على الاشتغال باللغة بمستوياتها المتعددة؛ فكانت هذه الخاصية الأسلوبية عند محفوظ السمة الفنية التي لازمت التطور السردى عنده، وعملت على إبراز دوره المتميز في تدعيم النثرية العربية الحديثة؛ من منطلق إبداعي تخيلي هذه المرة. فإذا كانت هذه النثرية قد عرفت مع منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين تطورا نثريا ملحوظا تمثل في تطويع النثر العربي الفصيح بمستويات متعددة ساهم فيها تطور الصحافة والنشر؛ فإن مستويات التطويع الفني والإبداعي لهذا النثر في الكتابة السردية وقتها، كان له الدور الأساسي في تطوير النثرية العربية الحديثة وتدعيم بلاغتها؛ فقد ساهم الكتاب والروائيون العرب حينها في تكريس سلطة هذه النثرية كل من موقع خبرته باللغة العربية وتمكنه من أساليبها البلاغية وامتلاكه لمدلولاتها.

¹ انفرط العقد المقدس: كتاب لمحسن جاسم الموسوي يؤرخ لتطور الرواية العربية، منشورات الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999.

2.3- وقد كان دور محفوظ في هذا المجال أساسيا نظرا للأسباب التي ذكرنا سابقا؛ فكان التطوير السردي للكتابة الروائية نابعا من وعيه الروائي بأهمية شعرية اللغة ودورها في تشكل الخطاب الروائي؛ لذلك واكبت لغة محفوظ مراحل تطور الكتابة لديه؛ لأنها كانت الأساس الذي تم من خلاله التطور الفني؛ والوسيلة التي حققت ذلك. لقد كان الاشتغال باللغة كمكون أساسي من مكونات الخطاب الروائي السمة البارزة في المنجز السردى لمحموظ؛ وتمكن ملاحظة هذه السمة في مظهرين أساسيين طبعا الكتابة السردية عند محفوظ وعملا على تطور شعرية النص الروائي العربي وإثراء النثرية العربية الحديثة لاحقا:

1.2.3- يتمثل الأول منهما في انفتاح اللغة الروائية على المنطوق الاجتماعي والثقافي للمجتمع المصري؛ بطبقاته وفيناته وتكويناته الاجتماعية المختلفة؛ فقد كان المتكلم في الرواية متعددا بتعدد ألسنته ولهجاته ولغاته الاجتماعية؛ وهي التعددية اللغوية: التي حافظ فيها نجيب محفوظ على بلاغة اللسان العربي؛ فكانت كل شخصية تتكلم من موقعها الاجتماعي أو المهني؛ فيأتي المنطوق الروائي معبرا عن حرارة التجربة الاجتماعية في تجليها اللساني وانجازها التلفظي، ولكن بما هي عربية هذه المرة؛ أي أن ارتباط محفوظ بلغة ولسان المتكلم في الرواية لم يخرجها في أغلب الأحوال عن أسلوب اللسان العربي وشروط إبانة الفصحى؛ فجاءت رواياته متسمة بتعددية في مستويات اللغة؛ بتعدد المنطوق الاجتماعي للمجتمع المصري؛ ولكن بما هو عربي؛ ولم يكن الميل إلى العامية في أغلب النصوص الروائية عنده إلا في حالات التماهي اللساني والبلاغي أحيانا بين العامية والفصحى؛ وهي ظاهرة لسانية لغوية قد لا يدركها إلا من كانت له خبرة لغوية ومعرفة لسانية عميقة بالأنساق اللسانية للهجة المصرية وطرائق انجازها وطرق التلفظ بها.

2.2.3- المظهر الثاني الذي طبع الكتابة الروائية عند محفوظ هو تعدد الأنساق اللسانية وثراءها؛ فقد اتسمت النثرية السردية عند محفوظ بتعدد الأنساق اللسانية وتنوعها؛ نتيجة لامتلاكه لهذه الأنساق وتمكنه من الأساليب العربية؛ وتمكن ملاحظة هذا التعدد في الأنساق اللسانية وتنوع مصادرها؛ في الكتابة الروائية عند محفوظ من خلال تطور المنجز السردى لديه؛ فقد واكب اللفظ المعنى عند محفوظ؛ ففي كل مرة من لحظات تطور النص السردى عنده؛ كانت الألفاظ والأساليب تأتي نابعة من نثرية ذلك التوجه. ففي اللحظة التاريخية؛ جاء النص الروائي منفتحاً على النص التاريخي بأنساقه اللسانية، متعلقاً مع النثر التاريخي مستفيداً من أساليب النثرية العربية التي وظفت لكتابة التاريخ؛ قريباً من أجوائها ومستويات تكثيفها للحدث التاريخي دون أن يؤثر ذلك على النص الروائي وحينما أنتقل محفوظ في لحظة ثانية من تاريخ تطور الكتابة عنده؛ بكتابته الرواية الواقعية النقدية؛ انفتح النص الروائي لديه على المنطوق الاجتماعي للمجتمع المصري بلغاته ولهجاته المتعددة فكان اختيار المعجم وتلبس اللغة بحرارة المنطوق الاجتماعي بمستوياته المختلفة والمتعددة - المصدر الثاني في إغناء وثراء اللغة الشعرية للرواية عنده وفي انفتاح النثرية العربية وأساليبها على المنطوق الاجتماعي للمجتمع المصري والسير به في خط الحفاظ على الخصوصية المحلية والتعبير عنها بأسلوب عربي مبين؛ دون أن يجذبه هذا التوجه في الكتابة إلى اللجوء إلى العامية والتعبير بأنساقها اللغوية اللهجية ولعل الصدق في التعبير عن هذا التوجه والأمانة في نقل شعريته إلى خطاب الرواية هو الذي ميز الكتابة الاجتماعية النقدية عند محفوظ وأوصلها إلى مساحات من التلقي المشترك؛ ساهمت - في نظرنا - في الارتقاء به إلى مصاف الكتاب والروائيين الكبار؛ الذين استحقوا التكريم والفوز بجوائز عالمية كجائزة نوبل للآداب التي حصل عليها.

وعند ما انتقل محفوظ في لحظة ثالثة إلى الرواية الذهنية؛ انفتح النسق اللساني والأسلوب اللغوي وأشكال التعبير لديه على النثرية العربية المرتبطة في تاريخ النثر العربي؛ بالتأمل والتفكير وأساليب التجريب والتجريد؛ وهي تقاليد من القول خبرتها النثرية العربية ولعل إشغال محفوظ المبكر بالفلسفة والفكر والتأمل وتكوينه الفلسفي؛ هي الروافد الأساسية لانفتاح نثره السردية في روايات هذه المرحلة على الأنساق اللسانية لهذه النثرية وتوظيفها إبداعياً، ومن هنا جاء ثراء اللغة والتراكيب في هذه الروايات؛ وقدرتها التعبيرية على تكثيف المتخيل السردى للرواية الذهنية والقدرة على تركيب مجازاتها وإنتاج دلالاتها النصية وانفتاحها على التأويل والتلقي.

إن انفتاح اللغة على المنطوق الاجتماعي وتعدد أنساقها اللسانية وتنوع مصادر إنتاجها عند محفوظ، هي العوامل الأدبية والسردية التي ميزت الكتابة السردية والمنجز النصي عنده؛ وهي السمة الشعرية التي عملت على تجدد الكتابة السردية لديه ولازمت تطويعه للنثر العربي؛ فكان بذلك أحد أهم الكتاب العرب الذين جذروا الرواية في النثرية العربية ولاعموا شكلها السردى مع بلاغة الكتابة العربية وعبقورية أنساقها اللسانية.

المداحون ببلاد شنقيط:

محاولة لتلمس الأصول*

محمد بن تنّا

قسم اللغة العربية وآدابها

يتبوأ مدح الرسول (ص)، في مظهره الشعبي الاحتفالي، مكانا ملحوظا بين الممارسات الثقافية في بلاد البيضان، بالنظر إلى مستوى الأداء وإلى حجم الجمهور الذي يتعاطاه تلقيا وإنتاجا. ومع ذلك فإنه لم ينل حظه من اهتمام الباحثين. لا من حيث أصوله، ولا من حيث خصائصه الشعرية والنغمية، ولا من زاوية تلقيه. وهذه القضايا الثلاث - كما هو واضح - يمكن أن تكون موضوعا لمقاربات تتأسس منهجيا على مفاهيم التطور أو البنية أو التلقي. ولئن كان عنوان هذا العرض أشد لصوقا بالتاريخ فإنه، في واقع الأمر، قد يتوسل - وإن لم يخل الأمر من مفارقة - بالبنية وبالتلقي إلى مبحث النشأة لشح الإشارات التاريخية إليها.

وهكذا تود هذه الورقة الموجزة أن تتوقف أولا عند الملمح التعبدي في المدح، ثم عند ملمح التسلية والتطريب، انتهاء بما يمكن وصفه بأنه ملمح طبقي لهذا الفن، لتخلص أخيرا، إلى محاولة لتلمس الجذور.

1. ملامح بارزة في المدح ببلاد شنقيط

1.1- الملمح التعبدي

ليس من حاجة للوقوف عند مكانة مدح الرسول (ص) لدى عموم أهل الملة، غير أنه لا ضير في التنكير أن لهذا المدح عند المجتمعات التي ساد فيها المذهب

الأشعري من المكانة العالية ما ليس له في مجتمعات لا تعتقد القول بالشفاعة¹ أو تتأثم من بعض الأمداح خوفاً من الشرك²، من جهة، وأن للشفاعة من المكانة في المجتمعات التي عرفت التصوف ما ليس لها في المجتمعات التي لم تعرفه، فبالرغم من محاولة أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي المتوفى سنة 505هـ/1111م التنبية إلى "أنه لو كان كل ذنب تقبل الشفاعة فيه لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله وسلم فاطمة رضي الله عنها عن

• قدمت هذه الورقة في ندوة اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، دجنبر 2012

¹ يقول أبو الحسن الأشعري (324هـ/936م): "ويقال لهم (= المعتزلة) قد أجمع المسلمون أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم شفاعة، فلمن الشفاعة؟ هي للمذنبين المرتكبين الكبائر أو للمؤمنين المخلصين، فإن قالوا للمذنبين المرتكبين الكبائر وافقوا (...) وقد روي أن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المذنبين يخرجون من النار (...) وأنكرت المعتزلة الحوض وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة وروي عن أصحابه بلا خلاف" الإبانة عن أصول الديانة، إدارة المطبعة المنيرية، مصر، دون تاريخ، ص 65-66. غير أنه يجدر التنبيه إلى أن عقيدة الاعتزال عند الشيعة لا تناقض القول بشفاعة الرسول (ص) في مرتكبي الكبائر من أمته، شفاعة علي وأئمة آل محمد، انظر: مصطفى كامل الشيبني، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، القاهرة، 1969 ص 399.

² يمكن الرجوع مثلاً إلى تلقي بعض المعاصرين من الوهابيين لأشعار البرعي والبوصيري.

المعصية"¹، ظل الاتجاه الغالب على متصوفة الإسلام توسيع دائرة الشافعين لتشمل إلى جانب الأنبياء الصديقين².

على أن التصوف، في هذا السياق، لا تقتصر علاقته بموضوعنا على الشفاعة، إذ يجدر التذكير بأن السلاسل الصوفية تؤكد دوما ارتباطها بالرسول(ص) عن طريق الأسانيد، أو بشكل مباشر على النحو الذي يرويّه ابن المبارك السجلماسي المتوفى سنة 1156هـ/ 1743/1744م عن الشيخ عبد العزيز الدباغ (نقل عنه ابن المبارك سنة 1129هـ):

"قلما كان اليوم الثالث من يوم العيد رأيت سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، فقال سيدي عبد الله البرناوي: يا سيدي عبد العزيز قبل اليوم كنت أخاف عليك واليوم حيث جمعك الله مع رحمته تعالى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أمن قلبي واطمأن خاطري فأستودعك الله عز وجل، فذهب إلى بلاده وتركني وكانت إقامته معي بقصد أن يحفظني من دخول الظلام علي في الفتح الذي وقع لي إلى أن يقع لي الفتح في مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لا يخاف على المفتوح حينئذ وإنما يخاف عليه قبل ذلك"³

¹ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كرياضه فوتر سماراغ، أندونوسيا، دون تاريخ ج 3/ ص 365.

² يقول أبو الحسن الشاذلي المتوفى 656 هـ : الشفاعة انصباب النور على جوهر النبوة، فينبسط من جوهر النبوة إلى الأنبياء، ومن الأنبياء إلى الصديقين وتندفع الأنوار من الأنبياء والصديقين إلى الخلق" نقله الشيباني، الصلة بين التصوف والتشيع، ص 401.

³ أحمد بن المبارك السجلماسي المالكي، الإبريز من كلام الشيخ عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص 16

لهذا لم يكن غريبا أن يعرف المجتمع في بلاد شنقيط، الأشعري جملة، المتصوف غالبا، أشكالا متنوعة من المدح النبوي العالم ، سواء في ذلك ما كان منه إنتاجا يتجسد في المدونة الشعرية الفصيحة المعروفة¹ أو ما كان منه استهلاكا لنصوص بعينها² تنشأ في مناسبات وأوقات محددة³، أو على سبيل التعبد⁴ أو التبرك⁵ أو التعوذ والرقية أحيانا، فثمة اعتقاد عامي شائع بأن كل بيت من بردة محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري المتوفى سنة 696هـ/ 1295م يمثل حجابا أو رقية من علة ما⁶.

في هذا السياق نجد أن المدح الشعبي الذي هو موضوع حديثنا كان فنا تعبديا بامتياز سواء في تناوله الملحمي الصادق لمشاهد الرسول (ص) وفي حب أهل بيته وأصحابه أو في استحضاره للموت والقيامة وتحويله صراحة على شفاعته الرسول (ص).

¹ لا نذكر ديوانا من دواوين الشعر الموريتاني القديم يخلو من مدح الرسول (ص) أو من اختتام القصيد بالصلاة عليه.

² مثل بانث سعاد لكعب بن زهير وأشعار البوصيري وابن مهيب (أو ابن وهيب كما يسميه العوام)

³ انظر مثلا: محمد الأمين ولد الناتي، الثقافة الشنقيطية، مقاربة نسقية، الطبعة الأولى، مركز نجيبويه، نواكشوط، دون تاريخ، ص ص 331، 359.

⁴ كإحياء ذكرى المولد النبوي بإنشاد أشعار المديح بعد صلاة العشاء في مساجد مدينة شنقيط طوال ربيع النبوي. وكذا ظاهرة (دكداكه) في مدينة النعمة التي تنظم بعد العشاء من ليلة المولد حتى يوم العقيقة (اسم النبي، بحسب تعبير الموريتانيين)

⁵ كما يقع مثلا في افتتاح الحفلات الموسيقية التقليدية أحيانا.

⁶ وربما دونوا في ذلك بعض الأمور على نسق كتب الأسرار التي تتحدث عن خصائص الآيات.

وربما ترتب على هذا الملمح التعبدي نتائج فنية : فثمة، على سبيل المثال، اعتقاد بأن العضو من أعضاء الجسم إذا تحرك في الرقص على مدح الرسول (ص) كان ذلك عتقا له من النار. ومن ثم فإن الرقص المصاحب للمدح يهتم فيه كثيرا بتحريك أكثر ما يمكن تحريكه من أعضاء.

1. 2- ملمح التسلية والتطريب

قد لا يبدو التنافر كبيرا بين هذا الملمح وسابقه إذا استحضرننا كون السماع عنصرا هاما من عناصر الممارسة الصوفية في كثير من بلاد الإسلام¹، وكون الغاية الدينية الأصلية لا تحول دون استمتاع المتدوقين من غير الصوفية بجمال الألحان.

وحيثما كان اللحن الشجي والرقص كان تمحض الحفل لغايته الدينية أشد صعوبة، وهنا يقع الانزياح نحو التسلية على مستوى الجمهور ثم على مستوى المداخ. وشيئا فشيئا يلتحم اللهو بالمدح ليصطبغ اللهو نفسه بتلك الصبغة التعبدية. وربما تكون هذه الخصيصة هي ما يقرب بين المدح وفنون أخرى ذات طابع ترفيهي محض مثل بنجه²

ولئن كان المدح وبنجه يشتركان في الأصل العربي للتسمية خلافا للموسيقى العالمية (أزوان ذات التسمية البربرية) فإنهما يتفقان معها في علاقة الرقص بالطبل من

¹ آدم متر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ترجمة عبد الهادي أبو ريده، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957، ج 2 صص 25، 26، 27.

² تعني بنجه في التداول المحلي الغناء على الطبل المصاحب بالرقص، في حين نجد أن مدلولها في القاموس هو الرقص انظر، مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، طبعة دار المأمون 1938، مادة ف ن زج " الفنزج رقص للعجم يأخذ بعضهم بيد بعض، معرب بنجه"

جهة وفي طبيعة مشاركة الجمهور في الحفل بارتجال الأشعار¹ التي تمثل منزلقاً نموذجياً من التعبد إلى اللهو²، ويمكن أن يستشهد في هذا السياق بمقطع من وصف لمجلس من مجالس الموسيقى لميشيل غينيار (Michel Guignard) يقول فيه:

"وبالنسبة للرقص الذي يكون، في الأغلب، في مقام (فاغو)³ يستخدم الطبل الكبير، وقد تستخدمه إحدى الموسيقىات طباقاً إيقاعياً، بل ربما رقصت أحياناً وهي تضربه في الوقت ذاته؛ فالحركات تكمل نقر الطبل إذن أو تحل محله: هذا المزيج المؤلف من الحركة والصوت يكون أخاذاً. وإذا لم يكن طبل فإن التيكوبت تعمل عملاً مماثلاً على ظهر آلتها (آردين)⁴."

في مقاطع أخرى يغني الموسيقى بعض الأشعار الحسانية⁵ المعروفة، ومن بعد فإن المستمعين أنفسهم قد يسرون له أشعاراً بالمناسبة يفترض أن يكونوا ارتجلوها في اللحظة ذاتها، في نفس وزن المقطع ورويه. يتلو ذلك لون من المساجلة الشعرية

¹ جلي أننا لم نعرض هنا للنص الشعري المغنى بالرغم من كونه يمثل مدونة هامة.

² والأمثلة كثيرة، انظر مثلاً:

جابر تلياع من اظفير وامطاحك بانول منهم مستمسك بيزر سول الله يشفعول
(من تسجيل للمرحوم البان ولد النانه)

وقد عرضنا لأمثلة من الشعر الحساني يتعاش داخلها مثل هذا التناقض بين امتثال الأمر وانتهاك النهي، انظر: محمد بن تتا، من قيم الفتوة في الشعر الحساني: الغفلة والضلال، في الموكب الثقافي، عدد دجمبر 1996، ص 29.

³ من مقامات الموسيقى العالمية ببلاد شنقيط

⁴ آلة وترية تعزف عليها المرأة.

الحية بين المشاهدين وتكتسب التورية في هذا السياق قيمة كبرى، خصوصا حين لا يكون المعني المخفي مفهوما إلا من لدن الصديق"¹.

1. 3 - الملمح المجتمعي

سبق الإلماح إلى مدح عالم ينتجه أو يستهلكه بعض عليية القوم في مواقف أو مناسبات مخصوصة ويرويه ميزة لهم عن المدح الشعبي الذي يتمحض لغير المتعلمين من الأرقاء ومن على شاكلتهم ولا يحضره المميزون. فكأن في اقتسام العمل اقتساما للعلم أيضا. فالمشتغلون بالعلم يتداولونه في دائرة قد لا يراد له الخروج عنها. والمشتغلون بالعمل ينتجون على طريقتهم الخاصة "علمهم" الذي يلبي حاجتهم إلى التدين دون أن يضيق عن حاجتهم إلى الترفيه بين مشقات العمل.

وكما هي الحال غالبا في مجتمعات الفئات المغلقة (castes) نحس أحيانا لدى غير واحد من المتكلمين في موضوع المدح ميلا واضحا إلى ربط هذا اللون منه بشرائع² الأرقاء والأرقاء السابقين وربما يستجيب ذلك لصناعة فنية كلاسيكية أساسها التمييز بين فن السيد وفن المسود³. ولكن المدح في ما يبدو لم يكن حكرا

¹ Michel Guignard *Musique: Honneur et plaisir dans le Sahara*, Librairie Orientaliste Geuthner, Paris, 2005 (rééd. augmentée de l'édition de 1975). p

² فضلنا استخدام صيغة الجمع لعدم التجانس بين هذه الشريحة (أرقاء، أحرار غير بعيدي العهد بالرق، بعيدو عهد بالرق، ملاك عبيد) وعدم التجانس هذا تجده حاضرا كذلك عند تناول بقية شرائح المجتمع الموريتاني.

³ انظر مثلا: رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981، ص 246.

على هذه الشرائح، بل لعله كان، من حيث إنتاجه، فنا رعويا تمارسه الشرائح
الراعية من البيض والسود ومن العبيد والأحرار.

هذا الطابع الرعوي يؤكد من منظورنا ارتباط المدح بالشنة¹ بدل الطبل
وبالمزمار (النيفاره) واختصاصه داخل المدينة القديمة بالأطراف.

2. ملامح مماثلة في الفضاءات الثقافية المتاخمة

هذه الملامح الثلاثة لا تبدو غريبة في الفضاءات الثقافية المتاخمة:

2- 1 في بلاد السودان

في بلاد السودان وما جاورها كان حفظ الأنساب والتغني بالمناقب والبطولات
وظيفة المشتغلين بالغناء ولكنه كان عندهم وظيفة هامة من وظائف الدولة،
يمكن التمثيل لها بما يرويه ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن
محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المتوفى 779هـ / 1377م عن (دوغا) مترجم
الملك في بلاد السودان:

"وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب بالآلة التي هي من قصب وتحتها
قريعات، ويغني بمدح السلطان فيه يذكر غزواته وأفعاله ويغني النساء والجواري
معه ويلعبن بالقسي (...) ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في
الهواء (...) وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال
من التبر (...) وبالغد يعطي كل واحد منهم لدوغا على قدره"²

¹ الشنة طبل مؤقت يصنع بتثبيت جلد على هاون أو آلة مماثلة، وتمثل تقليدا يوميا في بعض
أنحاء موريتانيا دون أن ترتبط دوما بالمدح.

² ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار،
المطبعة الخيرية، 1322 هـ ص 241

هذه المكانة التي كان يحظى بها مادح السلطان في بلاد السودان ما فتئت بعد انتشار الإسلام أن تمتع بمثلها مادحو الرسول (ص) بحيث تصبح ممارسة مدح الرسول مقدمة عندهم على ما تقتضيه مخالطة الملوك وصحبته، على النحو الذي يروونه عن الفقيه إبراهيم الزلفي . أبي القاسم الذي بلغ "من شدة اجتهاده لملازمة المدح أن أسكيا قد دعاه، وهو يريد الركوب، فأرسل إليه أحدا لدعوته فوجده الرسول مشغلا بالمدح، فلم يجب لدعوته، بل قال له: "وأدنيته بالذكر فهو به معي" أبيات من الفزاري، ومعنى ذلك أنه لا يجب دعوة أحد ما دام في مدحه¹

2-2 في الجنوب الموريتاني

أما في الجنوب الموريتاني فإننا نجد على شاكلة (دوغا)، الذي ورد ذكره عند ابن بطوطة، هؤلاء النسابين المتعلمين الذين يلمح إليهم يوسف كي (Y.GUEYE): "ولئن كنا لا نعرف الكثير عن أصل هذه الأشعار كما أشرنا إليه سالفًا، فإننا نعرف أشهر مقلديها في البلاد البولارية، هؤلاء المقلدون ندعوهم عادة "بيتوت": من

¹ محمود بن محمد ددب الملقب حمولالأرواني التمبكتي، تنبيه المادح المقلد لما كان عليه سلف تنبكتو في الموند، موقع المولد النبوي <http://www.sufia.org> ص 84، وتمدنا المصادر الموريتانية لاحقاً بموقف مشابه نجده في نص مشهور للبيدالي: "واني لما أنشأت هذه القصيدة على محاكاة الشعر الحساني وجد علي بعض أعيان المغافرة (...) فقال: لم نزعرت كرزتي؟ يعني قصيدته التي يمدح بها فقلت له نعم نزعرتها وجعلتها على أفضل مني ومنك. فلم يزد أن أطرق ساعة فقال صدقت. وأعطاني حينئذ عددا من اللباس ثم جعل ذلك العطاء وظيفة عليه ثم توارث ذلك بعده أهله إلى الآن والحمد لله وما ذلك إلا ببركة ممدوح القصيدة (ص) محمد اليدالي الديراني، المريبي على صلاة ربي، تحقيق توت بنت بدو، بحث تخرج من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط، 2001، ص 19.

يغنون الأبيات ويسمون كذلك "المدا" وهنا يظهر جليا أنها كلمة ذات أصل عربي. نضيف أن هذه التسمية تبقى هي نفسها في جميع أنحاء فوتا الاستوائية وفوتا الشرقية مهما يكن الأصل الاجتماعي، ففي تورو تعنى بعض الأسر من النسابين المتعلمين عادة والمتدينين الذين يكرسون جهدهم لمدح الأوجه البارزة للإسلام¹ وقد لا نستغرب هذه التسمية العربية للمداح في البولارية إذا استحضرننا من بين أمور أخرى ما سبق ذكره من عناية أهل السودان بالأمداح النبوية فـ "منهم الفقيه الصوفي المتواضع الذي جعل عمره كله في مدح النبي ﷺ الشيخ أحمد بن فودي بن موسى بن خطيب من أهل سكندما، في نواحي فرمكي ولاية نيافنكي.

كان هذا الصالح ورعا تقيا وكان معاصر الشيخ أحمد الماسني وقصائده كلها باللغة الفلانية، وله قصائد بكلمات مقطعة، كلمة عربية وكلمة فلانية. وكان يرعى الأفيال وله حكايات عجيبة وغريبة. وتتشد قصائده عند جميع قبائل الفلّان وغيرها. ولا سيما عند أهل المواشي²

2-3 في المغرب والشمال الإفريقي

هذا المداح الذي يحدثنا عنه يوسف كي، يحدثنا عنه كذلك غير واحد من المهتمين بتاريخ التمثيل والمسرح في بلاد المغرب، يقول حسن المنيعي:

¹ جيو محمود، ترجمة فصل من كتاب "مظاهر من الأدب البولاري في إفريقيا الغربية. بعض الأوجه من الجنوب الموريتاني" مؤلفه تين يوسف كي، رسالة تخرج أعدت بقسم الترجمة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، السنة الجامعية 2000-2001م، ص 11.

² تنبيه المادح المقلد لما كان عليه سلف تنبكتو في المولد، ص 77.

"كانت الحلقة عبارة عن مسرح شعبي يشرف على تقديم فرجاتها بعض الأفراد المختصين في الحكاية والإيماءة والألعاب البلهوانية وكان الممثل الذي قد يكون "مداحا" أو "بقشيشا" أو شخصية مسلية يعرض إبداعاته في الأسواق وفي ساحات المدن الكبرى كباب عجيسه وباب فتوح بفاس وباب جديد وباب منصور العليج بمكناس وباب جامع الفناء، فهذه الساحة الأخيرة مثلا تمتاز بشهرة عالمية"¹ "ففي الساحات الكبرى تتجلى صورة أولئك المداحين وهم يجسدون وسط حلقة من السامعين بطولات عنتر بحيث تبدو وجوههم محفورة من شدة الشقاء يأخذ صوته غنة لطيفة ساعة حديثهم عن مجالس الحب ويقسو أثناء الإنشاد بمشاهد العمل"²

3. ملامح تراثية مماثلة؟

هذا المداح الذي وردت تسميته في الجنوب الموريتاني كما تواتر ذكره في الشمال الإفريقي، هو من لاحظ شارل بيلا Charle Pellat (1914-1992)³ في ترجمته لـ "ذكر القصاص"⁴ من كتاب البيان والتبيين التشابه بينه وبين القصاص الذين تحدث عنهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى 255هـ/ 767م في البيان والتبيين وفي الحيوان وفي رسائل مختلفة. ويستطيع المرء دون كبير عناء أن يلاحظ القرابة الصنفية بين قصصهم وبين المدح.

فقد كان قصص القصاص يعد قربة من القربات، قال الأول:

¹ حسن المنيعي، أبحاث في المسرح المغربي، مطبعة صوت مكناس، 1971، ص15.

² المهدي حمير، ذكره حسن المنيعي، مرجع سابق، ص 29.

³ Charles Pellat, Le milieu basrien et la formation de Gahiz, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1953, p

⁴ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة الهلال ببيروت والمكتب العربي بالكويت، 1968 ج 1، ص 376

أروح إلى القصاص كل عشية وأرجو ثواب الله في عدد الخطى¹
وقد ظل القصص دوما يستمد سلطته من هذه الوجهة، دون أن تتأثر هذه السلطة
كثيرا بما استجد عليه من عناصر اللهو والتسلية التي يذكرها لنا أبو نواس الحسن
بن هانئ الحكمي المتوفى 190هـ/ 805² وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدينوري المتوفى سنة 276/ 889³ و الغزالي⁴ وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن
الجوزي المتوفى سنة 597هـ/ 1201 م⁵ والتي ربما تكون من الأسباب التي جعلت
القصص فنا مرذولا على حد تعبير مصطفى صادق الرافعي (1880-1937)⁶.
ومع أن ابن الجوزي يعقد فصلا لذكر من كان يحضر عند الأكابر من القصاص⁷
فإن فعله قد يفيد التأكيد على أن حضورهم كانوا في الغالب من العوام، كما يصرح

¹ الجاجظ، رسائل الجاجظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة الخانجي، 1964. ج 2 ص 128

² أبو نواس الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس، صححه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 250.

³ ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، القاهرة 1963، ج 4، ص 91: "عن علي بن هشام: كان عندنا بمرور قاص يقص فيبيكنا، ثم يخرج بعد ذلك طنبورا صغيرا من كفه فيضربه فيغني ويقول: يا ابن تيمار أندكي شادي، معناه: ينبغي بعد هذا الغم قليل فرح"

⁴ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ، ج 2 ص 236،

⁵ أبو الفرج بن الجوزي، كتاب القصاص والمذكرين، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ، بيروت 1984، ص 370.

⁶ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1940، ص 397

⁷ كتاب القصاص، ص 193

به هو نفسه¹، ويصرح به من قبله الجاحظ² وابن قتيبة³ وكلثوم بن عمرو بن أيوب العنابي الشاعر المتوفى سنة 208هـ/ 823م⁴. وهذه الملامح كلها حاضرة في المدح، كما تحضر فيه مسحة تشيع⁵ لا تخطئها العين، لا نعلم كثيرا عن أصولها التاريخية كنا قد لاحظناها من قبل في القصص واعتبرناها سر تهميش فنون السرد والتمثيل في الثقافة العربية الإسلامية⁶.

المصادر والمراجع

الأشعري (أبو الحسن)

- الإبانة عن أصول الديانة، إدارة المطبعة المنيرية، مصر، دون تاريخ بطوطة (ابن).

¹ كتاب القصاص، ص 318 مثلاً.

² أبو عثمان الجاحظ، كتاب الحيوان، شرح وتحقيق يحيى الشامي، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت 1986، المجلد الأول، ص 371 قصة أبي كعب القاص.

³ ابن قتيبة الدينوري، تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، 1386، ص 9

⁴ كتاب القصاص ص 319-320.

⁵ قد لا تتفصل هذه المسحة عما نلاحظه في المجتمع الشنقيطي من ميل غير واع إلى التشيع، يتجلى مثلاً في التسمي بأسماء أئمة الاثنا عشرية كالمجتبى وزين العابدين والصادق والرضا، وتعويد الصبيان بأسمائهم، والرقية بأسماء أهل الكساء.

⁶ محمد بن تتا، القصاص والمذكرون، إسهام في تفسير منزلة فنون السرد والتمثيل في الثقافة العربية الإسلامية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقون بكلية آداب محمد الخامس، الرباط، 1999.

- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار، المطبعة الخيرية، 1322 هـ
تتا (محمد بن -)

- القصاص والمذكرون، إسهام في تفسير منزلة فنون السرد والتمثيل في الثقافة العربية الإسلامية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقون بكلية آداب محمد الخامس، الرباط، 1999.
- من قيم الفتوة في الشعر الحساني: الغفلة والضلال، في الموكب الثقافي، مجلة اللجنة الوطنية الموريتانية لليونسكو، عدد دجمبر 1996.

حمو الأرواني التمبكتي (محمود بن محمد ددب الملقب -)

- تنبيه المادح المقلد لما كان عليه سلف تنبكتو في المولد، موقع المولد

<http://www.sufia.org> النبوي

الجاحظ (أبو عثمان)

- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة الهلال ببيروت والمكتب العربي بالكويت، 1968
- كتاب الحيوان، شرح وتحقيق يحيى الشامي، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة الخانجي، 1964.

الجوزي (أبو الفرج ابن -)

- كتاب القصاص والمذكرين، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ، بيروت 1984

جيو (محمّدو)

- ترجمة فصل من كتاب "مظاهر من الأدب البولاري في إفريقيا الغربية. بعض الأوجه من الجنوب الموريتاني" لمؤلفه تين يوسف كي، رسالة تخرج أعدت بقسم الترجمة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، السنة الجامعية 2000-2001م.

الرافعي، (مصطفى صادق)

- تاريخ آداب العرب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1940

الشيبي (مصطفى كامل)

- الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، القاهرة، 1969.
- الغزالي (أبو حامد):
- إحياء علوم الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ،
- إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كرياضة فوتر سماراغ، أندونيسيا، دون تاريخ.

الفيرزبادي (مجد الدين)

- القاموس المحيط، مطبعة دار المامون 1938

قنتية (ابن - الدينوري)

- عيون الأخبار، القاهرة القاهرة 1963
- تأويل مختلف الحديث تحقيق محمد زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، 1386

المبارك (أحمد ابن - السجلماسي المالكي)

- الإبريز من كلام الشيخ عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.

متز (آدم)

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ترجمة عبد الهادي أبو ريده، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957.

المنيعة (حسن)

- أبحاث في المسرح المغربي، مطبعة صوت مكناس، 1971

الناتي (محمد الأمين ولد -)

- الثقافة الشنقيطية، مقارنة نسقية، الطبعة الأولى، مركز نجيبويه، نواكشوط، دون تاريخ

نواس (أبو . الحسن بن هاني)،

- ديوان أبي نواس، صححه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987

ويليك (رينيه ، أوستن وارن)

- نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981.

اليدالي (محمد سعيد اليدالي الديماني)

- المري على صلاة ربي، تحقيق توت بنت بدو، بحث تخرج من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط، 2001.

Michel Guignard

Musique: Honneur et plaisir dans le Sahara, Librairie Orientaliste
Geuthner, Paris, 2005 (rééd. augmentée de l'édition de 1975)

Charles Pellat,

Le milieu basrien et la formation de Gahiz, Librairie d'Amérique et
d'Orient, Paris, 1953.

المثاقفة النقدية وأثرها في الفكر النقدي العربي الحديث

الحسن ولد محمد ولد عوان

قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمة

تعتبر قضية المنهج في الفكر النقدي من أكثر القضايا إلحاحاً في النقد العربي الحديث وربما المعاصر على حد سواء. وهي القضية التي قامت فيها المثاقفة النقدية بشأن عظيم في توجيه حركة الفكر النقدي الحديث منذ الرعيل الأول للنقاد العرب المحدثين . ولهذا، فقد كانت المثاقفة واحدة من أسباب عدة - ومن أهمها - جعلت الإجابة عن السؤال المحرج : أي المناهج يتعين إتباعه في معالجة النص العربي تبدو مستحيلة على الأقل في جانبها التطبيقي .

وإذا كانت المثاقفة أو التثاقف قد ارتبطت - في أكثر الأحوال - بالحديث عن تلاقح الثقافة العربية مع الثقافة الغربية، فإننا نعد كذلك عملية استحضار التراث النقدي العربي القديم داخلاً في إطار المثاقفة النقدية بوصفه تعبيراً عن نسق ثقافي يخالف في قليل أو كثير الواقع النقدي الحديث .

ومن هنا يكون استدعاؤه من جديد هو في حد ذاته مثاقفة وإذا كانت حالة الغرب مجاوزة لعنصر المكان، فإن حالة التراث مجاوزة لعنصر الزمان. ولعله من الفضول العلمي أن نحاول فهم الخطاب النقدي دون ربطه بمرتكزاته المعرفية وعوائقه الإستمولوجية وخلفياته الأيدلوجية وكذا امتداداته

الثقافية، وذلك أن النقد العربي الحديث والمعاصر معاً بات لصيقاً بالتحركات الاجتماعية وبالتوجهات الثقافية التي تؤطرها وذلك بحكم موقعه المتقدم في الجهاز الثقافي ولئن كان بحث من هذا القبيل لا يتسع للحديث على نحو مفصل عن الخلفيات الأيديولوجية لهذه المناهج، فإنه بإمكاننا الإشارة إلى ثلاثة مستويات يمكن تمييزها داخل هذا الإطار السيوسيو ثقافي لحركة الفكر النقدي ممثلاً في:

- 1- الموقف الحضاري بجوانبه الفكرية والاجتماعية وتفاعلات ذلك مع الإطار السياسي الذي يؤثر على حركة الفكر النقدي سلباً وإيجاباً.
- 2- الإطار الأوروبي الذي ظل يحكم الفكر النقدي العربي منذ بدايات تشكله الأولى بل إن التحولات المنهجية التي تحصل عند العرب ليست في كثير من الأحيان إلا انعكاس لما هو كائن في الغرب سواء على مستوى المنهج أو الأثر الأدبي ذاته على النحو الذي يلخصه توفيق الحكيم حين كان طالبا شرقيا جاء إلى الغرب لدراسة الأدب ووجد هذا الذي يسمونه المودرنزم والذي كان بالنسبة لهم قديماً. ولكنه بالنسبة له جديد حيث يقول توفيق الحكيم: «لا أستطيع أن أقول مع الثائر فليسقط القديم؛ لأن هذا القديم هو بالنسبة إلي جديد فأنا كما ترى موزع الولاءات مع أولئك وهؤلاء».
- 3- السوابق التراثية حيث ظلت ثابتاً أساسياً لم يستطع نقادنا الخلاص منه في تجاربهم النقدية رغم موجات الحداثة العاصفة. حيث ظل هذا التراث ثابتاً في الفكر النقدي يقوى ويضعف ولكنه لا يختفي نهائياً على نحو ما سنرى لاحقاً.

ولا نريد أن ندخل في جدلية هي: أدخل في باب الأدب المقارن منها في موضوعنا ونعني بذلك الفرق بين أن نفكر تفكيراً غريباً ونصوغه بلغة عربية أو العكس؛ لأنه كما يقول مطاع صفدي: «من أجل أن يفهم المرء ثقافة ما عليه أن يكون مثقفاً بها»¹.

إن المثاقفة قد تكون فعالة وعضوية- بالمفهوم الجراميشي للعضوية وذلك إذا قامت على قدر كبير من الوعي بالتمايز بين الذات والآخر وبين الذات وحاضرها وماضيها .

لا بد، إذن، أن يكون هناك وعي يوجه هذا التماس الثقافي سواء تعلق الأمر بالذات أو الآخر . وغياب هذا الوعي- في الأغلب الأعم - هو الذي أدى إلي قول بعض الباحثين: «إن المشروع الثقافي العربي عانى في انبعائه من ظواهر المثاقفة مع الذات التراثية تارة ومع نموذج الحضارة التكنولوجية تارة أخرى»² أي أنه يجب أن يتوفر نوع من الوعي الثقافي الذي يدفع بالمتقف إلى معرفة حقيقتهم وحقيقة الآخر³ وقد حاول الناقد محمود أمين العالم أن يحصر لنا اتجاهات المثاقفة مع هذه المناهج النقدية في أربعة تيارات أو مدارس تجمع عدداً من المناهج المختلفة في طرائق الإجراء المتفقه في جذورها الإستمولوجية والفلسفية هي:

¹ - مطاع صفدي، الفكر العربي ومعركة المنهج، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 9,8

كانون الأول والثاني 1980-1981، المركز الإنمائي العربي، ص17.

² - المرجع السابق، ص21.

³ - محمد خرماش، النقد الأدبي الحديث في المغرب وإشكالية المناهج(النبوية، التكوينية نموذجاً)، بحث دكتوراه 1989 جامعة عين الشمس، القاهرة، ص138.

1- المدرسة الوجدانية ذات الأبعاد الرومانسية ممثلة في مدرسة الديوان ومدرسة ابولو، وميخائيل نعيمة وجهود جبران خليل جبران وتطبيقات المنهج النفسي عند خلف الله ومحمد النويهي ومصطفى سويف وغيرهم.

2- مدرسة الذوق الفني كما تجلت في نقد طه حسين الذي بدأه تقليدياً ثم متأثراً بمناهج الحتمية التاريخية عند هيبوليت تين ثم الجمع بين منهج البحث العلمي والذوق الفني بعد ذلك وكما هو عند محمد مندور في نظراته النقدية.

3- المدرسة النقدية الجدلية التي تتخذ من مفهوم الانعكاس أساساً في معالجة العمل الأدبي كما في كتابات سلامة موسى ومجلة الطليعة السورية وحسين مروة ولويس عوض و عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح حافظ ومحمود أمين العالم وعبد المحسن طه بدر . ثم في أتباع المدرسة التكوينية عند (جولدمان) أمثال جابر عصفور ومحمد برادة ، وأتباع ميخائيل باختين أمثال يمنى العيد و د.سيد البحراوي وأمنية رشيد.

4- المدرسة النقدية الوضعية والبنويية كما في كتابات أدونيس وصلاح فضل وفريال غزوال، وسيزا قاسم وخالدة سعيد وكمال أبو ديب وعبدالفتاح اكليطور والغذامي وعبد الكريم الخطبي. ومن هنا برزت مشكلة المثاقفة النقدية التي تكشف لنا إشكال الثقافة العربية وليس النقد فحسب، في مثاقفتها مع الغرب في جميع المعارف. هذه المشكلة يمكن اختصارها في اتجاهين متعارضين أحدهما: يدعى الأصالة ولكنه منغلق عاجز والثاني: يزعم التفتح ولكنه مستلب «وكل حزب بما لديهم فرحون». والرفض المطلق والقبول المطلق كلاهما دليل تيه منهجي ومثاقفه بلا وعي. إذن، فأين يكمن العطب المعرفي والخلل المنهجي؟

وكما أسلفنا، فإن أسهل الحلول هو: بروز نزعة توفيقية في النقد العربي الحديث تراعى توافق كثير من المفاهيم النقدية بين خطأ بين نقدين عربي وعربي. ومعلوم أن المنزع التوفيقى هو عادة الحل الذي يلجأ إليه من لم يجد حلاً.

ويرى بعض الدارسين أن الخلط بين المفاهيم والمناهج والسياقات في التنظير والممارسة الإجرائية هو سمة من سمات الخطاب الحدائى في ثقافته مع الغرب وكذا عزل المفاهيم والمناهج والسياقات في التنظير والممارسة الإجرائية هو سمة من سمات الخطاب الحدائى في ثقافته مع الغرب وكذا عزل المفاهيم والمناهج المستعارة عن سياقها المنهجى والثقافى: إما جهل بها أو تهميش لها على قاعدة أن التقدم والمعرفة لا تتم إلا من خلال الثقافة معه وقد روج لهذه النظرة جيل الليبراليين في أوائل القرن العشرين.

ويرى بعض المهتمين بالفكر النقدى أن الثقافة مع الغرب مرت بمرحلتين:

1- مرحلة الانبهار والتقليد (كمال أبو ديب: الرؤى المقنعة وسعيد بن سعيد في حادثة السؤال وجابر عصفور في كثير من دراساته المنشورة في مجلة فصول: أدونيس في صدمة الحادثة).

2- مرحلة التساؤل حيث بدأت تظهر نغمة جديدة من الشك والتساؤل عن وضع النقد العربى المعاصر الذى عجز عن صياغة نظرية نقدية عربية تنتمي إلى التراث الإسلامى وتعطى شروط العصر والشعور بالثقافة غير المتكافئة، كما يظهر، جلياً، في كتابات د. شكري عياد وحسين الواد وغيرهم. الأمر الذى استدعى مراجعة الثقافة العربية من جديد ونقدها وتفكيك آلياتها تارة بآليات غربية ورؤيا انتقائية متعسفة، كما نجده عند

أدونيس والجابري وحسن حنفي والطيب تزيني وجابر عصفور والعروي وأركون وبرهان غليون وغيرهم وتارة برؤى عربية باحثة عن منفذ لها يعضدها إحساس بقيمة العقل العربي وعظمة تراث الإسلام، كما نجده عند محمد جابر الأنصاري ومحمد قطب ومحمود شاكر وغيرهم، وذلك على أساس أن المثاقفة وفق المنهج الراشد توسيع للمدارك وإنارة للذاكرة الجمعية ويمقتضى هذا الرشد يتحقق ترسيخ الهوية¹ وقد راج هذا الطرح بعد أن فشلت النظرية الليبرالية في تقديم الحلول وأصبحت شعارات من قبيل الإسلام هو: الحل هي الطرح المقبول وقتذاك حيث عرف بعض زعماء التيار الليبرالي تراجعاً فكرياً في طرحهم لهذه الإشكاليات، فبدأ طه حسين يكتب في السيرة النبوية وكذلك العقاد ومحمد مندور وغيرهم. والواقع؛ أنه أياً كان توجه الناقد والخلفية التي ينطلق منها: إما أنه يحاول تطويع هذه المناهج، لتتلاءم مع النص وبالتالي، تفقد الكثير من خصوصيتها وبريقها أو يحاول لي أعناق النص، ليتكيف مع هذه المناهج وهو في كلتا الحالتين يمارس عملية تسلط مرة على المنهج ومرة أخرى على النص وهو في كلتا الحالتين متكلف.

ذلك أن سؤال المنهج كما يؤكد حاتم الصكر، هو سؤال ذو طابع إشكالي؛ لأنه ملتقى أسئلة كثيرة تتخذ صبغة لها².

¹ - انظر فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي، الدار البيضاء المغرب، 1994، ص 223.

² - انظر فاضل ثامر، مرجع سابق، ص 223.

ومن ثم فقد أصبحت مشكلة: أي المناهج أفضل لدراسة الأدب العربي؟، والتي تعترض كل باحث ينتمي إلى الثقافة العربية من أمهات المسائل التي تطرح على الدارسين في ميدان النقد الأدبي والثقافة العربية.

فلسبب ما لم يستطع الناقد أن يكون مدرسة نقدية أو اتجاهها متكاملًا من أوله إلى آخره تلتقي بدايته ونهايته في خط واحد. هذا فضلاً عن كونه قد أصبح من المؤلف أن تجد تفكيراً معيناً على المستوى النظري لدى الناقد وممارسة من نوع آخر لدى نفس الناقد عندما يمارس عملية النقد.

وفي هذا الخضم، فقد اتجه بعض النقاد وجهة شمولية تخفيفاً من أحادية متعسفة أو عجزاً عن مواصلة السلسلة في خط واحد.

ومن هنا أصبحت فلسفة الانتقاء والتوفيق مسلكاً مهماً في خضم الفوضى النقدية التي شهدتها النقد العربي الحديث بسبب الإرتحالات المنهجية بين مناهج نقدية متناسلة أوروبية الإطار في الأساس. ومن ثم كان التحول في الحقيقة ليس إلا تجاوزاً مستعاراً لمستعار متقادم¹.

ذلك أن الجمع بين مناهج عدة كثيراً ما ينفي بعضها بعضاً على مستوى المنطلق النظري أو مستوى الممارسة النقدية، أو مستوى النتائج من شأنه أن يبعث، بحق، على عدم الارتياح إزاء سلامة النتائج².

وأياً كانت مبررات منهج توفيق من هذا القبيل يسعى إلى الاستفادة من مختلف المناهج - على ما في ذلك من إغراء - فإن مخاطر شديدة ستظل تترصده لعل أهمها: التساؤل عن مدى صلابة هذه الصيغة التوفيقية

¹ - حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة في يناير 1985، تونس، ص 75.

² - المرجع السابق، ص 40.

وتماسكها، وهل هذه الصيغة تلخيصاً لازمة نقدية أم هي مخرج منها فضلاً عن درجة إقناعها وإمكانية تحقيقها وكيفية ذلك.

وربما أهملنا بعض النقاد -عامدين متعمدين- الذين ظلوا في عمومهم متمسكين بالنظرة التراثية، لأنهم لا يعكسون المشكلة المنهجية بالقدر الذي يعكسه أولئك الذين تعرضوا للمثاقفة النقدية .

وبصورة عامة، فإنه بإمكاننا أن نميز بين نوعين من هذه المناهج أولها: ينظر إلى النص في أبعاده الخارجية من نفسية وتاريخية واجتماعية وهي، في عمومها توصف (بالمناهج الخارج أدبية) متأثرة بالحتمية التاريخية التي تتعامل مع النص علي أنه وثيقة تاريخية أو نفسية أو اجتماعية تقف عند حدود المحيط الخارجي للنص فقط.

في حين اتخذت المناهج النصية أو الداخلية وجهة مختلفة تماماً حيث إنها لا تعير ما هو خارج البيئة أي اهتمام، وإن اختلفت في إطار هذه الدائرة ذاتها من حيث نظرتها للنص نفسه، فإذا كان أصحاب الحتمية التاريخية بفروعها المختلفة، يعتبرون العملية النقدية مؤلفاً بلا نص، فإن أصحاب النقد الجديد يعتبرونه نصاً بلا مؤلف.

وتأتي نظرية التلقي عند المدرسة الألمانية هانزروبير يوص، لتضيف طرفاً ثالثاً هو المتلقي في البحث عن أنظمة النص ووحداته مع التركيز على النص الأدبي وما لبثت التفكيكية أن ألمات المؤلف والنص معاً واستبقت المتلقي، لتجعله مبدعاً يكتب نصاً موازياً للنص المكتوب.

إن هذه التنوعات في المنهجية جمعاً أو انفراد لا يمكن فهمها دون وضعها في سياقها السيوسيو ثقافي لمعرفة إلى أي مدى تكتسب مشروعيتها بحيث

يغدو حضور أكثر من منهج نقدي في لحظة واحدة أمراً ممكناً بل مبرراً أو حتى مشروعاً في بعض الأحيان وضرورياً في أحيان أخرى. لذلك، فلا أقول: إن أزمة في المنهج - كثر الحديث عنها - قد أخذت في البروز، لأنها، في الحقيقة، كانت قائمة ولكني أقول: إنها قد اتخذت مساراً جديداً زعم بعض النقاد أنه حل لها. ولكنه في أحسن الأحوال وجهة نظر ربما رأى بعض الباحثين أن فيها من المحاسن مثلاًما تنطوي عليه من المساوىء.

يبقى بعد ذلك أن نشير بل نؤكد، كما أسلفنا، أن التراث النقدي العربي القديم بمختلف تجلياته ظل حاضراً في الخطاب النقدي الحديث، كالخطاب الشعري كذلك وهو الوجه الآخر للمناقشة النقدية كالمشكلة النقدية ذاتها. ولذلك، ففي الحقيقة لم تكن هناك قطيعة كلية مع السوابق التراثية، وإنما كانت هناك قراءة جديدة لم تكن في بعض الأحيان تعطي الأولوية للتراث. ولهذا نقول: إنها قطيعة وهمية كما سنرى.

إننا لا نستطيع أن ننكر أنه في فترة المد الليبرالي حدثت قطيعة من نوع ما مع التراث بسبب الحماس الشديد الذي أبداه الكثير من المثقفين ومن بينهم النقاد - للأفكار الليبرالية بما تنطوي عليه من ديموقراطية، وتحرر، وزادهم في ذلك كون أغليتهم أمضت فترات متفاوتة في الطول والقصر في الغرب، فعاشوا الديمقراطية والأفكار المتحررة عن قرب، إلا أننا نزع مع ذلك بأن الأصول التراثية التي أخذوها في الأزهر أو في غير الأزهر لم تختف نهائياً وإنما ظل لها بعض الحضور في الكتابة النقدية عند هؤلاء بشكل عام ولهذا نرى بأن طه حسين كان من أكثرهم تحايلاً ومراوغة في العودة إلى التراث، وذلك لبدايته المترددة حيث أنه كما يقول على أواميل

وهو ينشر كتاباته الإسلامية: استمر ينشر مع ذلك كتابات تذكر بعقيدته الليبرالية القديمة، مثلاً ما نشره في السنوات الأولى للثورة حيث كان يدافع عن الديمقراطية وحرية الرأي¹ الأمر الذي حذاه إلى التساؤل: هل يتعلق الأمر بارتداد من ليبرالية إلى سلفية أم بمزج هذه بتلك أم بوجودهما في فكر واحد؟² بل إنه في هذه الفترة بالذات تلقاه في كتابه: «على هامش السيرة» يقول: إن استعمال التراث الديني هو لغاية فنية محضة وهذا يدل على أن بداية عودة طه حسين إلى التراث كانت بداية مترددة، وإن كان هذا التردد سيبدأ في الزوال في الأربعينيات كلما تقدمنا معه شوطاً في إسلامياته، إلى أن يعلن أن العقل ليس هو كل شيء في حياة الناس³ ويبدأ من ثم يكتب في السيرة ويؤرخ للإسلام تأريخ دعوة يسائل الإسلام بحثاً عن حل لمشاكل المسلمين اليوم ومشاكل مصر بشكل خاص، ليظهر لنا طه حسين الشامخ في الشعر الجاهلي (1926) وفي مستقبل الثقافة في مصر عام (1938) ليس هو طه حسين في مرآة الإسلام والشيخان، والوعد الحق، وعلى وبنوه. ومع ذلك، فمن الإنصاف للحق أن نقول: إن حالة طه حسين ربما كانت أكثر تعقيداً من غيره وربما إرباكاً كذلك. أما إذا تجاوزناه إلى مدرسة الديوان فإن الأمر ربما يكون أكثر وضوحاً. لقد اعتبر العقاد والمازني وشكري كتابهم (الديوان) أتم نهضة أدبية عرفت بها مصر، وهو تعبير، في الحقيقة، لا تنقصه حرارة الشباب، كما أنه يوهم بأنهم يعتبرون

¹ - علي اومليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، المركز الثقافي العربي ط1، ص 147.

² - المرجع السابق، ص 147.

³ - أنظر على هامش السيرة، المجموعة الكاملة، مجلد 3، ص 11.

المدرستين اللتين جاءتا قبلهم: الإحياء والكلاسيكية برغم مالهما من إسهامات لا تنكر، إنهما كانتا حديثاً عاماً بصورة فردية عما يدور في بلاد الشام ومصر على حد تعبير بعضهم. ورغم أن جماعة الديوان قد نهلت من مختلف الثقافات بل لعلها مثلت خليطاً من الثقافات يضم إلى جانب الفرنسيين والألمان والطلّيان والروس بالإضافة إلى الثقافة الإنجليزية التي كانت لها الغلبة على ما سواها. أقول: رغم ذلك فإن الجماعة لم تستبعد التراث العربي من النهضة الأدبية التي رأت أن كتابها: «الديوان» تجسداً لها.

وسنقتصر هنا في تتبعنا للسوابق التراثية، في تراثنا النقدي، على العقاد بوصفه أبرز الثلاثة لأنه، في الحقيقة، كان أشهرهم في المجال النقدي، كما أنه كان أوفرهم حظاً في الديوان. لقد كان من المنطقي أن يثور العقاد (1889-1964) في بدايته النقدية على السوابق التراثية التي كان النقد العربي الحديث، آنذاك، قائماً عليها ممثلاً في مدرسة الإحيائيين والكلاسيكية الجديدة التي تجمع بين القديم والحديث يدفعه إلى ذلك إخلاصه للفلسفة الرومانسية التي هي، في العمق، رفض لكل ما هو كلاسيكي وثورة على الموروث بشكل عام. وهي الفلسفة التي انتقاها من كبار الرومانسيين الانكليز وورد زورث وكوليردج، وشيلي وكيّتس، هازلت وماكولي... شأنه في ذلك شأن صاحبيه المازني وشكري. ولكن ذلك لم يكن، ليمنعه -كغيره- من أن يعرف تراجعاً تمثلت فكرياً في إسلامياته، وفنياً في رفضه للشعر الحر بالرغم من أنه كان من أنصار التجديد ذات يوم.

ولعلنا نتذكر كذلك تراجعته عن آرائه السابقة في تطوير موسيقى الشعر وتشبثه - على نحو مثير - بالعروض الخليلي حتى أضحي على حد تعبير أحد النقاد في طليعة المحافظين المتزمتين. وهذا ما دفع بعض النقاد إلى الاعتقاد بأنه لم يثر على الشعر القديم، وإنما ثار على شعر شوقي وأتباعه وهم المدرسة التي سبقته مباشرة وهذا كذلك ما جعل ثورته تلك مشوبة بخلافات إيديولوجية وسياسية تبعدها عن أن تكون حساً نقدياً يخلص له العقاد. ولأجل ذلك قال بعض الدارسين إنه إنما جاء بمفاهيم جاهزة وأراد أن يطبقها على شعر شوقي أو البحث عنها على الأصح في شعر شوقي. وحقيقة الأمر: أن أدب العقاد ونقده في العشرينيات والثلاثينيات لم يكن رفضاً للتراث بل كان هناك شيئاً من التعاطف معه والإحساس بهيبة ذلك التراث يظهر ذلك في: ((الفصول والغايات)) وفي مطالعته، ومراجعاته، ودراساته، في ساعات بين الكتب، فضلاً عن أهم كتبه النقدية وهو الكتاب الذي يخص به ابن الرومي الشاعر الأثير عند العقاد.

ولا يقدح في هذا أن يكون العقاد في دراسته للتراث الأدبي قد اعتمد على نظريات ومناهج غريبة، وذلك قبل أن ينصرف إلى كتاباته الإسلامية في الخمسينيات، ليستحيل - كما يقول لويس عوض: لواء يتجمهر حوله المحافظون والرجعيون في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب أيام عبد الناصر ثم صنماً فكرياً يتعبد له المحافظون والرجعيون أيام السادات وهو ذاته ما حدث لطفه حسين ولمحمد حسين هيكل على وجه التقريب وما حدث لزعماء العقلانية والعلمانية في مصر الحديثة ونلخص من ذلك كله إلى أن هذا التجديد الذي جاء به العقاد وزملاؤه لم يكن من الأصالة والقوة بحيث يستطيع أن يدحر الجذور الكلاسيكية القديمة التي

ظلت عقبة بدواخلهم بحيث منعت تحقيق الانتقال أو القطيعة الحقيقية بل تسللت إليها من الداخل في البداية وانتصرت عليها في النهاية. أما الموقف مع محمد مندور، فإنه يختلف عن ذلك من بعض الوجوه، ذلك أن هذا الناقد في ما نعتقد - لم يعلن رفضه للتراث بل ربما كانت بدايته النقدية لها تعلقها الواضح بالتراث من خلال أطروحته التي قدمها إلى جامعه الملك فؤاد (القاهرة حالياً) والتي أخرجها فيما بعد في كتاب يحمل عنوان: (النقد المنهجي عند العرب) وذلك في مسعى منه و إلى إبراز قيمة التراث النقدي العربي مع أنه سلك في سبيل الوصول إلى ذلك مناهج، لاشك، في أنها غريبة استقاها من النقد الفرنسي وأخلص لها كل الإخلاص.

لقد حاول مندور في هذا الكتاب إيجاد نوع من التماثل بين مدارس النقد الأوروبية والتراث النقدي العربي الكلاسيكي، ومن هنا كانت كلمة (منهجي) ذات مغزى مهم حاول مقتضاها أن يبرز وجود نقد منهجي عند النقاد العرب القدامى على نسق ما هو موجود في أوروبا بما يعنيه ذلك من وجود مدارس في النقد العربي لها قواعد نظرية لا تبعد كثيراً عن ما هو عند زميلاتها في الغرب. وربما كان تعقب مندور في هذا الكتاب للأمدي على حساب قدامة له مغزى في هذا الإطار، ذلك أن قدامة - وهو المتأثر بالفلسفة الأرسطية - كان أكثر تعاطفاً مع شعرا الحداثة، فنقده من هذه الناحية هجين وليس قائماً على أسس عربية خالصة.

أما الأمدي الذي آثره مندور على قدامة، فقد كان أكثر تعاطفاً مع الشعراء التقليديين مفضلاً إياهم على سواهم، وقد كان نقداً عربياً خالصاً.

هذا فضلاً عن كون الأول حاول وضع قواعد للشعر في حين أن الأمدي يعتمد على المغامرة التأثيرية في المقام الأول.

وأيا كان الأمر، فإن مندورا لم يمض في كتاباته النقدية اللاحقة على ذاته النسق وإن لم يستبعد التراث النقدي، بحيث عُد كتابه على حد تعبير أحد النقاد، بلا ذرية ولو أنه كان محاولة فريدة تذكّر، فتشكر. ومهما يكن، من أمر، فإن التراث قد أصبح واحداً من طرفي المعادلة النهضة (التراث الغرب)، وهذه ثنائية لم يعد الليبراليون يكرهون أن يوصف بها إنتاجهم، وذلك، لأنها تستجيب لحاجة قومية هي: ضمان الاستمرارية ولتدرك التأخر، وتحقيق إيقاع سريع للنهضة.

ولعله لهذا رأي الأستاذ عبد الله العروي: (أن الوعي السياسي الثقافي العربي تجلّى في مشروع انبعاث وليس في مشروع تقدم وفاء للماضي وانتقاماً من قسوة التاريخ¹.

وهو بذلك يحاول أن يجعل نظرة العرب إلى التاريخ تعني أن (المستقبل يجب أن يكون عودة إلى نقطة البداية واستدراكاً لما ضاع في الفترة الفاصلة بين الماضي الحافل والحاضر البئيس)².

الخاتمة

إن كل ذلك يجعلنا نخلص إلى القول: إن هذه القطيعة التي دعا إليها النقاد العرب آونة مع التراث كانت في واقع الأمر قطيعة وهمية، وربما الأصح أن نقول: -وفي هذا يوافقنا الكثير- إنها كانت مراجعة للمفاهيم مرة أخرى، وذلك في وجه الحركة السلفية (الرافعي وصحبه). ولأجل ذلك أثّرنا وصف

¹ - عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص198.

² - المرجع السابق، ص197.

العنصر التراثي في التجربة النقدية بأنه ثابت، ما يعني أن ثقافة النقد الحديث مع أصوله التراثية ظلت ثابتة كذلك وإن اختلفت مستويات ذلك من ناقد لآخر.

إن فلسفه المثقفة النقدية التي طبعت الخطاب النقدي العربي الحديث كالشعري جاءت طرحاً بديلاً لثقافة الغيبة في مطلقات الماضي ومسلماته أو الضياع في مستقبل هو ماضٍ معكوس على حد قول بعضهم محاولة بذلك تجاوز محنة الثقافة العربية التي هي في الواقع محنة الضياع بين السلفية المفكرة والحداثة المضيق.

قائمة المراجع:

1- برهان غليون، اغتيال العقل، مكتبه مدبولي طو،

1990.

2- حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، يناير 1985 تونس.

3- طه حسين، على هامش السيرة، المجموعة الكاملة المجلد 3.

4- محمد خرماش، النقد الأدبي الحديث في المغرب وإشكاليه المناهج (البنويية، التكوينية نموذجاً)، بحث دكتوراه 1989 جامعة عين الشمس.

5- مطاع صفوي، الفكر العربي ومعركة المنهج،
مجلة الفكر العربي المعاصر العددان 8، 9 كانون
الأول والثاني 1980-1981 المركز الإنمائي العربي.

6- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط2
المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب 1984.

7- عبد الله العروي وآخرون، المنهجية في الأدب
والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، المغرب ط1
1986.

8- علي اومليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية،
المركز الثقافي العربي ط1 1985.

9- فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج
والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي
الحديث، المركز الثقافي، الدار البيضاء المغرب،
1994.

مظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر
محاولة لفهم أبعاد القصيدة الموريتانية المعاصرة

أبوه ولد أعمر
قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمة:

يعتبر التأليف في العلوم الإنسانية من أصعب فنون العمل العلمي خاصة إذا كان الغرض منه الإسهام بجهد إنساني يعطي مؤشرا يتعرف من خلاله الكثيرون على مظاهر شتى من التراث بذل فيه الأجداد أعمارهم على مر العصور وحرصوا عليه وعلى استمرار يته أكثر من حرصهم على النفس والنفيس.

ولعل الرؤيا تتضح أكثر كلما قرأنا بتمعن ما يحتويه هذا الكتاب من آثار لما قام به العلماء الشناقطة (الموريتانيون) من مجهودات علمية وأدبية، بذلوا كل طاقاتهم من أجلها.

ويأتي هذا العمل (مظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر) إسهاما في بلورة الرؤى والمفاهيم النقدية للشعر الموريتاني المعاصر، الذي اختار أصحابه تلك الأساليب وسيلة إلى التعبير عن فهم روح العصر ومستجداته المتنوعة.

وقد تناولنا فيه جزء مهما من التراث الموريتاني، الذي كان من أهم سمات النهضة العلمية التي شهدتها بلادنا خلال القرن المنصرم.

وذلك إبرازا للوجه الأدبي المشرق الذي تزين به المجتمع الموريتاني ولا يزال، في وقت كانت الزينة به لا تأخذ مضامين الأبهة، والرونق الاستيفائي لها في بعض البلدان العربية والإسلامية.

وما دفعنا إلى اختياره موضوعا لهذا العمل، تلك الجهود الجبارة التي قدمها أجدادنا طوال حياتهم في سبيل المعرفة ونشرها، وبصفة خاصة التراث العربي الإسلامي، الذي كان لهم دور كبير في إحيائه، وليست المكانة التاريخية التي احتلتها بلاد شنقيط في نفوس المشاركة والمغاربة إلا مؤشرا على تلك الجهود التي كانت الجدية والنشاط العلمي في حياتهم معبرين عنها.

وفي تبويبنا لهذا العمل، قسمناه إلى ثلاثة محاور، تناولناها على النحو التالي:

❖ المحور الأول: وصف لمظاهر الحياة العامة، وأهم التطورات السياسية والاجتماعية.

❖ المحور الثاني: وصف لما عاناه الشعب الموريتاني خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، وأثرها في نفوس الشعراء الموريتانيين، يشتمل على نماذج شعرية لبعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين.

❖ المحور الثالث: وصف للرحلات والتجارب التي مرّ بها بعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين، وأوردنا لتلك الرحلات نماذج لبعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين.

وأخير الخاتمة، والمصادر والمراجع، والمحتوى، أملين أن يكون هذا المجهود العلمي قد أعطي ما يستحق من عناية ودراسة علمية، كان للمجال النقدي فيها إسهام للتقييم، ومعيار فاصل بين الواقع وسبحات الخيال.

وصف لمظاهر الحياة العامة، وأهم التطورات السياسية والاجتماعية، يشتمل على عدة نماذج شعرية

لم تتوقف النهضة الأدبية والثقافية التي شهدتها (موريتانيا) في القرون الثلاثة الأخيرة، وإنما استمرت بشكل يتماشى وروح العصر الجديدة، فقد اتخذ الشعر الموريتاني في هذه الفترة أسلوباً متطوراً ومناحي جديدة اقتضتها معطيات العصر.. وإن كان للشعر القديم أثر كبير في نفوس المحدثين، مما جعلهم يميلون إليه ويعتمدون عليه أكثر من غيره، كمقياس لجودة إنتاجهم للشعر الحديث.

إن ميل الشعر العربي بصفة عامة والموريتاني بصفة خاصة إلى الموروث له عدة عوامل: ثقافية، وفنية، واجتماعية .. وإن كانت هذه العوامل في مجموعها تفسر لنا سر شيوع هذه الظاهرة في شعرنا المعاصر على نحو لم يعرفه تاريخ شعرنا من قبل¹.

وهذه الصبغة التي اصطبغ بها الشعر الموريتاني الحديث جعلته يواجه نوعاً من التكلف في وصف مظاهر الحياة الجديدة، فالواقع البدوي القديم الذي عاشته أجيال قديمة يختلف كل الاختلاف عن الواقع الحضاري المعاصر، وهذا حتماً سيجعل كثيراً من المحاولات المبكرة للعصرنة لا تحظى بقدر كبير من التوفيق.

¹ د. على عشري زايد: استدعاء شخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة

للنشر والتوزيع والإعلام، ط: 1، طرابلس، ص: 17.

فقد ظن البعض " أن العصرنة هي وصف مشاهد العصر، وهي في الحقيقة فهم لروح العصر¹، ولعل هذا يلاحظ بصورة أكثر وضوحاً في قصيدة الشاعر (المختار بن حامدون (ت: 1414هـ/ 1993م)⁽²⁾).

تلك القصيدة التي يصف فيها الشاعر الطائفة، وصفا ينبع من شاعرية تأثرت بـماض تراثي بعيد عن محدثات العصر الصناعي الحديث، ولعل الصورة تتضح أكثر في تتبعنا لقصيدة الشاعر التي يقول فيها³:

خفقان قلب العاشق الولهان ما منذ أن تسمع الأذنان
أم هو زلزال بعيد مؤذن بالخسف في ناء من البلدان

أم هو زار الأسد في أجماته أم هو صوت تأجج النيران
أم طائر طار الغداة تعلمت منه الطياير حكمة الطيران

ومنها:

وله لدى (تندوف) وقفة ساعة بمنازل الأقيال من (جاكان)
وحنا على (أم القرين) جناحه أمات محموماً عليه حوان
ومضى مضاء السهم منها حائماً في مثل ما تحرك العينان

¹ مجلة الموقف الأدبي، العدد: 148. آب (أغسطس)، 1983، دمشق، ص: 45.

² - هو: المختار بن حامد، (ويعرف بالمختار بن حامدون)، شاعر معاصر، عمل كأستاذ للتاريخ سنة: 1959 في المعهد الإسلامي بأبي تلميت، له مؤلفات تاريخية وجغرافية عديدة، أهمها: (تاريخ جغرافية موريتانيا الحديثة)، راجع: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص: 615.

³ انظر: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص: 388.

حتى إذا أطار وكان من	(كنوال) مرمى سهم أو سهمان
ألقى على دار المحطة نظرة	من تحته في أمعر الصوان
فدنا رويدا تحتها متدليا	فكان يدلي بحب السوان

إلى قوله:

فإذا به بعد التحرك ساكنا	وإذا به بعد التباعد دان
وإذا بإخوته رقد حوله	مثل الحدوج على ذرى الحيتان
وإذا لخلائق محققون به فهم	يلقون بتحية وتهان
لو كان ينطق ظل مفتخرا على	سفن البخار وكل ذات دخان

والمأمل في هذه القصيدة يجد فيها أكثر من مأخذ على الرغم من جمالية الإبداع فيها وطلاوة الألفاظ، وإن كانت في الحقيقة أعمق من أن تتبادر بعض العبارات الواردة فيها إلى الكثير من أبناء العصر خاصة الذين لم تسبق لهم خلفية عن الحياة البدوية .

فمن هذه المآخذ: تلك العبارات التي اضطر الشاعر إلى التصوير بها (زأر الأسد.. تأجج النيران، حبل السوان..)، إلى غير ذلك من العبارات التي قد لا تتبادر لأذهان البعض إلا بعد البحث والتنقيب عنها في المعاجم اللغوية. ولعل الشعراء الموريتانيين سادهم نوع من الانبهار بالحضارة الجديدة خلال مطلع (القرن العشرين)، فبد أو يترجمون كل ما جادت به محصلاتهم الأدبية، وإن كان المدلول أو الكلمة تبقى دون نقاوتها العصرية .

ذلك ما نستشفه عند البعض ممن كانت لهم محاولات مبكرة في هذا الصدد، ولنتتبع مثلاً وصف (المذيع) للشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، حيث يقول¹:

هل غادر المذيع من عجب، فقد	أغناك عن كلف البريد ألواني
ياتيك بالأخبار ساعته، فلا	تحتاج قصد شواسع البلدان
فإذا صغيت فكل شخص حاضر	وإذا نطقت حالت كل مكان
ما شئت من فن بمختلف اللغا	ت إن شئت تسمع محكم القرآن
أو شئت من خطب وشعر رائق	يسبي القلوب بمطرب الألحان
وانظر: لصنع الكهرياء فإنه	من لطف صنع الله في الأكوان
إذا سهلت كل الصعاب، وأوهمت	أن المحال بحيز الإمكان

ونفس الشيء تقريباً عند (محمد محمود بن الشيخ) في قصيدته التي يصف فيها السيارة، حيث يقول²:

إن لم تسر نحو الأحبة فوق ما	دهماء تبتدر الميم أينما
لا تخشى ظمأ بها إن هجرت	ترمي الصوى مرا بأربعة ظما
في عينيها بالليل درة غائص	تخلو دياجر ليلها إن أظلما
فترد عيناها العيون حوا سرا	يا مقلتين بعيدتين من العمى
فالعين منها والسبيل مذل	كالبدل لو سلك المجرة في السما

¹ شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص: 656.

² شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص: 656.

ومنها:

في صدره ضرم وماء بارد ضدان فيه، فحرة بكليهما
فالجمر لولا حره لم ينطف والماء لولا برده لتضرما

إلى قوله:

واصبر على مضض الفراق ملاوم ملاوة إن حنظلا أفينه، أو علقما

وصف لما عاناه الشعب الموريتاني خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، وما
خلفه ذلك في نفوس الشعراء الموريتانيين.

وبلاحظ النضج والإيقاع الشعريين في الأدب الموريتاني كل ما تقدم المجتمع في
فهم روح العصر، لا فهمه من الناحية الشكلية.. وهكذا فقد بدأت أقلام الشعراء
الموريتانيين تثبت جدارتها أمام المستعمر، وأعلنت صوتها بشكل ثورة عارمة ضد
الاستعمار في جميع مظاهره.

ونستهل تلك الثورة الفكرية والثقافية بالقطعة الشعرية التي تحمل عنوان (رسالة
العجوز) للشاعر أحمدو بن عبد القادر (1360 هـ / 1941م)، وتعتبر نتاج معاناة
طويلة عاناها المواطن الموريتاني أثناء الاستعمار الفرنسي لموريتانيا، وما تلاه من
ظلم وتشرد وقهر، واستنزاف خيرات، يقول الشاعر في قصيدته "رسالة العجوز"¹:

¹ - مجلة الموقف الأدبي، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد: 148. آب (أغسطس)، 1983،

ص: 46، 47.

مختار يا دخل البلاد مختاريا بحر السنين
ماذا دهاك ؟ وأي شي ئ قلت له للائميين
نطق المدافع ضدنا في صالح المستعمرين

إلى قوله:

قد كان لي ولد يسمى المصطفى نجل الدمين
أرضعته لبن الأمومة للطفولة في مهين
بالأمس للأمس القري ب نعاه عندي المبلغون
إذ قيل إن الرصاص ردت في كف المنون
يا أيها الإنسان من أغراك بالمستضعفين؟
هم طيبون لأنهم ثاروا على المستوطنين
وإذا رفضت أجابتي ونسيت قولي كل حين
فأعلم بأنني قد فقدت المصطفى نجل الدمين
والدهر سوف يجيئني والشعب ليس بمستكين

بهذه الصراحة وغيرها من التعابير التي لم يقتصر صيتها على النظام الحاكم آنذاك، فحسب بل تجاوزته لتعم كل أعوان المستعمرين وغيرهم من أعداء عروبة موريتانيا، وحريتها في ظل وحدتها الجغرافية التي ظل الآباء يحافظون عليها على مر التاريخ.

كما بذلت في سبيلها الدماء الرخيصة، واستشهد في سبيل عزتها وكرامتها قوافل الشهداء أمام جحافل الغزو الاستعماري الفرنسي لها، دفاعا عن وطنهم.. هذا الوطن الذي ظل روضة ينعم فيها أهله بالعزة والرخاء طوال العصور المتتالية. وقبيل

الهجمة الاستعمارية، وما أعقبها من أساليب القهر والظلم والاستبداد، وغير ذلك من مظاهر الإهانة والتمزق اللذين كان لهما تأثير عميق في نفوس الكثيرين من أبناء المقاومة المادية والمعنوية للتخلص من ذاك الواقع الحزين الذي ظل المواطن يعاني مرارته برهة من الزمن .

نستشف ذلك كله من قصيدة الشاعر (الشاب) محمد بن عبيد، حيث يقول:
يا لهفتي شعبي عك زماناهل قد إني أراك تكابد الأحزان
قضي بأن تعيش مذللاً بين السجون معذباً ومهاناً
إني أراك كمن توقف دمه جريانه وطبيبه قد خاناً

ومنها:

حطم سجون الظالمين كخطوة أولى وفجر فوقهم بركاناً
ردد عبارة (لا) لأي مغالط. مستعمر مستعبد أحياناً

إلى قوله:

حكم كتاب الله واجعله مساكاً فيه الشورى والعدل زد إحساناً
فيه المدافع والقناويل والتقى وهو الذي قد حرر الإنساناً

ولم يقتصر مثل هذا التعبير الذي يستنكر وجود المستعمر الفرنسي، ويحرض على مقاومته، بل القضاء على أتباعه، وكل من يمت إليه بصلة قبل وبعد الاستقلال.

لم يقتصر على فئة من الشعب دون أخرى، ولا بأسلوب دون آخر، بل عبروا بشتى الطرق والوسائل عن استهجانهم للأدوار الخيانية التي ما فتئ المستعمر

وأعوانه يحيكونها ضد المجتمع الموريتاني، وخاصة بعد مرحلة الاستقلال، مذكّرين أولئك الذين يبيتون العدا للّشعب الموريتاني، أو المساس بحريته ووحدته الترابية .
لن يتساهلوا مع أي معتد مهما كانت قوته، وهذا ما تطالعنا به قصيدة الشاعر الشعبي (محمد بن محمد بن علي)، وذلك بما في هذا الأدب (الأدب الشعبي) من صراحة ميزته عن غيره من أنواع الأدب الأخرى. وهكذا فقد نظم الشاعر قصيدته باللهجة (الحسانية)¹، حيث جاءت معبرة عن لسان حال الشعب الموريتاني بصفة عامة، يقول الشاعر²:

¹ اللهجة الحسانية: هي أوسع اللهجات انتشارا في موريتانيا، وهي نسبة إلى قبائل بني حسان (العربية) التي دخلت البلاد في ق/16 م

² أخبار موريتانيا (نشرة إخبارية تصدرها سفارة موريتانيا)، عدد: تشرين الثاني، (نوفمبر)، 1982، دمشق، ص: 47.

بالكذب وبالغدر فالمان	يل متخمم موريتان
بعلن امحدنك هان	اعلم سابك ¹ سعدك يشيان
يمبيع ولاء ش أواخرشان	موريتان ماه حيوان
شعب أحرار أصلا متكان	موريتان دولة وامتان
ما فيه امنادم بران	واصل ينعد إلى عدنان
السدون من لكصان	رجل ما ه يتخط لوطان
ماه ذاك الشعب اللعان	متمسك بالله وليمان
ما يغدر فالمان أدييه	موريتان شعب نزيه
وفيه المروة واعل ش بان	فيه النخوة والدين
سيان والشعب الثان	بيظانه ومرت وكوريه ²
السدون من ولكصان	سيان والدين امخاويه
غير اعلم عن موريتان	ذمان كاع امكثر فيه
إراه ولاء متحشان	كدال من دار الخير
ش شان عند ش شان	والل زاد امل يختير

¹ اعلم سابك (يكاف معقودة، وهي التي أصلها قافا)، وتكتب (كافا) يعلوها ثلاث نقاط، وهكذا في سائر ما يأتي من مثيلاتها.

² البيضان: كلمة جمع، مفرداها: بيظاني، تطلق على الذين يتكلمون العربية من عرب أو زنوج تم اندماجهم في مجتمع البيضان .. مرت: امرأته، كوريه: لفظة تطلق على الذين لا يتحدثون باللغة العربية أو إحدى اللهجات المشتقة منها، انظر: مجلة العربي، العدد: 293، الكويت، أبريل، 1983، ص: 115.

وعندما تحقق للشعب الموريتاني أكبر الآمال والأمانى التي كان يناضل من أجلها والمتمثلة في استقلال البلاد سياسيا واقتصاديا وثقافيا، بدأ شعراؤه بما يشبه الثورة الإعلامية، مبدعين حيناً ومبتكرين لأروع عبارات الفرح والابتهاج حيناً آخر، وذلك بنوع من الحماس، يصوره لنا الشاعر (أحمدو ولد عبد القادر)، في قصيدته (فرحة العيد).

تلك القصيدة الرائعة التي قدمها هدية لأرواح الشهداء الذين استشهدوا خلال الغزو الاستعماري الفرنسي للبلاد سنة 1905، تحت قيادة (أكسفير كويلاني)، وهي المرحلة التي عانى فيها الشعب الموريتاني التشريد، والترويع، ونهب الخيرات، وغير ذلك من أنواع الاضطهاد.. هذا ما عبر عنه الشاعر بقوله¹:

فرحة العيد أيقظت ذكرياتي من صميمي وحركت خاطرات
حول ماضٍ عشناه دمعاً وحزناً وانتفضنا منه أتفاض الكمات
حول ماضٍ يعطيك قصة شعب عبق بالفخر والمكرمات

لقد شهدت موريتانيا كما أسلفنا نهضة واسعة النطاق شملت شتى الفنون والمعرفة، وذلك منذ مطلع القرن (18م)، إلى أوائل القرن (20م)، مما أعطى للشعراء الموريتانيين المحدثين دفعا استطاعوا من خلاله أن يتوجوا تلك المجهودات العلمية والأدبية التي ترك الآباء والأجداد بنهضة علمية وأدبية، على الخصوص في تأسيس (الرابطة الموريتانية للأدب).

¹ مجلة الموقف الأدبي، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد: 148. آب (أغسطس)، 1983،

تلك الرابطة التي تعتبر رمزا تنصهر في قلبه كل الأفكار والآراء، والخواطر الأدبية لتفتح المجال أمام ذوي المواهب، وذلك للإسهام في استمرارية تلك النهضة وتطويرها والتجديد في مضامينها بما يتماشى وروح العصر.

ولعل ميلاد هذه الرابطة كان أملا ينتظره الكثير من أبناء الشعب الموريتاني وخاصة الشباب والمتقنون، ذلك ما نستشفه من قصيدة (صدي الفكر) التي قالها الشاعر (أحمدو ولد عبد القادر) بمناسبة ميلاد هذه الرابطة¹

بين خفق الرؤى وذوب الخيال واقتحام المنى عيون المحال
والأغاني المجنحات سكارى سابحات في مركب الآمال
نهض السوتر واليراع وقال كلمات بيض الحروف الصقال
هل لهذا الوجود معنى إذا لم نتفهم هويته ومجال
وأناشيد مزهري تتغذى من صدى أنثى وفرحة بال

ويتابع (ولد عبد القادر) قائلا:

هللي موريتان ما ذاك إلا ومضة من سراجك المتلال
هللي يا بلاد ما نحن إلا قطرة من معينك السلسال
أبشري صفقي لوثبة نبع ظل يسقي مواكب الأجيال
حاول الغرب حبسه ذات يوم عن مجاريه عبرهذي الرمال
إلى قوله:

¹ انظر: مجلة الفكر، تونس، السنة: 23، العدد: 2، نوفمبر 1977، ص: 35-36.

فتعالى أقلامنا نسر العصور وديننا الأوان دنيانا المقال
ريشة الفن بلسم وسلاح ودليل يضيء وعي الرجال
إنها عالم الحقائق يحيا بين خفق الرؤى وذوب الخيا

وهكذا فقد عبر الشاعر عن شعور صوره في قالب تغمره البهجة والارتياح، كما
يعبر عن انبهار تام بهذا الحدث الذي كان مذبذبا بين الصورة والخيال، يعد من
المستحيل الوصول إليه مهما كانت السبل.

غير أن الوسيلة الحقيقة التي حققت تلك الأمنية المنشودة هي: وحدة الاتجاه،
والهدف التي عبرت وبكل وسائلها التعبيرية، حتى تأخذ الكلمة مدلولها، وتجد
الشخصية مكانتها، ويعود المجتمع إلى وتيرة حاول المستعمرون استئصال جذورها،
دون جدوى.

وحق لك اليوم أيها الشعب الموريتاني أن تبتهج ويعلو صوتك مجددا.. صوت
يصدع به ذووا الأقلام الهادفة، والأفكار النيرة، التي تعيش عصر العقول الآلية،
وغزو الفضاء..

وصف للرحلات والتجارب التي مرّ بها بعض الشعراء الموريتانيين
المعاصرين. ويطالعنا بعض الشعراء الموريتانيين بقصائد تعبر عن مواقف، أو
أوصاف لحالات، أو مظاهر مرّ بها بعضهم في حياته، وجاءت أشعاره وصفا
دقيقا لتلك الوقائع أو الأحداث، من ذلك قصيدة البيضاوي

البيضاوي بن أمانة الله (1307-1365هـ/1889-1945م)¹

من روائع شعره قصيدته "رحلة إلى فرنسا" التي يقول فيها:

لا تَنسَ من شعركَ المختار عيبتهُ وانشر إلى صحف التبليغ رحائنه
إلى فرنسا سماء المجد ممطيا ظهر الغطمطم ما ترتاب غيائنه
على سفين يجوب البحر مضطربا كشارب يقتفي بالليل خلائنه
إذا تحدر فوق الماء من جبل سطا على جبل يحتل قلائنه
والماء يضرب أعلاه وأسفله وينثني حاملا في الهزم ذلائنه
كقرية من قرى التمدين عامرة من كل قسم بها حي وحلائنه
يعيش في جوفها قوم قد انتهزوا من سائر الحزم للإنسان غلائنه
من لاعب صاحب يزجي لصاحبه بين البنادق والأفراس حملائنه
أو راقص حائر في غصن غادته أو قارئ هادئ يجلو مجلائنه
حتى انتهينا إلى الأرض التي بزغت بها شמוש الضحى تبدي أهلائنه
وأنبئت من بهيج النبات باسقة وأخرجت من نعيم العيش غلائنه
من جاء (باريز) واستجلى روائعها ولم يغض من الطرفين ويلائنه
فكم قتيل بها يمشي على مهل لأن عين المهى أحسن قتلائنه
ما أنسى في (فيش) والدكتور يردني من بعد ما جال في التفاتيش جولته
يقول لي قولة في الطب صادقة ما ألطف الآسي الناهي وقولته
إذا خرجت من الحمام منتعشا إياك والجوذر الأقنى وصولته

¹ - ولد حوالي سنة 1889 بمنطقة تكانت. هاجر مبكرا إلى المغرب وذاع صيته حتى تولى إمارة تارودانت في عهد مولاي عبد الحفيظ، وبها توفي 1945. انظر كابر هاشم، مرجع سابق، ص: 59.

يا ورطتي والقوام اللدن يدهشني والغصن يعبت بي إن مال ميلته
أم كيف يسلم من نبل الغرام فتى والأعين الزرق بالاقواس قبائله

وله أيضا:

تذيني نطق الأوتار من عود ربات إسحاق أم أنغام أندلس
إن حركت جنبات العود أصبعها أو غردت فقول القوم ذاهبة
إن جئت "ميماء" واستنطقت آونة بالله يا بنت عثمان بها عودي

وله أيضا:

قد جاءه نبأ ما كاد يسمعه وزعزعت صبره البلوى بأسطره
وملّ مضجعه إذ بات يقذفه يذيعه كاتب شلت أنامله
أو تاجر فاجر تقرأ مطابعه والموت حتم وكل الناس ذائقة
كم طائر طار آفا مؤلفة أو سائر سار آفا مؤلفة
أو سحر البحر ملاح فدان له نعى النعاة لنا من طيبة "خضرا"
لا يقبض الله هذا الدّين منتزعا حتى هما بدماء الحزن مدمعه
يا لأي ما كانت البلوى تزعزعه قض إلى قضى تجفوه أضلعه
وجاء من بُعد برق يروعه لا راج متجره لا دار مطبعه
وليس يدرك عقل أين موقعه وكان في الأرض بالتيار مصرعه
فسار يلهو وسار الحين يتبعه فخاص في البحر فاختانته أكرعه
هذا هو الرزء أدهاه وأفجعه لكن يقبض كهذا الحبر ينزعه

خرقُ بحلة هذا الدين مَسْع
 بدرُ التمام تغيب اليوم طلعتُه
 بالساحل الأسود الشرقي مغربه
 يمر مرَّ السحاب في منازلِه
 لما استهل على (شنقيط) صبيّه
 أجرى ابنُ ما ياب في صحرائها نَهْرًا
 حتى ابن زيدان رأس المالكي بها
 لله منه ومن إلقائه سندًا
 كأن أحمدَ يملئ في أسانيدِه
 جهاذ العلم في (فاس) كفاك بهم
 وهُم هم العلماء الله فضالهم
 إذا تجرأ قيودوم مناظرة
 قوم أقاموا من القرآن محكمةً
 ومن أفانين أسرار اللغى عجب
 تتبعوا الحق في قول وفي عمل
 فكيف تعدل باللائى لها صخب
 تنوع العار في كبرى مراسمها
 تراجم حشرت لحنا وسفسطةً
 ما ثم إلا بقايا في أزاهرها
 ما فيهم ثم إلا آيس أسف
 سلوهم وسلوا العباس عن خضر
 لا عيب في الشيخ إلا أن صاحبه
 لا شيخ بعد أبي الزهراء يرفعه
 والأمر للوارث الباقي نرجعه
 ومن شواطئ بحر الغرب مطلقه
 والغرب يعرفه والشرق يمنعه
 فاخضر مربعه واخضر مرتعه
 من الأحاديث والآيات منبعه
 قد قام عن حكمه بالفقه يرجعه
 قد كان في مسجد البطحاء يرفعه
 عن ابن قطان والآلاف تسمعه
 بحضرة الملك المسماح ترفعه
 عمَّن بمصر ومن بالشام تجمعه
 فينبري الشيخ بالبرهان يفتعه
 وعندهم من بلاغ الختم مقطعه
 والفرع من أصله الأقوى تفرعه
 فما ديسادتهم إلا تتبعه
 على حيال غواة العجم تطبعه
 لا حبذا بلد فيه تنوعه
 كأنها خرق بالين ترقعه
 منها إلى الله جنب لا تضيعه
 يبكي على الدين مضنى القلب موجعه
 وما من الخلق الأعلى يجمعه
 إن زاع يرشده أو جاع يشبعه

كَأَنْنِي بِأَسَاطِينِ الْفَطَاحِلِ بِالْثَّ
يَا رَاحِلًا عِنْدَ خَيْرِ الْخَلْقِ مَسْكُنُهُ
قَدْ كُنْتُ وَاللَّهِ مَفْتِيهَا وَعَالِمَهَا
صَبِرْتُ فِيهَا عَلَى لَأْوَائِهَا زَمْنَا
فَلَوْ رَأَى مَالِكٌ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِهَا
سَلَوَا الْحُسَيْنَ الْمَلِيكَ الْهَاشِمِيَّ بِهَا
لَمْ أُنْسَ أَيَّامَنَا عِنْدَ الْفَقِيدِ بِهَا
قَالَ الْبَذِيونُ مَا لِلشَّيْخِ فَارِقَهَا
فَاللَّهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا وَأَرْجَعَهُ

هَادِي تُطَاطِي إِذْ كَانَتْ تَشْيَعُهُ
وَفِي الْمَدِينَةِ خَيْرُ اللَّحْدِ مَضْجَعُهُ
الْحَقُّ تَرْفَعُهُ وَالْبَطْلُ تَدْفَعُهُ
لَوْ مَسَّ أَصْغَرَهُ رِضْوَى يُضْغَضَعُهُ
لَقَالَ هَذَا الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَصْنَعُهُ
وَأَلِهَ عَنْ زُلَالٍ كَانَ يَكْرَعُهُ
الْحَقُّ نَسَمِعُهُ وَالْعِلْمُ نَرْضَعُهُ
وَمَا لَهُ طَابَ فِي (الْأَرْدَنِ) مَوْضَعُهُ
لِلَّهِ مُخْرِجُهُ مِنْهَا وَمَرْجَعُهُ

محمدي بن أحمد فال عاش في الفترة ما بين: (1318-1389 هـ / 1900-1969 م)¹

كما يطالعنا الشاعر محمدي ولد أحمد فال بقصيدتين تعتبران من أهم عيون الشعر العربي، حيث ضمن كلا منهما العديد من الأفكار والأساليب الأدبية الراقية، إضافة إلى مواقف ومبادئ يرى الشاعر نجاح مستقبل موريتانيا في تبنيها، ذلك ما نستشفه من قصيدته: (لسان الضاد) التي يقول فيها:

لِسَانُ الضَّادِ يَرْمُقُ بِالْعُيُونِ
فَفَكَّرَ فِي دِيُونِ الضَّادِ حَلَّتْ
تَطَوَّرَ الشَّعْبُ كَانَ عَلَى مَنَامٍ
أُمُوتَمَرُ الْعُيُونِ فِي الْبَدِيُونِ
إِلَيْكَ الْيَوْمَ مَوْتَمَرُ الْعُيُونِ
تَطَوَّرَ بَعْدَهُ طَوَّرَ الْجَنُونِ

¹ ولد حوالي سنة 1900 بولاية لعصابة. هاجر مبكراً إلى المغرب ومنه إلى المشرق. ثم عاد إلى البلاد في عهد الرئيس الأسبق المختار ولد داداه، وتوفي 1969 بكيفه. له ديوان شعر لم ينشر بعد. انظر محمد كابر هاشم، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

لسانُ الضاد فارغةُ الفؤادِ كفاها من جفا (ويّ ونون)
 بريعان الشباب زهت وتاهت فهي اليوم يانعة الغصون
 فرسمها وإن غضبت (فرنسا) وخلّ النوم ينعّم بالجفون
 وخل رطانة هرمت وشابت فهي اليوم موشكة المنون

وتطالعنا أيضا قصيدته الذائعة الصيت "بُحَيْر الصّفوف"، التي ضمّنها الشاعر عصارة أفكاره، وما تحتويه من تجارب، وما علمته الأسفار والتجوال بين بلدان عديدة مر بها الشاعر، وما عاشت عينه ومشاعره من مناظر خلابة، إضافة إلى أماكن الإقامة التي قضاها مهاجرا في كل تلك الأصقاع التي طالتها أسفاره. كل ذلك لم ينسه ربوع وطنه التي لا تساويها ربوع في عالمه الوجداني المعاش، الذي عبر عنه بأسلوب راقٍ، ودقة في التصوير، هذا ما يستطرده الشاعر في قصيدته الرائعة التي يقول فيها:

ألا يا بُحَيْر الصّفوف واللّهُو والأنس عليك سلام الله يا وجنة الشمس
 عليك سلام الله يا مرتع الصّبا ويا مَجْمع الأحباب والأهل والجنس
 ويا ثمرة الألباب يا روضة الهنا ويا مُذهب الآلام في الروح والنفس
 ويا موقد الأشواق جئتُك ثانيًا ولكن برق الشيب يبدو على الرأس
 ولم تنسني مصرّ وزهو نعيمها ولم يُنسني منها سرير ولا كرسي
 ولم تنسني سعدى ولا البين والنوى ولم أنس لا أنسى ولو كنتُ في رمي
 ملاعب للغزلان حول ربوعها كساها نسيج المزن بالورد والورس
 شربنا مدام الحب فيها صبايةً عُهود صبانا الغضّ والكأس بالكأس
 ليالي خُود الحي يغرين بالهوى يواصلنا همسا ويبخلن باللمس
 صبرنا وهاجرناك في الشرق تسعةً وآبت بنا ذكرى مواضعك بالأمس

فأُبْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي بَارِقِ الْمُنَى وَكُنَّا قَبِيلَ الْيَوْمِ فِي حَالِكِ الْيَأْسِ
تَمَتَّعَ فَوَادِي بِالْبَحِيرِ وَأَهْلِهِ فَلَيْسَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ يَا قَلْبُ مِنْ بَأْسِ

وله أيضا قصيدته (بكِيت على الديار وساكنيها)، وهي قصيدة لا تقل أهمية من حيث الجودة وحسن السبك، وبيان الصور، وعذوبة الموسيقى الشعرية عن سابقتها، وإن كان الشاعر يلاحظ في أسلوبه التأثير العميق بالحنين إلى ذلك الماضي الذي يعتبر فراقه نوعا من الماضي الصعب على النفس تناسيه أو تجاهله.

وهذا الماضي الذي عبر عنه الشاعر هو ما يذكر في ذاكرته الحنين إليه، والبكاء عليه كلما تذكره، وإن كان البكاء في حد ذاته لا يجديه هو ولا العويل عليه، يقول ابن محمدي:

بكِيتُ مَتَى عَرَفْتُ رَسُومَ دَارِ	وماء العين منسكب وجار
بكِيت على الديار وساكنيها	وما يجدي البكاء على الديار
وما يجدي البكاء لمستها	مصاب بالهيام والاذكار
ديار دارسات كنت فيها	أجر على جوانبها إزاري
فلا زالت تباكرها الغوادي	ولا برحت تعلل بالسواري
نهاري لا يزيل ظلام ليالي	وما لي لي بأظلم من نهاري
على أرض البحير وساكنيه	ودور في منازل قفار
سلام كالشموس واللاللي	ونور البدر منكشف الخمار
ونشر المسك ما هبت شمال	وما غنت على طرب جوار

الخاتمة:

من خلال دراستنا لمظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر وآفاق تطوره، واستقراءنا للجوانب المختلفة المتعلقة بحياة وثقافة المجتمع واتجاهات شعرائه، استطعنا التوصل إلى ما يمكننا تسميته بالاستنتاجات الرئيسية التالية: على الرغم من ندرة الدراسات التي تناولت هذا الجانب من الأدب العربي فإننا حاولنا استجلاء جوانب أساسية منه لا تزال بحاجة إلى مزيد من الاهتمام والبحث والاستقصاء.

من الأمور التي حددت مسيرة الأدب العربي الحديث، ما اتسم به التاريخ الحديث لأقطاره، من أحداث تاريخية عاشتها بعض البلدان العربية منذ نهاية الدولة العثمانية، التي كانت وريثة للخلافة العباسية. هذا بالإضافة إلى ما شهدته أجزاء أخرى من الساحة العربية كظهور دولة المرابطين في المغرب العربي، في القرن: الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي¹، والتي كان لها فضل نشر الإسلام في عدد من شعوب القارة الإفريقية. كما أن الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها المجتمع العربي قديما والتي تعتبر القبيلة والتنقل من أهم مركزاتها، إضافة إلى ما كانت تلك الحياة تزخر به من مقومات أساسية كالكرم، والأخلاق النبيلة، التي تركت بصماتها على توجه حركة الأخلاق والتربية ذات البعد الإسلامي المتميز، وهو ما لمسناه لدى العديد من الشعراء الموريتانيين.

حاولنا أن نبين دور بعض البلدان العربية في التصدي للغزو الفكري والعسكري

¹ - راجع: أبوه ولد أعمر: محمد بن الطلبة اليعقوبي، دراسة تحليلية للجانب العلمي والأدبي

من حياته، كلية التربية، جامعة الفاتح، طرابلس: 1987م {رسالة ماجستير، لم تنشر}، ص: 6.

للاستعمار، واتضح لنا أن ضعف آثار الغزو الفكري للمستعمر على بعض البلدان العربية والإسلامية، يعود إلى العمق المعرفي، والبعد الديني لدى الأفراد. ولعل العامل التربوي كان له الإسهام الأكبر في هذا المجال، خاصة دور المحاضر {جامعات الصحراء}، أو ما يعرف ب: {الكاتيب}. فالكاتيب لم يقتصر دورها على الجانب المعرفي فقط، بل إنه تجاوزها إلى وحدة المجتمع، وبناء الكيان العربي الإسلامي. في دراسة حياة الشعراء، حاولنا أن نتحقق من التاريخ الأكثر ترجيحاً لميلاد الشاعر، وهو ما قد تتضارب حوله الآراء، خاصة شعراء العصر الجاهلي. كما حاولنا أن نبين نشأة كل شاعر من خلال الترجمة لحياته، وما أحاط بها من ملابسات، بما في ذلك دراسة المراحل المختلفة من حياته، حتى وفاته. خلال دراسة آثار الشعراء، حاولنا التعرض لبيئات بعضهم، وانعكاسها على النشاط الأدبي للشاعر، من حيث المؤثرات النفسية والاجتماعية، التي تلعب دوراً مهماً في حياة الفرد، وتتعكس سلباً أو إيجاباً على عطاءاته وأفكاره العامة. وقد يلاحظ المتتبع لدراسة آثار الشعر الموريتاني أن أعظم تلك المؤثرات يرتبط بالمشاعر: {الاجتماعية، والدينية، والبيئية}. وهذا ما تجلّى في المراثي، والوقوف على الأطلال، وإن كان ذلك من موروثات الشعر الجاهلي، هذا إضافة إلى المدائح الدينية، كالمديح النبوي الذي نجده يطغى في بعض الأحيان على إنتاج العديد من الشعراء. كما أن بعض الشعراء حاول أن يكون مبتكراً، وطريفاً، واعتمد في ذلك على أسلوب التكرار، سعياً منه لإضفاء الطرافة على شعره. وتعرضنا إلى الزوايا الفنية الأخرى التي اتسم بها بعض الشعراء الموريتانيين، بما فيها من: تشابيه، واستعارات، وصور، وأخيلة، وموسيقى.

حاولنا أن ندرس العاطفة، وارتأينا أنها متعددة لدى العديد من الشعراء، فهي عاطفة وجدانية، ودينية، وهو ما منح أشعارهم تلك الرقة والتأثير، ورقة عواطف بعض الشعراء، جعلتهم يلجئون إلى مثل هذه البحور الشعرية.

1. الموسيقى الشعرية، والأجراس اللفظية التي تدفع في الشاعر حماسا متأججا، تنقاد وراءه العواطف، منيرة الدرب أمام صور بديعية الجمال.
2. وضوح الشاعرية، لدى بعض شعراء المعارضات، مع صدق المشاعر والأحاسيس لديهم.

3. اهتمام بعض من الشعراء، وانتقاله روحيا إلى شعراء آخرين ليسوا من عصره، ومحاولة ربطهم بالبنية الشعرية لهذا العصر، مع الانسجام والتذوق الكامل لمضامينه الأدبية والشعرية منها خاصة.

وأخيرا حاولنا أن نسلط الضوء فيه على أهم الفترات التي شهد فيها الأدب الموريتاني نهضة واسعة النطاق، وذلك منذ (أوائل القرن الثاني عشر وحتى مطلع هذا القرن)، كمرحلة من أهم مراحلها الذهبية، والتي كانت نواة لما تلاها من الأدب الحديث مع بزوغ عصرنا الحاضر.

وهذا البحث (مظاهر العصرية في الأدب الموريتاني المعاصر) الذي نقدمه اليوم . كمجهود ذاتي . أملين أن يقدم صورة شاملة عن الأدب الموريتاني، وتياراته القديم منها والحديث ، وأن يكون في المستوى المطلوب، كأبسط صورة نقدية يمكن تقديمها في إطار ضيق على الرغم من العناية والمثابرة اللتين كانتا مجالا له، بالإضافة إلى العمل الجاد والتحري في كل المصادر والمراجع ذات الصلة به.

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والهدى، وأن يرشد أقلام أبناء أمتنا لخدمة تراثها العربي والإسلامي، حتى يستعيد هذا التراث قوته التي ولد ونشأ بها عند الأجداد وسلفهم الصالح.

المصادر والمراجع

- أبوه ولد أعمار: محمد بن الطلبة اليعقوبي، دراسة تحليلية للجانب العلمي والأدبي من حياته، كلية التربية، جامعة الفاتح، طرابلس: 1987م {رسالة ماجستير، لم تنشر}.
- أخبار موريتانيا (نشرة إخبارية تصدرها سفارة موريتانيا)، عدد: تشرين الثاني، (نوفمبر)، 1982، دمشق.
- د. علي عشري زايد: استدعاء شخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، ط: 1، طرابلس.
- كابر هاشم: أجيال القصيدة الموريتانية (1144-1430 هـ / 1729-2009 م)، دار الفكر، بيروت، ط1/ 2009.
- مجلة الفكر، تونس، السنة: 23، العدد: 2، نوفمبر 1977.
- مجلة الموقف الأدبي، العدد: 148. آب (أغسطس)، دمشق، 1983.
- محمد يوسف مقلد، شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، مكتبة الوحدة العربية، ط: 1، يناير {كانون الثاني}، بيروت 1962.

الصورة الفنية معياراً للتقويم في النقد العربي (مقاربة في الوظيفة والمضمون)

محمد الأمين محمد محمود صهيب

قسم اللغة العربية وآدابها

1- المبتدأ:

غالبا ما تستعمل الصورة في مجال الأعمال الأدبية مشفوعة بنعت يحدد ماهيتها وطبيعتها، كأن توصف بأنها: "صورة فنية"، أو "صورة أدبية"، أو "صورة شعرية"، ويندر ورودها مجردة من إحدى هذه الصفات في مدونات التراث النقدي العربي؛ وكلها نعوت يُتوسل بها إلى إصابة المعنى الأنسب حسب ما يقتضيه النسق والسياق. ومن الملحوظ وجود تقارب في الاستعمال - وخاصة في اللغات الأوروبية التي سبقتنا إلى استعمال هذه المفاهيم - بين الصورة الفنية والصورة الأدبية؛ إذ يعنون بلفظي الأدب، والفن ما أنتج من منظوم ومنثور يخاطب الوجدان ويستثير كوامن العواطف.

وأما عبارة "الصورة الشعرية"، فأخص من سابقتها، وألصق بالنقد العربي، لاهتمام النقد العربي القديم بالتصوير ومعطياته الفنية في مجال المنظوم أكثر من المنثور؛ بيد أن العبارات التي أشرنا إليها، سابقا، لم تتداولها معاجم اللغة العربية، قديما، بالمعنى المتداول في الحقل النقدي اليوم.

وإذا انطلقنا من الدلالة المعجمية للصورة (المجزوءة الأولى من التركيب الإضافي) وحقلها اللغوي واجهتنا معان تفيد: الشكل، والنوع، والصفة¹ ونحو ذلك؛ وفي هذا السياق قد يتنزل قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}. [التغابن 3]، وكذلك قوله تعالى: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}. [غافر: 64]، فأغلب المفسرين ينحو بمفهوم التصوير منحى الشكل والتجسيد الخَلْقِي².

أما صفة " الفنية " (المجزوءة الثانية من المركب)، فتحيل، في بعدها اللغوي، على جملة من المعاني، فتسعفنا معاجم اللغة العربية بدلالات منها: الثَّنُّ: واحد الفُتُون وهي الأنواع، ورجل مِفْنٌ يأتي بالعجائب. وافْتَنَّ الرجل في حديثه وخطبته إذا جاء بالأفانين، ويقال: فَنَّنَ فلانٌ رأيه إذا لَوَّنَه ولم يثبت على رأيه واحد. والأفانينُ الأساليب وهي: أجناس الكلام وطُرُقُه. وقد تحيل على تعدد الألوان واختلافها: فالنَّفْنِينُ التخليط يقال ثوبٌ فيه نَفْنِين إذا كان فيه طرائق ليست من جنسه، وقد فسر بعضهم قوله تعالى { ذَوَاتَا أَفْنَانٍ } ب: ذواتا ألوان وواحدها حينئذ فَنٌ³.

أما إذا نظرنا إلى الصورة، في بعدها الاصطلاحي، فستستوقفنا تعريفات وتحديدات عديدة منها أنها: تشكيلٌ لغويٌّ مكونٌ من الألفاظ والمعاني العقلية والعاطفة

¹ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (الصورة)

² انظر تفسير الآيتين الكريميتين في الطبري وابن كثير والقرطبي مثلاً.

³ ابن منظور: لسان العرب: مادة (فنن) والفيروزآبادي، القاموس المحيط (نفس المادة)

والخيال¹، ومنها أيضا أنها مظهر خارجي جلبه الشاعر أو الكاتب، ليعبر به عن انفعالاته ودوافعه².

ولعل من أشمل تعريفات الصورة ما ذهب إليه نعيم اليافي من أنها " كل تركيب لغوي ذي علاقات تقوم على المشابهة أو المجاورة أو المغايرة أو فجوة التوتر ... إنها وحدة تركيبية معقدة تتبارى فيها شتى المكونات : الواقع والخيال، اللغة والفكر، الإحساس والإيقاع، الداخل والخارج، الأنا والعالم³.

وهناك تعريفات أخرى أكثر ارتباطا بمدارك الحواس، أي أنها: استرجاع ذهني لكل ما يتمكن المنتج من رؤيته أو سماعه، أو لمسه، أو تذوقه، أو شمه، فكان الأديب يستحضر صورة ما أدركته الحواس؛ لاستخدامه عند الاقتضاء.

وهذه التعريفات تكاد تتفق على أن الصورة هي: القالب الذي يصب فيه الأديب أفكاره، ومعانيه، وعواطفه. إلا أن هذا الشكل يختلف من شاعر إلى شاعر ومن كاتب إلى آخر، كما أن إنجازها إنما يتم بحسب أحوال الأديب النفسية والعاطفية؛ فالأصل أن تتناسب الصورة مع المعاني المعبر عنها وحالة المنتج النفسية، ومن ثم

¹ علي البطل: الصورة الفنية في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت، 1983م، ط3، ص 30.

² ينظر: عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، إربد 1984 . ص14.

³ نعيم اليافي: الصورة في القصيدة العربية المعاصرة، بحث مقدم لندوة محمود سامي البارودي، مؤسسة البابطين، القاهرة 1992.

تتوارد الألفاظ المناسبة، باعتبارها القوالب التي تتجسد من خلالها المعاني المعبر عنها، فالصورة المعتد بها نقدياً وبلاغياً هي تلك التي في بوتقتها تنصهر المعاني والألفاظ، متساوقة نحو الغرض الذي يدعو المعاني، لتترتب في النفس حتى تتضح أولاً، ويدعو معها الألفاظ، لتترتب حسب ترتيب المعاني أصالة.

وهذه المداليل لا تكاد تخرج في مرجعيتها اللغوية عن حدود الفن بوجه عام بمفاهيمه الاصطلاحية المختلفة، إلا إذا ربط المركب بصفة أخرى خرجة بطبيعتها عن المجال المذكور.

وعلى الرغم من أن الصورة الفنية - التي عليها مدار هذا البحث - مصطلح حديث النشأة نسبياً، مستورد من المفاهيم النقدية الغربية، كما ذكرنا آنفاً، فإن القضايا التي يعالجها قديمة متأصلة في تراثنا النقدي قدم الوعي بالخصائص النوعية للفن الأدبي نفسه، "إن الصورة الفنية هي الجوهر الدائم والثابت في الشعر، فقد تتغير مفاهيم الشعر ونظرياته، فتتغير - تبعاً لذلك - مفاهيم الصورة الفنية ونظرياتها، ولكن الاهتمام بها يظل قائماً ما دام هناك شعراء يبدعون، ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه وإدراكه، والحكم عليه"¹.

لقد عالج النقد العربي القديم بصورة أو بأخرى قضايا الصورة الفنية منذ العصر العباسي الأول، وخاصة في الجوانب المتعلقة بالبعد البلاغي، وذلك من خلال

¹ جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3

تحليل الصورة القرآنية، والتمييز بين أنواعها المجازية، كما اتخذوا منها أهم معيار يحتكمون إليه في معالجتهم للقضايا النقدية وخاصة في مواكبة مصطلحاته الأولى وهو في طور النشأة والتخلق مثل السرقات الأدبية، ومفهوم الفحولة، وفي الموازنة بين الشعراء، وغيرها من المرتكزات النقدية الأساسية، كما توسلوا بها إلى تناول بعض المباحث المعقدة التي ظلت تشكل مآثر جدل ومناقشات حامية الوطيس كالإتباع، والمحاكاة، والابتداع.

2- أهمية الصورة الفنية ووظائفها

تقوم الصورة الفنية بشأن كبير في تزجية المعنى وتقريبه وتجسيده، ويتجلى ذلك في الطريقة التي بها يتم تسليط الضوء على المعاني المراد التعبير عنها، وفي الطريقة التي تحقق تفاعل المتلقي مع المعنى المعروض، فالمعاني المعقدة، غالباً، ما تكون كامنة متأبئة على الفهم والاستيعاب، فلا يتسنى استظهارها على وجه الدقة إلا بالتصوير الفني المبتكر. ومن هذا التصوير الفني يستمد الشعر قوته، تلك القوة المتقلبة بطبيعتها، التي لا تتجلى إلا في سياق الإيحاء بالمعاني وبالأفكار مجردة، لا في المبالغة في التوصيف فحسب. فالصورة هي التي عن طريقها يستطيع الشاعر أن ينقل إلى المتلقي الحالات الغامضة التي قد تخالج نفسه في الوقت الذي يستحيل نقله إياها مباشرة، ويتعذر إدراكها دون استعمال الصورة الفنية وإيحاتها الغنية بالظلال والمؤثرة غالباً¹.

¹ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، م.س ص 398

إن الصورة تمنح الأدب مزيداً من الحيوية وتنقل المعاني المبتذلة إلى مستويات مقبولة أو جذابة، أحياناً، بفضل ما يمتلك الأديب من قدرة على التصرف في النظم، أي بتوخي معاني النحو في الكلم من تقديم وتأخير وتعريض وتكثير وتحكم في الإسناد وأزمنة الأفعال... إلخ.

وفي هذا السياق يقتزل قول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علمُ النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"¹

ومن العناصر الأساسية في الصورة الفنية وخاصة الشعرية ما يتوخي الشاعر من إحياء وظلال، من شأنها أن تجعل الشعر أشد تأثيراً في النفس وأقوى علوقاً في القلب؛ لأنّ حالة المتلقي النفسية قد تسهم إسهاماً فاعلاً في اقتناص تلك الظلال؛ فهي بذلك تسهم بفاعلية في صناعة الإحياء وإضفاء ظلال الكلمات والعبارات ناحية بها إلى معارج التوسع والتعمق؛ هذا إلى ما يحققان للمبدع من متعة فنية، وما يسعفانه به من فرص للتعبير عن انفعالاته، من خلال تضمين الكلمات القليلة معاني مكثفة الدلالة، خصبة الإحياء.

وإلى جانب الظلال والإحياء تقوم الموسيقى والعاطفة بشأن عظيم في تأليف الصورة الشعرية، فمن شأن الموسيقى أن تشد السامع إلى العمل الأدبي وتحمله

¹ - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988 م، ط 1، ص

على متابعتة والاستمتاع به، وأما العاطفة السائدة في العمل الأدبي، فتكسبه تأثيرا فاعلا، وتحمل المتلقي على الانفعال والتفاعل مع مضمون الخطاب وتهيهؤه للاقتناع بوجاهة محمولات الصورة الأدبية المتأنتية منه في المحصلة النهائية، فهذه العناصر مجتمعة هي التي منها تستمد الصورة الفنية تأثيرها، وروعيتها وجمالها.

وتأسيسا على ما تقدم يتبدى جليا أنّ عناصر الصورة الفنية هي الدلالات المعنوية للألفاظ والعبارات المستعملة لعرض التجربة الإبداعية، إضافة إلى المؤثرات التي بها يكمل الأداء الفني من موسيقى وظلال وإحياء وعاطفة وخيال.

إن مفهوم المعنى يحتل دلالات ومعاني متعددة، أفشاها في المرجعيات القديمة تلك التي تربط المعنى بالغرض أو بالمقصدية، أي بما يريد المتكلم إثباته أو نفيه، فالمعنى، بهذا المفهوم، يعني الفكرة المجردة، التي يجتهد المبدع في اقتناصها بشتى الوسائل التعبيرية، ثم يستخلصها المتلقي بآلياته التحليلية من صياغة المبدع؛ وهذا الترابط القوي بين المعنى بهذا المفهوم وأداة التعبير أدى إلى تلازم متوتر بين ثنائية اللفظ والمعنى مبكرا في التراث النقدي العربي، ثم قاد - لاحقا - إلى فصل بين شكل العمل الأدبي وبين محتواه، مما حمل على الاعتقاد أن الصورة الفنية إن هي إلا جانب من جوانب الصياغة الشكلية الطارئة على معان قبلية¹

1- ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، م.س. ص. 313 وما بعدها

(3) الصورة الفنية وحضورها في التراث النقدي العربي القديم:

لا يمكن اعتبار الصورة الفنية شيئاً جديداً في مجال الأدب والنقد، فالشعر منذ بداياته قائم عليها، ولن يستغني عنها؛ لأن مدار الإبداعات الشعرية إنما هو على الموحى من الألفاظ، والعبارات اللغوية، وما تشي به من معانٍ إنسانية نبيلة.¹

كان الحديث عن الصورة الفنية في النقد القديم حديثاً عابراً، يتعرض فيه الناقد - غالباً - إلى جانب من جوانبها، كالتشبيه والاستعارة - ولكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال جهل النقاد القدماء بهذا المعيار المهم من معايير نقد الشعر. ويمكن اعتبار قوله الجاحظ (ت. 255هـ) الشهيرة:² - "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي، والقروي، والمدني. وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير" - حديثاً صريحاً عن الصورة وأهميتها، ومكانتها في الشعر، فهو يجعلها معيار التنافس الأساس بين الشعراء.

لقد تحدث الجاحظ عن الصورة في الشعر دون تدقيق، مشيراً إلى أهمية استحضارها فيه، جاعلاً منها معيار السبق والتنافس بين الشعراء، متخذاً من سهولة

1- ينظر: إحسان عباس: فن الشعر، دار الشروق، عمان، 1967م، ط 4، ص 193.

2- أبو عثمان. عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج 3، مكتبة

مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1، 1938م. ص 132، 133.

مخارج الشعر، والتحام أجزائه مكمّن الجودة والمزية. وهو بهذه الإشارات العابرة يبدو أن لديه وعياً أكيدا بأهمية الصورة؛ لأن إدراك المعاني في نظره متاح للناس كافة، بحيث لا تشكل مجالا للتنافس والتفوق الإبداعي. إلا أن هذه السهولة في فهم المعاني لا تتأتى إلا بسكبتها في قالب الجيد الأنسب لها، وهو ما يحتاج إلى ملكة تعبيرية وقريحة شاعرية، وبذلك تصبح معارض المعاني وطرق عرضها هي مجال التفاوت، ومضمار السباق بين الشعراء والكتاب.

وبعد الجاحظ، بقليل، نجد أبا العباس ثعلباً (ت 291 هـ) يتوقف، ملياً، عند نمط من أنماط الصور البيانية هو الصورة التشبيهية، ويجعلها فرعاً من فروع قواعد الشعر الأربع، كما استوقفته الصورة الشعرية في بعدها الموسيقي؛ إذ يقول: "واتساق النظم ما طاب قريضه، وسلم من السناد والإقواء والإكفاء، والإجازة والإيطاء".¹

لكن ابن طباطبا العلوي (ت 322 هـ) ذهب أبعد من سابقه في معرض حديثه عن مشاكلة اللفظ والمعنى؛ فالأدب عنده معانٍ سامية في ثوب من الألفاظ سامٍ؛ "فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه

1- أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، دار المعرفة،

القاهرة، ط1، ص 37.

الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتدل على معنى قبيح ألبسه؛ وهو يولي كسابقيه اهتماماً كبيراً للصورة الموسيقية الناشئة من الوزن وإيقاعه.¹

ونجد عند قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) اهتماماً أكبر بالصورة. فهو يعرف الشعر بأنه: "... قول موزون مقفى، يدل على معنى. فكأنه بقوله هذا يعني أن الشعر صورة لا تتحقق إلاً بجانبه اللفظي والمعنوي. وبعد حديثه المجلد هذا نجده يعرض للفظ، فيشترط فيه السماحة وسهولة مخارج حروفه، وأن يكون فصيحاً وخالياً من البشاعة². قبل أن يتحدث عن الصورة الموسيقية في الشعر - لاحقاً - عند حديثه عن القوافي باعتبارها تمثل جانباً شكلياً فيه.

ولم يكتمل القرن الهجري الرابع حتى اتضحت معالم الصورة أكثر فأكثر مع أبي هلال العسكري (ت 398 هـ)، الذي رأى أن شأن الشعر يتمثل في جملة أمور منها جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهاؤه، ونزاهته ونقاؤه، ثم وضعه وضعاً حسناً وصحيحاً في تركيب الكلام، وقد اتخذ منها معياراً، على أساسه، يفاضل بين الشعراء³. وقد ذهب إلى أن البلاغة في الكلام متحققة في جودة المعرض، لأن الكلام لا يسمى بليغاً إلا إذا حسن معرضه؛ كما تعرض، أيضاً للصورة التشبيهية

1- محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي عيار الشعر ، تحقيق وتعليق طه الحاجري و محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ، 1956 . ص ص 8 ، 67.
2- ينظر نقد الشعر، قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص11 ، ص 28.

3- ينظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري: دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1952م، ص 58.

بشكل أكثر دقة وتفصيلاً مما مر بنا عند أبي العباس ثعلب؛ إذ يرى أن أجود الصور تكون على أربعة أوجه:

أولها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، أي تصوير ما كان معنوياً بحيث يصير محسوساً (مدرَكًا بحاسة)؛

ثانيها: "إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، أي بيان غير المألوف في صفة المألوف؛

ثالثها: إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ..؛

رابعها: "إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها"¹.

ويتنزل كلام أبي هلال هذا كله في موضوع أغراض الصورة وغاياتها المتمثلة في تقوية المعاني وتوضيحها، وحسن نظم الكلام وتأليفه.

وما إن أطل القرن الخامس حتى انبرى ابن رشيق القيرواني (ت 465هـ)، يخطو بالصورة خطوات إلى الأمام - (وقد عبر عنها باللفظ) - فاعتبرها جسم الشعر الذي يضعف إذا ضعف، وعبر عن المعنى بروح الشعر. وفي تتبعه للصورة الموسيقية متمثلة في القوافي والأوزان، نعتها بكونها شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يُسمَّى الكلام شعراً حتى يكون له وزن وقافية. ثم تحدث كذلك عن الأعاريض والأضرب، فقال: إنه ينبغي للشاعر أن يركب مستعمل الأعاريض

1- ينظر المرجع السابق، ص ص 240. 241.

ووطيئها، وأن يستحلي الضروب ويأتي بألفها موقعا، وأن يتجنب عويصها
ومستكرها.¹

أما إمام البلاغة، في عصره، الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت 473هـ) فيرجع الجودة
في الشعر إلى النظم بمفهومه الواسع؛ لا إلى المعاني منفردة وحدها، ولا إلى
الألفاظ بمعزل عن المعاني. بل إلى اللفظ والمعنى معا وقد اتحدا بحيث يتم ترتيب
المعاني في النفس أولاً، وترتيب الألفاظ في النطق تبعاً لترتيب المعاني في النفس.²

وقد استرسل في الحديث عن الصورة البيانية المتأتية من التشبيه والاستعارة، خاصة
في كتابه أسرار البلاغة، حيث ذهب إلى أن جودة الصورة التشبيهية تكمن في
التقاطها مما تدركه الحواس، وذلك بأن يصور البليغ المعنوي المعقول في صورة
المحس. وضرب أمثلة كثيرة على هذا الضرب من التصوير، مركزاً في النماذج
التعصيدية التي ساقها على ما أدركته العيون، وما كثر ترده على البصر؛ ذلك:
"أن العيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس وتجدد عهداً بها وتحرسها
من أن تدثر، وتمنعها من أن تزول"³. وفي هذا الحديث إدراك أكيد لما للصور

1- ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، مطبعة السعادة، القاهرة، 1963م
. ص ص: 124، 140.

2- عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر،
بيروت، 1978م. ص 143. وما بعدها.

3- الإمام عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ط 1.

البصرية التي يلتقطها المبدع من البيئة، ليعبر بها عن تجربته الإبداعية من أهمية وتأثير على مدركات الحواس الأخرى.

وهو يستحسن كثيراً أن تجيء الصور في الهيئات التي تقع عليها الحركات، وأن تقترن هذه الصورة الحركية بأوصاف أخرى مثل الشكل، واللون، وأن تكون هذه الصورة الحركية مجردة لا يراد غيرها.

ومما استجاد الجرجاني في الصورة الاستعارية، أنها تُبرز المعاني في صورة مستجدة تزيد قدرها نبلاً، وتكسبها مزية، فهي التي بواسطتها يستطيع الأديب أن يعبر عن الكثير من المعاني باليسير من الألفاظ.¹

وهكذا نجد أن القدماء كان لهم اهتمام بالصورة. يعبرون عنها بالعبارة، أحياناً، وباللفظ، أحياناً أخرى، وذلك في ممشئ لُحمتة البلاغة وسداه النقد، لما كان بين الفنانين من تداخل وتمازج خاصة في طور النشوء والارتقاء. وهذا ما جعل بعض النقاد المحدثين، يذهب إلى القول بأن مفهوم الصورة عند القدماء ينحصر في مجال الصور البلاغية، دون غيرها من الصور الذهنية القائمة على التخيل.

3- الصورة الفنية في الدراسات النقدية العربية الحديثة

لقد بدأ الدارسون الغربيون الاهتمام بالصورة الفنية في الدراسات النقدية في العقد الثالث من القرن الماضي؛ انطلاقاً من الدراسات والأبحاث التي جعلت من (

1- ينظر: أسرار البلاغة، م.س. ص ص 32 ، 33.

الصورة الفنيّة عند شكسبير) مرتكزا لها، فاقترب أصحابها من استظهار شخصية شكسبير الأديب، وعقليته، وذوقه، وتجاربه في الحياة، وأفكاره العميقة بطريقة فاقت الدراسات السابقة التي حاول كتابها تفحص أدب شكسبير من مختلف الجوانب والأبعاد. وقد ركز النقاد الغربيون على رصد خصائصها ومميزاتها الفنية، بل ذهب كثير منهم إلى أنها هي روح الشعر ولبه المركزي، وهذا ما أكدته كتابات عزرا باوند، وروبيرت أرزروز.¹

أمّا في النقد العربي الحديث؛ فقد بدأ الاهتمام بالصورة الفنيّة أواسط القرن الماضي (20 م). وتجلت بواكيرها الأولى في مقالات نشرت في مجلات مصرية كمجلة المجلة المصرية، ومجلة الرسالة. ومنها مقالات للدكتور محمد غنيمي هلال: (الصورة الشعرية في المذاهب الأدبية: الكلاسيكية، والرومانتيكية، والبرناسية)، وكتابات للدكتور: عز الدين إسماعيل التي نقلها فيما بعد في كتابه: التفسير النفسي للأدب. وقد عرف التصوير الفني في الشعر العربي نفسه منعطفا جذريا مطلع القرن العشرين بظهور التيارات الشعرية التجديدية المستمدة من اتجاهات الشعر الغربي وخاصة الاتجاه الرومانسي، في ثورته على الصورة الشعرية الكلاسيكية وأدواتها التقليدية.

وفي المجال النقدي يعتبر الدكتور: مصطفى ناصف أقدم من صنف كتابا خُصّص لدراسة الصورة يحمل عنوان (الصورة الأدبية)، وتم نشره للمرة الأولى عام 1959

1- ولد متالي لمرباط، درامية الشعر العربي، مقارنة لنصوص موريتانية حديثة، دائرة الثقافة

والإعلام. الشارقة 2013 ص 60.

، حاول أن يقدم فيه مادة علمية محكمة المنهج، برغم ما شاب بعض مباحث كتابه من اضطراب وغموض أحياناً . وقد يدفعه إعجابه المفرط بالمذاهب الأوروبية في دراسة الصورة إلى نكران وجود الصورة في نقدنا القديم¹.

ومنذ أخذت الدراسات والبحوث التي تتخذ من الصورة الفنية مرتكزا لها في الظهور تراوح بين البعدين النظري والتطبيقي، وبين المجالين التقليدي والحداثي.

ومن أجود الدراسات النظرية في الصورة الفنية وأعمقها: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي للدكتور جابر عصفور، فقد شكلت مدار كثير من البحوث والرسائل العلمية بالجامعات العربية إلا أن طابع التطبيق قد غلب عليها.

ولم يتأخر إسهام الدكتور: كمال أبي ديب، في دراسة الصورة، خاصة في كتاباته حول نظرية عبد القاهر الجرجاني في الصورة الفنية، هذا إلى دراساته للصورة خلال بحوثه التطبيقية التي شملت كثيرا من مجالات الإبداع في التراث الشعري العربي.

وقد استفاد الدكتور: كامل حسن البصير من ما ذهب إليه كل من مصطفى ناصف و د. جابر عصفور ود.كمال أبو ديب فألف كتابه: بناء الصورة في البيان

1- د . كامل حسن البصير: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، المجمع العلمي العراقي، بغداد 1987، ص 170. وكذلك: سلمان علوان العبيدي، البناء الفني في القصيدة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1. 2011، ص 77 وما بعدها.

العربي . فكان بمثابة اتجاه توفيقى بين من يثبتون اعتناء القدماء بالتصوير الفني ومن ينفون ذلك عنهم.

لقد شكلت هذه الدراسات الثلاث مرجعية استكملت الكشف عن الأصول العربية للصورة الفنية في التراث النقدي وهي بمثابة رد قاطع على ما ذهب إليه الدكتور : مصطفى ناصف من خلو النقد العربي القديم من دراسة الصورة الفنية.

ومن الدراسات النظرية المتميزة كذلك ما أنجزه الدكتور عبد القادر الرباعي خاصة كتابه: الصورة الفنية في النقد الشعري ومقالات كثيرة له نشرها في مجلات علمية أخر في العقد الأخير من القرن العشرين.

وإذا نظرنا - على وجه الخصوص - إلى الدراسات التطبيقية المتعلقة بالصورة الفنية نجد أنها استحوذت على حيز كبير في الرسائل العلمية الجامعية، وأنها سارت في اتجاهين أساسيين:

الأول: كان ذا طابع عمومي حيث انصب على إنتاج شخصيات أدبية وفق إطار زمني معين، ويمكن أن نمثل عليها برسالة الدكتور علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري. ودراسة للدكتور: نصرت عبد الرحمن بعنوان: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، ومنها أيضا: دراسات تناولت موضوعات حديثة منها: الصورة الفنية عند شعراء الإحياء في مصر للدكتور: جابر عصفور، ودراسة الدكتور: نعيم اليافي (الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث). وقد أصبحت هذه الدراسات منتشرة على نحو يستحيل معه الحصر والإحاطة.

الثاني: ذو طابع مختصّ مداره على شعر شاعرٍ بعينه مثل: دراسة الدكتور عبد القادر الرباعي (الصورة الفنية في شعر أبي تمام) ، وقد تأثّر فيها بدراسة كارولان إسبيرجن حول (الصورة الفنيّة عند شكسبير)، لكنّه تأثّر محدود، معين على فهم شعر أبي تمام وتذوقه؛ وكذلك دراسته الموسومة بـ (الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى) ، وقد ركز فيها على الجانب الإحصائي .

ومنه كذلك: (الصورة الفنية في شعر بشار) للدكتور : عبد الفتاح صالح نافع ، والصورة الفنية في شعر دعلج بن علي الخزاعي للدكتور: علي أبي زيد؛ والصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس للدكتور : ساسين عسّاف ، والصورة الفنية في شعر عرابة اليماني للأستاذ: داود سلوم، وهذا المجال قد أخذ في الاتساع والشمول بحيث يتعذر حصره.

وفي موريتانيا أخذت الصورة الفنيّة تتبوأ مكانة مكيّنة في في النصوص الشعرية ذات الطابع الحدائي تبعا لتنوع الرؤى الفنية التي ينهجها الشعراء الشباب في إبداعاتهم الشعرية، وخاصة منذ سبعينيات القرن العشرين، وهو ما يمكن إرجاعه إلى صعود التيار الرومانسي، على حساب التيار الكلاسيكي، فتفتحت لذلك أمام الشعراء الموريتانيين عوالم واسعة، وفضاءات رحبة لاقتناص صور فنية متعددة الأبعاد والألوان والمرجعيات. وقد تتبّع الدكتور الباحث ولد متالي لمرباط فضاءات الصورة الدرامية

في مسار الحركة الشعرية الموريتانية وأهم ملامحها الفنية، وقسمها إلى ثلاثة أنماط هي الصورة المقطعية، والصورة التراكمية، والصورة الكلية.¹

وما إن تعاور الشعراء توظيف الصورة على نطاق واسع في إبداعاتهم حتى أخذ النقاد يتخذون منها محورا أساسيا في دراسة الشعر ومرجعية لا مندوحة عنها في حقل النقد الأدبي، وخاصة في مجال القصيدة الحدائية. وقد تجلت بشكل أساسي في الدراسات المنجزة للحصول على شهادات عليا في بعض الأقطار العربية قبل أن تنتشر تلك الأطروحات أو أهم مضامينها، لاحقا، مطبوعة في كتب طبعا تجاريا متاحا للجميع، وسنكتفي هنا بذكر نماذج منها على سبيل التمثيل ككتابات الدكتور محمد ولد عبيدي،² خاصة كتابه: ما بعد المليون شاعر (2000)، وكتابه: السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية (الشعر نموذجا) (2009). والأستاذة أمباركه بنت البراء في كتابها: القصيدة الموريتانية المعاصرة، قراءة في الإيقاع والأسلوب (2004). والدكتور محمد الحسن محمد المصطفى، وخاصة كتابه النقدي الشعر العربي الحديث في موريتانيا، دراسة في تطور البناء الفني³ والدلالي

1- ولد متالي لمرباط، درامية الشعر العربي، مقارنة لنصوص موريتانية حديثة، (م.س). راجع

بخصوص هذا التقسيم الفصل الثاني بعنوان الصورة الشعرية ص ص 59-82.

² ينظر الدكتور، ولد متالي لمرباط بن أحمد، مرايا الحكم والكتابة، قراءة في أعمال الدكتور محمد

ولد عبيدي، مؤسسة الآفاق، ط1، 2013

3- ينظر الدكتور محمد الحسن محمد المصطفى، الشعر العربي الحديث في موريتانيا، دراسة

في تطور البناء الفني والدلالي، نشر دائرة الثقافة والإعلام/الشارقة، 2004.

وقد خصص المؤلف مبحثا عنونه بـ الصورة في الشعر الموريتاني الحديث، تحدث فيه عن

أنماطها وخصائصها. انظر ص 166 وما بعدها.

2004، ومن أحدثها بحث د. ولد متالي لمرباط، درامية الشعر العربي، مقارنة لنصوص موريتانية حديثة، الحائز على جائزة الشارقة للإبداع العربي للعام 2012، وغير هؤلاء كثير.

4- المنتهى:

إن الكشف عن ما اهتدى إليه التراث العربي النقدي والبلاغي من إنجازات وحقائق ذات صلة بقضايا الصورة الفنية يبين أنه انصب على ثلاثة جوانب أساسية:

أولها: الخيال أو الملكة التصورية التي تمكن المبدع من بناء تصوره الخاص بالأشياء؛

ثانيها: تحليل طبيعة الصورة ذاتها ودراستها بما هي محصلة ما أنتجته الملكة الخيالية الإبداعية وفق قوالب لغوية تزجي المعاني في معارض حيسة؛

ثالثها: دراسة وظائف الصورة من خلال الأعمال الأدبية، ومدى أهميتها بالنسبة للمبدع والمتلقي كذلك.

لقد تطور النقد العربي الحديث في بعده الكمي والكيفي، بفضل الموروث النقدي القديم من ناحية، وتفاعل الثقافات بعضها مع بعض من ناحية أخرى. ولعل ما يشهده الحقل النقدي اليوم من كثرة الدراسات المتعلقة بالصورة الفنية تنظيراً وتطبيقاً لأقوى دليل على جدوى الصورة في تطوير النقد الأدبي والتعرف على النص وتفجير ما فيه من كوامن الإبداع.

بيد أنّ دراسة الصورة الفنية في النصّ الأدبي ما زالت بحاجة إلى مزيد من إلمام الناقد الحديث بمفهومها ومكوناتها وأهميّتها وارتباطها بجوانب العمل الأدبي المتعددة، وتتبع مصادرها بحيث يتم تجاوز حدود شرح النصوص الأدبية بطريقة تفقدها نسقها الأصلي، وإنّما تقوم على تصنيف هذه المصادر وفق أنواعها، ممّا يساعد الدارس على تفسير الظواهر الفنية، وملحوظة مدى مقننة المبدع على توظيف مصادر صوره لتأدية المعنى المنشود، ومعرفة إلى أي مدى وفق في استدعاء مخزونه الذاكري، وهو ما من شأنه أن يُعين على التفسير النفسي للأدب عند الاقتضاء، بما يحيل إليه من مواقف تتشكل وفقاً لمؤثرات كثيرة منها الثقافي، والاجتماعي، والعقدي، والفكري. ومعرفة هذه المؤثرات معين كذلك على تفسير الصور الأدبية في تجلياتها المختلفة.

إن دراسة البناء الفني للصورة الأدبية لا يمكن أن تتم إلا بدراسة الصور الموسيقية في جانبها الخارجي المتمثل في الأوزان التفعيلية، إضافة إلى القوافي، وحروف الروي؛ أو الخارجي الذي تجسده الحلي البديعية بمفهومها الواسع، والنغم الذي ينشأ عن التكرار أو عن الجمع بين الألفاظ والصور وبين الكلام والحالة النفسية للأديب، مما يشكل مرتكز المكون الموسيقي في الصورة الفنية بأبعادها المختلفة وظلالها الجمالية والنفسية.

إن الصورة في نظر النقد الحديث لم تعد شيئاً ثانوياً منحصراً في البعد الجمالي، وإنما أصبحت المنطلق الذي لا مندوحة عنه لإدراك بعض الحقائق التي تقف اللغة العادية عاجزة عن إيصاله مدارج الفهم والمدرجات، فتصبح الصورة الأداة التي بها يتوسل المبدع للتعبير عن ما يجيش في نفسه، فتغدو المتعة التي تمنحها الصورة إياه قرينة الكشف ومثار إعجاب المتلقي وإمتاعه الفني.

مراجع البحث الأساسية

1. أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، دار المعرفة، القاهرة، ط1.
2. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج3، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1968م.
3. أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1952م.
4. أحمد الصغير: تداخلات الصورة وانزياحاتها في شعر الحداثة، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة ج71، مج18 نوفمبر 2010.
5. ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، مطبعة السعادة، القاهرة، 1963م.
6. إحسان عباس: فن الشعر، دار الشروق، عمان، 1967م، ط4.
7. أحمد مطلوب: معجم النقد العربي، ط1، 1989، بغداد.
8. بنت البراء أمباركه: القصيدة الموريتانية المعاصرة، قراءة في الإيقاع والأسلوب (2004).
9. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992.
10. عبد القاهر الجرجاني:
 - أسرار البلاغة، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
 - دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988 م، ط1

- 11.د. عبد الفتاح صالح نافع: الصورة في شعر بشار . ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، 1998م
- 12.د. عبد القادر الرباعي: الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، إربد 1984 .
- 13.د. عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3 . 1982.
- 14.علي البطل: الصورة الفنية في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت، 1983م، ط3.
- 15.قدامة بن جعفر : نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر . 1952م.
- 16.كلود عبيد، جمالية الصورة: في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، 2011
- 17.د . كامل حسن البصير: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، المجمع العلمي العراقي، بغداد 1987،
- 18.محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق وتعليق طه الحاجري و محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956 .
- 19.د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار العودة ، بيروت ، 1973م.
- 20.د. محمد الحسن محمد المصطفى: الشعر العربي الحديث في موريتانيا، دراسة في تطور البناء الفني والدلالي، نشر دائرة الثقافة والإعلام/الشارقة، 2004.

21. د. محمد ولد عبيدي:
- ما بعد المليون شاعر (2000)،
 - السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية (الشعر نموذجاً) (2009).
22. د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، 1983م.
23. نعيم اليافي: الصورة في الأدب العربي الحديث، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب العرب، دمشق، ط1.
24. د. ولد متالي لمرباط: درامية الشعر العربي، مقارنة لنصوص موريتانية حديثة، دائرة الثقافة والإعلام. الشارقة 2013
25. يمنى العيد: في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1985.

مدينة شنقيط حاضرة العلم وحافظة التراث

خديجة بنت لداعه

قسم اللغة العربية وآدابها

تعد مدينة شنقيط رمز المصابرة والصمود، وعنوانا للتضحية وبذل الجهود وآية الاجتهاد في اكتساب المعارف والعلوم، فقد كانت العاصمة الثقافية للبلاد، إذ يؤمها من حولها من أهل القرى وتأوى إليها أفئدة راغبي العلم وقلوب صفوة التجار من مختلف المناطق والآفاق، فكانت بذلك قبلة الطلاب وكعبة العلوم ومسلك التجارة ومنطلق ركب الحجيج ومنتهى قصد استكمال المعارف والدروس، ومحل استصلاح المزارع والغروس، وكنف استبضاع المواد وتبادل الدراهم والفلوس وهو ما هياها لأن تصبح علما على القطر الموريتاني بأكمله فتوفر لها من الشهرة وانتشار السمعة والصيت ما لم يتوفر لنظيراتها من المدن والقرى، فعرفت نوعا من الذيوع والسيرورة بين العالمين فطفق كثير من أبناء هذا الوطن يعتمدون اسم هذه المدينة (شنقيط) ويصدرون عنه في كثير من عناوين مؤلفاتهم الثقافية وفي ندواتهم العلمية، وفي ألقاب جامعاتهم الأهلية وحتى في جهودهم الإعلامية وترويجاتهم التجارية إلى غير ذلك، فما ذا عن هذه المدينة موقعا ومناخا ونشأة وتاريخا ومعرفة وإبداعا؟ وما أبرز جهود أبنائها في احتضان العلم وصيانة التراث؟ ومن هم أبرز أئمتها وأعلامها، وكيف استطاعت هذه المدينة أن تنظم المعارف والعلوم وتشرئب نحوها الأعناق وتمتد إليها العيون في نهج مبارك غير مذمم ولا ملوم؟

أولاً: المدينة، التسمية والنشأة والمناخ

وفي هذا الجانب سنعرض لأمر من بينها مناقشة التسمية وإثر ذلك نعمل على وضع المدينة في سياقها من التاريخ والجغرافيا.

1) المدينة:

التسمية وهيمنة التلفظ:

يحسن بنا في هذا المقام أن نتتبع دلالة كلمة شنقيط بدقة حتى نحدد المقصود منها والذي راج لدى الرعيل الأول من مؤرخي السلف هو أن شنقيط أو شنقيط لفظ مركب وهو يعني عيون الخيل باللغة الأزرية وهناك تأويل آخر ينطلق من مرجعية اللغة ذاتها، لكنه يقول إن الكلمة عندهم تعني عيون الجبل وهو منطلق من فرضية أن الذين وضعوا الكلمة غير الذين شرحوها حتى وفق هذا المذهب من وضع عربي أطلقها من يفترض أنهم فتحوا البلاد ولكن لغة الأزرين بقيت لها السيادة حتى بعد الفتح ودلالة الكلمة فيها إما عيون الجبل أو عيون الخيل.⁽¹⁾ فالتفسير الشعبي يذهب إلى أن تركيب الكلمة هو من كيط بمعنى تل أو روة أو خيل وشن بمعنى عيون ، هذا التوجه أضعفه بعض الباحثين وقلل من قيمته وكلمة شنقيط تكتب مرة بالميم شنقيط ومرة بالكاف الفارسية شنقيط ومرة بالقاف. ويبدو أن السكان المحليين في عامتهم ينطقون شنقيط بالكاف الفارسية وفي كتاباتهم العلمية ومراسلاتهم الرسمية يكتبون شنقيط بالميم.

¹ - الثقافة الشنقيطية (مقارنة نسقية) أطروحة دكتوراه من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرياض المغرب، إعداد الطالب: محمد الأمين بن الناتي، 2007، 2008،

وقد يكون مرد ذلك إلى ما شاع من نطق عامي لكلمة شنقيط قلبا للقاف ذات الأصل العربي أو المعرب قافا حسانية إذ من المحتمل أن الاسم أصلا الشقيط بدل شنقيط وإنما أحدث النون الواقعة بين الشين والقاف بعد ذلك على ألسنة العوام. والمعني بناء على هذا الافتراض الذي يلتمس للكلمة أصولا عربية فصيحة بلاد الشقيط الذي هو ضرب من الأواني الخزرفية المعروفة في العامية الحسانية ب: "لكدور" لانتشار صناعتها في البلاد فلما آنس أبناء المنطقة كثرة هذا النوع من الأواني سمو به المدينة خاصة أن الأواني ظلت الوسيلة الوحيدة للطبخ وتخزين الجواهر النفيسة منذ زمن بعيد⁽¹⁾.

وفي تاج العروس ما يدل على أن الشقيط كان كثير الاستعمال لدى العرب>> فالشقيط كأمرير أهمله الجوهري والصاغانى، وقال ابن الأثير هي الجرار من الخزف يجعل فيها الماء أو الفخار عامة، قاله الفراء.<<⁽²⁾ وقد جاء في حديث ضمضم: رأيت أبا هريرة يشرب من ماء الشقيط⁽³⁾ رواه بعضهم بالسين المهملة وهو تصحيف كما في اللسان.

وفيه أيضا: ما يدل على استعمال شنقيط بالقاف من طرف المشاركة فيما بعد ألف للهجرة، فقد أورد الزبيدي مستدركا على صاحب القاموس: شنقيط بالكسر: >> مدينة من أعمال السوس الأقصى بالمغرب<<⁽⁴⁾، والمعروف أن الزبيدي ولد سنة

¹- شغالي بن أحمد محمود: كتاب التعارف (مخطوط) .

²- تاج العروس بشرح القاموس : الزبيدي . مادة شقط والنهية في غريب الحديث لابن الأثير، الجزء 2، الصفحة 341.

³- تاج العروس بشرح القاموس : الزبيدي . مادة شقط والنهية في غريب الحديث لابن الأثير، الجزء 2، الصفحة 341.

⁴- بحثت عن هذا الحديث ولم أقف عليه.

1145، وتوفي 1205هـ غير أن أحد الباحثين يستبعد أن يكون أصل كلمة شنقيط عربيا محتجا بأن السائد في صياغة أسماء الأماكن في منطقة الغرب الإسلامي إنما هو استخدام أعلام المكان مركبة تركيبيا إضافيا بين اسم يدل على معنى معين وآخر يدل على المكان، ويرى بعض الدارسين الأسبان أن ذلك الأسلوب في التسمية هو الذي أدى إلى أن يطلق العرب اسم (مجريط) التي ستصبح لاحقا مدريد، فهي مركبة أصلا من مجرى الذي هو اسم مكان من جرى الماء إذا سال وإيط التي تعني مكان، فالمعني مكان جري الماء، كما احتج أيضا بأن الرواية الشعبية ستذكر رابية كيط فتتفق مع الرواية المكتوبة للتل أو الرابية التي كان محمد قل قد أقام عليها عريشه، وهو الموقع الذي سينطلق منه تأسيس مدينة شنقيط، ثم إن الرغبة الجامحة في التعريب هي وحدها التي تثبت تحويل الكاف البربرية في المكاتب المحلية إلى جيم رغم المحافظة في النطق على ذلك الكاف.

ويخلص هذا الباحث إلى أن كلمة شنقيط من أصل أزييري بغض النظر عن تركيبها، وقد عربت بالتكليف مع ما رؤى أنه أقرب إلى النطق والخط العربيين مما لا يثير إشكالا صوتيا ولا خطيا.

ومما يشفع لهذا التعريب تزامنه مع التعريب الكاسح الذي عرفته المنطقة إثر مجيء بني حسان ومع البواكر الأولى لنهضة البلاد الثقافية فأصبحت لفظة شنقيط رمزا عربيا إسلاميا وحازت شهرة واسعة وذاع اسمها لدى الصفوة المشرقية مما سوغ إطلاق الاسم دالا على سائر هذه البلاد⁽¹⁾ لذلك انتهى بعضهم إلى أن هذه التسمية في المنطلق "خارجية لكن قبلها أهل البلد عن طيب خاطر"⁽²⁾.

¹ - الثقافة الشنقيطية، ص 64

² - الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، أحمدو بن الحسن، ص: 22.

ثانيا المدينة موقع ومناخ:

تقع مدينة شنفيط وسط الهضبة التي عرفت قديما " بجبل آدرار " بين دائرتي العرض 20 و 21 شمالا وخطي الطول 12 و 13 غربا وعلى ارتفاع 500م عن مستوى سطح البحر وبارتفاع 274 متر عن مدينة أطار، وهي تتوسط ما يعرف بـ " ظهر آدرار " لأن تلا على شكل أخدود يقسم المنطقة من الشرق إلى الغرب فما كان شمالي التل يدعى (الباطن) لأنه الأسفل وما كان جنوبيه يدعى (الظهر) لأنه هو الأعلى⁽¹⁾.

ويحد هضبة آدرار من الشرق عرق وران الذي هو امتداد كثبان تاودن، وحافة الهضبة الغربية مطلة على سهول " أمساكة " وفيها أرض مستوية نسبيا ويتميز شبه المنطقتين (الظهر . والباطن) من حيث الحرارة وطبيعة التربة و(الظهر أفضل تربة والطف جوا)⁽²⁾.

وتتلقى هذه المنطقة نصيبا كبيرا من أشعة الشمس حيث تصلها حموديا مرتين في السنة وقد أدى ذلك إلى خلو السماء من السحب في أغلب الأوقات وإلى ضعف في كثافة الغطاء النباتي وشح في المياه فيما عدى الواحات والأودية وقرب الآكام والرّبي⁽³⁾

ومن المعلوم أن الأمطار في منطقة آدرار تسقط أساسا في فصل الخريف وبكميات قليلة لا تتجاوز 100مم سنويا، والغطاء النباتي هزيل والتربة تتسم بالطابع

¹ - الثقافة الشنفيطية، ص 64.

² - المرجع السابق، ص 65.

³ - سيد محمد بن محمد الأمين: الظاهرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في حياة المرابطين، المدرسة العليا للأساتذة 1983-1984 ص 9.

الصحراوي ولأن الانحدار شديد في بعض الجهات والغطاء الرملي كثيف ومتحرك كانت الأمطار هي الأساس في توفر المياه⁽¹⁾.

ومما يؤثر في تضائل التساقطات المطرية وجود تيار كناريا البارد الذي يمر بالشواطئ الشرقية للأطلسي فتزداد نسبة التصحر، إذ من المعلوم أن المياه الباردة لا تتبخر وإنما تساعد على وجود الضباب على الساحل وسيادة الجفاف في الداخل⁽²⁾.

واستجابة لهذا الواقع المناخي فإن المواقع السكنية عموما توجد على جنبات الأودية والأحواض التي تعتبر مواتية للنشاط البشري على نحو ملحوظ حتى حلا لبعض وصف آدرار بأنه القلب النابض لبلاد شنقيط، إذ به الآن معالم أثرية تدل على تعاقب مجموعات بشرية مثل البافور والصنهاجيين⁽³⁾ وأكثر من ذلك شكل آدرار منطقة تلاق بين سكان البلاد الشماليين والجنوبيين لملاءمته النشاط الرعوي، حيث الارتفاع النسبي عن مستوى سطح البحر، فكان منطقة جذب لمنسي الإبل الفارين في بعض الفصول من المناطق المنخفضة التي يكثر بها البعوض ومختلف الحشرات، وقد كان تميز الإنتاج الزراعي القائم على غراسة النخيل منذ القديم عامل جذب للسكان في فصل الصيف حين تنضج التمور، وبما أن آدرار تحيط به باقي أقسام البلاد من جهاته الأربعة فإن الموقع لعب دورا رئيسيا وهو ما أهله للانفتاح على الخارج وجعل منه ممر وملتقى كل القوافل، فمكن ذلك من تدعيم الدور البارز الذي لعبه تجاريا وثقافيا في عهد ما بعد تدهور أوداغست وكمبي

¹ - محمد ولد الشيخ ولد عبد القادر: المشكلات الأساسية لواحات آدرار الموريتانية، ص 6.

² . المرجع السابق والصفحة.

³ . محمد ولد الشيخ ولد عبد القادر: المشكلات الأساسية لواحات آدرار الموريتانية، ص 67.

صالح ، ذلك التدهور الذي يتبعه تحول في طريق القوافل من الشرق نحو الغرب فأصبحت تمر بمدن آدرار (شنقيط وودان في اتجاه تشيت وولاتة)⁽¹⁾.

ثالثا المدينة نشأة وتاريخا:

يبدو أن الظروف المناخية المذكورة سابقة كانت مواتية للوجود البشري منذ آلاف السنين فقد أكدت الأبحاث الأركيولوجية أن أجناسا بشرية كانت تقيم بهذه المنطقة، فقد اكتشفت دلائل على تطون بشري في منطقة " الظهر " " والسن " وتيشت" ذات الطبيعة الصحراوية في الوقت الراهن مما يؤكد وجود وسط بئوي في العصور السحيقة مغايرا لحالته اليوم⁽²⁾

وعرفت هذه المنطقة سلاطات بشرية عديدة تشمل السوانك وبافور والبربر الذين من حيث المعتقد أقرب إلى الفطرة حتى كان الفتح الإسلامي وفي سياقه تأسست مدينة شنقيط القديمة في أواسط القرن الثاني من الهجرة النبوية المباركة وذلك سنة 160هـ على مسافة ثلاث كلمتر شرقي موقعها الحالي وكانت تسمى آبير ولا يستبعد أن يكون تصغيرا لكلمة بئر مع السابقة البربرية القائمة مقام أداة التعريف (آ) ذلك أن التقاليد المروية أجمعت على أنها هي أقدم ما بني من الحواضر في هذه البلاد وليست الآثار المكتوبة محليا بمختلفة حول ذلك عن المرويات ويضطرر وصف المدينة في العرف المحلي بأنها شنقيط الأولي وقد بات من المؤكد أن بين آبير وشنقيط ترابطا وثيقا في الامتداد البشري وفي العلاقة بين أحداثها التاريخية وفي التواصل المكاني.

¹ . المرجع السابق، ص 68.

² - سيلفي وآخرون: الاستيطان القديم والبيئة في الجنوب الشرقي في مدينة تجكجة (أريجيت)

مجلة الوسيط العدد 2 1988 ص90

ومن ثم جاءت شنقيط تجاوزا لآبِير وبديلا عنها وتلقفت تراثها ولكنها ضمنت لها الإستمرار ومنحت لها الإسم فأصبحتا شنقيط الأولى وشنقيط الثانية. ويذكر أن أول ما بني في هذه البلاد هو آبِير إذ بنيت عام " قص " بحساب الحمل على طريقهم في تسجيل الأحداث أي عام 160 هـ وهو شنقيط الأولى التي خرجت منها قبائل البيضان كلها.

قال أحد الشعراء

شنقيط الأولى قد بُني في عام قَصْ والثاني في عام ضَحْ قد ينتقص⁽¹⁾

ويرى بعض المؤرخين أن شنقيط الأولى أسست على التقوى من أول يوم ، فلم تجيء حملة عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيد بن عقبة بن نافع هذه البلاد في طريقه إلى غانا وكمبي صالح سنة 127 هـ إلا والإسلام قد اكتمل بعد ميلاده بها اكتمالا وإن كان قد بدأ بمستوى الاعتقاد واستمر فاترا إلى عهد المرابطين.⁽²⁾ أما شنقيط الحالية فقد أسست بعد الأولى بخمسائة سنة بالضبط وتقول الرواية الشفوية أن مؤسسها رجال ثلاثة يسمى أحدهم محمد قلى (جد قبيلة الأقال) وكان يتعبد في ذلك المكان حيث اتصل به رجل من أهل آبِير اسمه يحيى (وهو جد قبيلة إدوعل) ثم ثالث اسمه أعر (جد قبيلة أمكاريج) فقد اتفق الثلاثة بعد لقائهم على الإقامة في هذه الضاحية للتعبد والتعلم وتنظيم شؤون الحياة وذلك سنة 660 هـ . 1262 م.

1. مذهب المقاصد: أحمد بن حَبَّات ، وفي قوله " قص " إشارة إلى تاريخ تأسيس آبِير عام

160 هـ وفي قوله " ضح " إشارة إلى تاريخ تأسيس مدينة شنقيط عام 660 هـ

2. عباس الحراري، ثقافة الصحراء، ص 8.

ومما يلفت النظر هنا التشابه الشديد بين قصة بناء شنقيط وقصة إنشاء دولة المرابطين إذ انتبذ عبد الله بن ياسين مكانا منعزلا أقام فيه رباطه المشهور للتعبد والتعلم ثم ما لبث أن أصبح مهذا لأول دولة موريتانية فكذا كان مقام محمد قلي ورفيقه على تل " قيط" وأنشأوا مدينة مالبثت أن صارت علما على البلاد بأكملها⁽¹⁾.

وقد تشكلت الذاكرة الجماعية لسكان شنقيط مؤكدة يمنها مصرحة أنها مؤسسة على أمور منها فرادة مدينتهم بما حباها الله به من بركة ونماء لأنها طمقت تنمو بمعدل سنوي غريب على حساب مدينة آبير فلم تزل عمارة شنقيط تروى وعمارة آبير تضمحل إلى أن صار كأمس الدابر ولم يبق به داع ولا مجيب وابتداء عمارة شنقيط إلى زوال عمارة آبير أربعون سنة⁽²⁾.

وأخذت المدينة تزدهر علميا وثقافيا فتعدد بساحاتها المآذن وتنوع المكتبات والمحاضر فقد تحدث ابن الأمين في وسيطه عن مساجد المدينة قائلا: وكان في شنقيط أحد عشر مسجدا بالمسجد العتيق العامر اليوم وله اليوم نيف وأربعمئة سنة⁽³⁾.

رابعاً المدينة: التربية والثقافة والعلوم

وسنتناول خلال هذا المحور ثلاث مستويات تشمل المناهج والمقررات والمؤلفين والمؤلفات والمساجد والمكتبات:

¹. مجلة الشعاع ، العدد 1، 1983، مقال بقلم سيد أحمد بن الدي تحت عنوان مدينة شنقيط والماضي، ص 70.

² . سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم :صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قلي (مخطوط).

³ . الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، ص 426.

١ . المناهج والمقررات

إن المقررات في مدينة شنقيط وما جاورها لتسعى إلى تكوين الطفل تكويناً ثقافياً شاملاً فغالبا ما يبدعون بتدبر القرآن وفي علومه يدرسون الشاطبية لأبي القاسم الشاطبي في القراءات السبع والدرر اللوامع على مقرئ الإمام نافع لابن بري ورسالة الشوشاوي في القراءات وفي الحديث وعلومه يدرسون موطأ الإمام مالك والصحاح الستة (البخاري، مسلم، ابن ماجه، الترمذي وأبا داود والنسائي) وفي العقيدة يدرسون مقدمة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ومقدمة رسالة ابن أبي زيد وإضاءة الدجنة لأحمد المقرئ.

أما في الفقه فيدرسون فيه رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر الشيخ خليل بشرح الخطاب وحاشية الدسوقي على الدريري ويبدأون في العادة بمختصر الأخضري وابن عاشر لتكون شروح مختصر خليل هي وتحفة الحكام لابن عاصم خطوة بعد ذلك في التعمق.

وفي النحو يدرسون مختصر أجروم وملحة الإعراب وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل ومؤلفات ابن هشام وفي الصرف لامية الأفعال إلى جانب قسم الصرف من ألفية ابن مالك وفي الأدب يدرسون دواوين الشعراء الستة الجاهليين والمعلقات السبع ولامية العرب للشنفرى وقصيدة بانث سعاد لكعب بن زهير.

وفي اللغة يدرسون مقصورة ابن دريد والمقصود والممدود لابن مالك والشمقمقية وشروح عندهم دواوين أخرى منها شعر الهذليين وديوان المتنبي وابن زيدون ونحوها كما يعتنون بالسيرة النبوية الشريفة وأنساب العرب عناية خاصة ولهم اهتمام بالمنطق فيدرسون سلم الأخضري وفي البلاغة والمعاني يتداولون ألفية السيوطي ولهم عناية بالعروض والفلك والحساب العددي والرياضيات. هذا هو التعليم في مدينة شنقيط بطرقه ومناهجه على نحو موجز، ولعله المسؤول من ضمن أمور

أخرى عن شهرة المدينة التي دوت في الآفاق منذ القرن التاسع الهجري بفعل العلماء وركب الحج السنوي وهو ما سوغ إطلاق اسمها على سائر الأقاليم⁽¹⁾.

2. المؤلفون والمؤلفات: سنعرض لهما في مستويين أولهما نخصصه للمؤلفات وثانيهما نفرد للمؤلفين

1- المؤلفات:

لعل أول مؤلف تتفق الروايات الشفوية على تسطيره بساحة مدينة شنقيط هو:

- ✓ نوازل الطالب محمد بن المختار بن الأعمشي العلوي (ت 1107هـ)
- وكانت نوازله مرجعا أساسيا ينقل عنه كل من يؤلف في النوازل.
- ✓ مفيد العباد سواء العاكف فيه والباد لأحمد بن البشير القلاوي (ت 1277هـ).

- ✓ موارد النجاح لأحمد بن البشير.
- ✓ اتفاق الأئمة في الفقه على المذاهب الأربعة لسيدي محمد بن حبت القلاوي (ت 1288).
- ✓ المباشر عن ابن عاشر لعبد الله بن الحاج حمي الله القلاوي (ت 1209).
- ✓ نظم الأخضرى وشرحه: عبد الله بن حمي الله القلاوي، (ت 1209).
- ✓ كتاب في الفقه : للشيخ بن حبت القلاوي المتوفي (1299هـ).
- ✓ كاشف الأستار عن زكاة الثمار لأحمد بن حبت القلاوي (ت 1299).
- ✓ نقله في حكم معادن الأرض وملكيته: للمؤلف السابق.
- ✓ في زكاة الحبس : لأحمد بن حبت القلاوي (ت 1299هـ).

¹. محمد المنتصر الكتاني : فاس عاصمة الإدارة ص 118 ط 2 بيروت 1972، راجع كذلك الشعر والشعراء للدكتور محمد المختار بن أباه، ص 33.

- ✓ شمس الإتفاق على من استعاذ من النفاق: لسيدى محمد بن أحمد بن حبت (ت: 1301).
- ✓ التماس مخرج شرعي لبعض المعاملات الواقعة على خلاف المذهب المالكي لسيدى محمد بن حبت.
- ✓ مهدية الحيارى إلى حكم من غلب وطنه النصاري لسيدى محمد بن أحمد بن حبت (ت: 1301).
- ✓ نازلة من أساءت عليه زوجته وقال لها أمرك بيدك : مجموعة من علماء شنقيط.
- ✓ نقلة في توضيح ألغاز ابن الأعمش إلى أهل أطار لسيدى محمد بن أحمد بن حبت .
- ✓ نظم وشرحه في حكم الملح: المؤلف السابق.
- ✓ رسالة تتعلق بالإمامة.....
- ✓ أجوبة فقهية (لم يكتمل تأليفه.... لنفس المؤلف).
- ✓ فتوى فقهية في شأن ما وقع بين أهل شنقيط
- ✓ فتاوى سيدى محمد بن حبت.
- ✓ كشف الإلباس عن زكاة الثمار والأحباس: المؤلف السابق.
- ✓ في حكم الحيض: لسيدى احمد بن إبراهيم الملقب الشيخ بن حامني القلاوي (ت: 1318).
- ✓ نوازل للبشير بن البخاري بن أحمد محمود (ت 1335).
- ✓ حكم الزوجة ذات الشروط للبشير بن البخاري بن أحمد محمود القلاوي (ت 1335).

- ✓ الحاوي والجامع للعلم النافع والواقع، لمحمد بن البشير بن البخاري بن أحمد محمود (ت1373).
 - ✓ كشف القناع في من صام أو أفطر بالمذياع : للمؤلف أحمد بن عبد العزيز بن حامني القلاوي المتوفي : 1990م.
 - ✓ رايات النصر السطع على المرهفات القطع : للمؤلف محمد بن عبد الله بن فال، ت:1977م.
 - ✓ نصيحة الأخوات المؤمنات عن التشبه بالملعنات للمؤلف السابق.
- مؤلفات القراءات والتفسير:
- أما مؤلفاتهم في تفسير القرآن وقراءاته فهي:
- سراج المفسرين للطالب محمد أحمد بن الوافي القلاوي (ت: 1110)
 - نظم في القراءات السبع: لعبد الرحمن الإمام القلاوي (ت 1299) .
 - شرح نظم القراءات لعبد الرحمن بن الإمام لأحمد بن حبت القلاوي (ت1299).
 - نقله في الجيم لسيدى أحمد بن إبراهيم الملقب الشيخ بن حامني، ت 1318هـ.
 - نقلة حول تسهيل الهمزة: للشيخ بن حامني:
 - ملاحن القراء للشيخ أيضا.
 - الياقوت والمرجان لمحمد البشير بن البخاري بن أحمد محمود.
 - تعليق على نظم الجكني في الألفات المحذوفة للشيخ بن سيدي بن حبت .
 - خلاصة على شواهد البيضاوي: سيدي محمد بن حبت القلاوي (ت1288).

مؤلفاتهم في العقيدة :

. شرح إضاءة الدجنة في عقيدة أهل السنة للمقري : شرحها محمد بن المختار بن الأعمش العلوي (ت 1107).

. أجوبة في الإيمان: لسيدى أحمد بن إبراهيم الملقب الشيخ حامني القلاوي (ت 1318).

. ربا اللبني على أسماء الله الحسني: لسيدى محمد بن أحمد بن محمد بن حبت.

. خواص أسماء الله الحسنى : للمؤلف السابق.

. نظم أسماء الله الحسنى لمحمد بن عاشور العلوي (لم نتمكن من ضبط وفاته).

ما ألف في السيرة النبوية:

➤ شرح نظم التجاني بن بابہ العلوي : لأحمد بن حبت ت: 1299.

➤ الآثار النبوية والشمائل المصطفوية في السيرة النبوية لسيد محمد بن أحمد

بن حبت (ت 1952م).

التأليف في النحو:

يعد النحو أحد العلوم الرئيسية في الثقافة الشنقيطية إن لم يكن هو أهم العلوم التي سموها علوم الآلة، ومن أهم ما اعتنى به أهل شنقيط عناية فائقة درسا وتأليفا. ومن أهم مؤلفاتهم النحوية ما يأتي:

➤ المنن العديدة في شرح الفريدة لجلال الدين السيوطي والشارح هو محمد بن

المختار بن الأعمش العلوي (ت 1107هـ).

➤ المواهب اللدنية على شروح الألفية سيد محمد بن حبت القلاوي (ت

1288) وهو في ثمانية أجزاء.

➤ اختصار المواهب اللدنية من تأليف الشيخ بن حبت نجل مؤلف المواهب

(ت 1299).

- التأليف في البلاغة والعروض:
- مؤلف مذكور للطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي (ت 1106هـ).
- مؤلف في البيان يذكر لمحمد بن أحمد محمود (ت 1345هـ).
- أما في العروض والقوافي فمن مؤلفاتهم:
- الكافي في المهم من العروض والقوافي تأليف سيد محمد بن حبت القلاوي، ت 1288 وهو منظومة شرحها الناظم نفسه وحققها اسلم بن بيه.
- تبين الظاهر والخافي على نظم الكافي في علمي العروض والقوافي للمؤلف السابق.
- شرعة نهوض الجافي على النظم الكافي في علمي العروض والقوافي لحفيد المؤلف السابق.
- كشف الغموض عن فن القوافي والعروض للمرحوم احمد بن عبد العزيز بن حامني 1990.
- هذا بالإضافة إلى مؤلفات أخرى عديدة في الصرف وعلوم اللغة والفلك والمنطق والحساب والتاريخ والأنساب والتصوف وبعض المنوعات الأخرى.
- III- المؤلفون:

وعرفت شنقيط علماء أجلاء، ففي أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر وصل شنقيط أحمد الذهبي قادما من تلمسان وهو شريف من سلالة عبد الله التلمساني الذي ذكر الرهوني وكنون أنه من أشياخ ابن عاصم ومر في طريقه إلى شنقيط بمراكش حيث لقي السلطان مولاي إسماعيل ثم أقام بشنقيط فترة يعلم الناس الفقه،

وكان أول من درس بها مختصر خليل وترك بها ولدين وعاد إلى مراكش. وتنتشر سلالته اليوم في موريتانيا. ⁽¹⁾

ووصل شنقيط في القرن الحادي عشر شاب شريف ذكره صاحب الوسيط باسم الشاب الشاطر وبه يعرف في شنقيط المدينة والقطر يقول ابن الأمين " هو من العجائب" وساق طرفا من قصته وما ظهر عليه من خوارق العادات وقال إن أهل شنقيط وجوده بحرا لا ساحل له فانتخب أربعة منهم يعلمهم ولما أراد السفر قال لهم تركت فيكم المحمدين والعبدلين وابن المختار وهو "ال نختار " يعني به الطالب محمد بن الأعمش وهو أحد المحمدين أما العبدلان فلم يعين صاحب الوسيط منهما إلا القاضي عبد الله بن الطالب محمد قائد هجرة العلويين من شنقيط إلى بلاد القبلة ⁽²⁾.

ويقول صاحب الوسيط إن هذا الشاب حين أراد الذهاب أخذ معه طلابه وأوصلوه المحيط الأطلسي فوضع مصلاه الجلدي (إيلويش) على ثبج الموج وتواري عن صاحبه تتعاطاه الأمواج على جهة قصده وبعد حين وجدوا مكتوبا في الأمتعة التي كانت فوق الجمل الذي كان يحمله وضمنه أبياتا تنوه بأهل شنقيط وتبرز منزلتهم في العلم والعمل والعبادة والتقوى والأبيات هي ⁽³⁾:

رأيت رجالا لم أجد قط مثلهم	بشنقيط سكناهم من أقصى المغرب
كراما عظاما خاشعين لربهم	تحفهم الأنوار من كل جانب
عليهم سلام الله ما دام مجدهم	ما دامت الأفلاك بين الكواكب

¹ . بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 73.

² . المرجع السابق والصفحة.

³ . الثقافة الشنقيطية، مرجع سابق، ص 236.

وبعد هذا الجيل الأول ظهرت نخب من العلماء كثيرة نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

. الحاج محمد بن أبي هريرة بن المختار بن سيدي أحمد الشرعي بن أبي بكر بن علي القلاوي كان حيا عام ثلاث وسبعين وألف للهجرة (1073هـ 1663م).

. الفقيه محمد بن أبي بكر بن الهاشمي القلاوي، الآخذ عن ابن الأعمش، ذو الأجوبة في أحكام مستغرقى الذمم، (توفي 1098هـ 1687م) .

. عبد الله بن محمد الحبيب العلوي الشهير بقاضي لبراكنه، الفقيه الآخذ عن الأجهوري في مصر وعن سيد أحمد بن القاسم الحاجي الواداني أخذ عنه ابن الأعمش، توفي 1103هـ 1692م.

. الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي صاحب المؤلفات العديدة والنوازل الشهيرة ت، 1107هـ 1696م.

. الطالب محمد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الوافي القلاوي، كان قد تولى القضاء بشنقيط أربعين عاما، توفي 1110هـ 1698م.

. عبد الله بن أبي بكر بن علي بن الشيخ المحجوبي، العلامة الفقيه النحوي المحدث المؤلف، جمع بين القضاء والإمامة، أخذ عن محمد بن أبي بكر بن الهاشم القلاوي، وأجازه ابن الأعمش توفي 1122هـ 1710م .

. الحاج سيدي أحمد بن علي بن الولي سيد الطالب الوافي القلاوي المتوفى 1125هـ 1713م .

. سيد عبد الله بن محم بن الفقيه القاضي العلوي العلامة الشاعر المعروف بابن رازكه المتوفى سنة 1144هـ ، 1732م .

. احمد المختار بن الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي المتوفى 1155هـ.

- . أحمد بن الخليفة بن أحمد بن الحاج العلوي فقيه محدث نحوي قارئ بالسبع مكث نحو خمسين سنة يدرس العلم في شنجيط، توفي 1188هـ 1774م.
- . محمد بن أحمد بن عبد الرحمن القلاوي الموسوي، فقيه نحوي لم يتمكن من ضبط وفاته.
- . أحمد بن الحاج حمى الله القلاوي، فقيه نحوي لغوي، له يد طويلة في شتى المعارف توفي 1193هـ 1779م .
- . الحنشي بن الإمام سماكم القلاوي المتوفى 1195هـ 1781م
- . سيدي مالك بن الحاج المختار بن الحاج محمد بن عبد الرحمن بن الحاج المصطفى القلاوي كان عالم شنجيط يضربون به المثل في الضبط والتحقيق توفي، 1201هـ 1787م.
- . سيدي المختار بن الطالب سيدي أحمد بن محمد بن أحمد الحاج المصطفى القلاوي قرأ العربية على شيخه أحمد بن الحاج حمى الله في شنجيط توفي 1205هـ، 1791م.
- . عبد الله بن أحمد بن الحاج حمى الله القلاوي الأحمدي علامة مؤلف في شتى العلوم، توفي 1209هـ 1795م.
- . عبد الله بن الفقيه الطالب أحمد بن الحاج المصطفى القلاوي الأحمدي الشنجيطي أصولي قارئ فقيه، شاعر مجيد، فائق في علوم العربية، كثير المؤلفات في شتى العلوم، توفي 1209هـ 1795م.
- بويه بن أحمد مولود اليونسي ، كان من حذاق العلماء بولاته أخذ عن الطالب جدو بن الشيخ في شنجيط، توفي عشر الثلاثين والمائتين والألف الهجرية.
- . الطالب جدو بن الشيخ العلوي، الفقيه لم يتمكن من ضبط وفاته.

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحاج حمى الله القلاوي الاحمدي المتوفى
1278هـ؛ 1862م.

خامسا المساجد والمكتبات:

للمسلمين تعلق خاص بالمساجد والكتب لذلك اتفق المؤسسون الأول لمدينة شنقيط
على البدء بتأسيس المسجد والاهتمام بشأن الكتب والمكتبات وذلك ما سنعرض له
في ما يأتي:

1. المساجد:

من المعلوم أن الفقيه محمد قلي قد اضطلع أيام تأسيس المدينة بالأمور الدينية
كالإمامة والقضاء في دار قرب المسجد ولا تزال تلك الدار قائمة وإن آلت إلى
أمالك المسجد نفسه.

أما المسجد العتيق بمدينة شنقيط فلا يعرف على وجه التحديد متى بني إلا أنه من
المؤكد أنه بني في وقت مبكر من استقرار القوم في حاضرتهم الجديدة فارتفع
الأذان وأقيمت الصلاة وترتل القرآن ومنذ تلك اللحظة اتخذ القوم منها صارما
لإدارة المسجد وتسيير شؤونه.

ويقع المسجد الحالي وسط المدينة التي تبدو شبه أطلال وأرضه وقف تبرع به أحد
المحسنين من أبناء المدينة ويعتمد المسجد على 32 سارية يستعين بها المصلون
للاستراحة أثناء قراءة الحزب أو الاستماع للحديث، وسقفه من العبدان وله ميزاب
وفي وسطه مصرف يجمع الماء ويمنعه من التفرق، وتتم إنارته بواسطة نبراس أو
ذبال يغرس في الحائط ويتم تطيبه بأعواد الند وفيه مكان مخصص للنساء ويتوفر
المسجد على محراب داخلي وقد تم تحديد بناء المسجد سنة 1378هـ وأعيد ترميمه
وصيانتته من جديد سنة 1429 وله مئذنة نادرة الشكل قد بنيت على قاعدة صلبة

وترتفع المئذنة عشر أمتار وبداخلها سلم من الحجارة أما أئمتة فقد بلغ عددهم (32) إماماً) أولهم محمد قلي وآخرهم يسلم بن البح. ويقوم المسجد في مدينة شنقيط بجهد تنقيفي رائد، فتتم فيه قراءة الحزب وإحياء المولد النبوي بالأمداح النبوية خاصة ديوان الوسائل لابن مهيب وهمزية البوصيري وميميته كما يتم إحياء شهر رمضان بقراءة صحيح البخاري وكتاب الشفاء للقاضي عياض وصلاة التراويح بالليل وصلاة الجمعة في كل أسبوع كما تتم سقاية المصلين تعد قَرَب لهذا الغرض وللمسجد عامل خاص يقوم بخدمة المصلين، ويدفع له راتب خاص وتجمع له بعض الصدقات والإعانات من المصلين ومن المحسنين ومن أبرز المساجد في هذه المدينة.

✓ المسجد العتيق

✓ مسجد محمد عبد الرحمن بن أحمد خليفة إمامه بلاه بن الطالب .

✓ مسجد أهل أمبيارك إمامه إسلام ولد كنكج.

✓ مسجد أهل محمد صالح إمامه سيد محمد ولد الحضرامي.

✓ مسجد أهل سيدي عالي إمامه محمد الأمين ولد الحضرامي.

✓ مسجد النخيل إمامه محفوظ ولد محمد الحاج

✓ مسجد البئر إمامه محمد سالم ولد زروق.

✓ مسجد آبير إمامه محمد المختار ولد ابن.

وهناك زوايا تقام فيها الصلوات

✓ زاوية الطلبة إمامها إسلام ولد أحمدان

✓ زاوية أهل الشيخ حماه الله في شرقي المدينة إمامها محمد ولد أعلي.

- ✓ زاوية الشيخ حماد الله في حي أنتكمكت إمامها محمد ولد آدب
وكانت هذه المساجد معززة بعدد من المحاضر الأهلية نذكر من بينها:
- محطرة يسلم بن البح
 - محطرة مولاي أحمد ولد مولاي
 - محطرة عبد الله ولد أحمد خليفة
 - محطرة دادة بنت مولاي البشير
 - محطرة خديجة بنت الحضرامي
 - محطرة بنات أحمد ولد البح
 - محطرة أهل بدي ولد المنير
 - محطرة فاطمة بنت سيدي بلقاسم
 - محطرة أم كلثوم بنت الطلبة
 - محطرة بن بنت خواه
 - محطرة دد بن منكاش
 - محطرة محمد ولد محمد صالح
 - محطرة لاله بنت مولاي البخاري
 - محطرة الحرش بنت أجديد
 - محطرة زينب بنت مولاي البخاري.
 - محطرة تابعة لجمعية المستقبل يدرس بها محمد بن الغاظ.

2. المكتبات:

لقد عرفت مدينة شنقيط بكثرة مكتباتها، فكانت قبلة الباحثين فبساحتها مكتبات عديدة منها مكتبة أهل حبت وهي أغناها ومكتبة الشرفاء ومكتبات أخرى غاية في الجودة والإتقان وتنوع المصادر وتعدد المخطوطات النادرة لذلك لا غنى للباحثين عن التوجه إلى هذه المدينة التاريخية الحافلة بالكتب والمكتبات.

ومن أهم هذه المكتبات ما يأتي:

✓ مكتبة أهل حبت وهي من أثرى المكتبات

✓ مكتبة أهل عبد الحميد

✓ مكتبة أهل أحمد محمود

✓ مكتبة أهل لداعه

✓ مكتبة أهل أحمد شريف

✓ مكتبة أهل الشيخ ولد حامن

✓ مكتبة أهل محمد الولي

✓ مكتبة أهل الخرشي

✓ مكتبة أهل البشير

✓ مكتبة أهل السبت

✓ مكتبة محمد المختار ولد الديد

✓ مكتبة عبد الرحيم ولد الحنشي

✓ مكتبة محمد عبد الرحيم ولد الطلبة

✓ مكتبة أب ولد أحمد محمود

✓ مكتبة محمد عبد الرحمن ولد أحمد خليفة

✓ مكتبة أهل محمد المختار ولد بد

✓ مكتبة أهل بهي

✓ مكتبة محمد المصطفى ولد الحضرامي

✓ مكتبة أحمد بن ونان

سادسا المدينة: التقاليد والآداب والفنون

وفي هذا الجانب نتعرض لثلاث مستويات من الأنشطة الثقافية لهذه المدينة تشمل ما يأتي:

1. التقاليد والعادات

لأبناء هذه المدينة تقاليدهم الخاصة، ففي الأعياد مثلا يخرجون للصلاة ضحي ويحضر الكل من الرجال والنساء والصغار والكبار حتى ليبدو محفلا بهيجا، وهي تؤدي خارج المسجد والأحياء في براح محاذ للأحياء السكنية وبعد ذلك يتسامح الناس ويأخذون ذبح الأضاحي أما الواجبات الاجتماعية فمنها استحباب أن يقتاد الرجل أضحاه لأصهاره، فيرسل الرجل إلى أهل زوجته ، كما يرسل الأهل إلى بعولة بناتهم كما ينبغي إرسال ملابس جديدة إلى الأصهار من المستحب أن تكون الأنشطة الإنتاجية شبه متوقفة خصوصا الأسفار، فالرجال المتزوجون يلزمون بالحضور في الأعياد كما يعظمون ليلة عاشوراء ويسمون لها ليلة " توسع " لأنهم يوسعون فيها على العيال والأهالي، وكذلك ليلة منتصف من شعبان وفي الجمعات يكثر من التعبد ففي الصباح يقبلون على الهيلة والاستغفار وتلاوة القرآن.

ومن العادات المعمول بها عندهم أن الصبي منهم لما يختم القرآن الكريم يحتفون به احتفاء يخول تلاميذ الكتاب أن يطوفوا بالأحياء طوافا يحصلون خلاله على بعض

الهبات والهدايا تكريما للعلم ولطلابه وربما قدمت لهم اختبارات بين يدي تلك الهبات وربما حرم الطالب إذا لم يتمكن من الإجابة. وتتحدى النساء بصنوف من الحلي متعددة الأشكال والمواد فمنها ما يجمل به الشعر وهو أساسا صفائر وتراصيع متنوعة ويضفر شعر الرأس مقسما نصفين هما الذؤابة والغدائر وفي الأذان تجعل الأقراط المصوغة من الذهب وكانوا يتخذون السواك من أراك وأثل ومن جريد الأشاء وتبدو نظرتهم إلى الجمال غير بعيدة عن نظرة العرب الأول في العهد الجاهلي فيفضلون بياض البشرة وسواد الشعور واسترسالها وامتداد القامة وإشراق المحيا ولمي الشفاه وتفلجها وبهم ميل كذلك إلى الضخامة في الجسوم فعدلوا عن رشاقة القدود إلى حب البيضة البهكنة، وفي هذا السياق راجت لديهم ظاهرة التسمين وهي المعروفة عندهم بـ "التبلاخ".

وفي جانب الأخلاق كانوا يمتدحون النساء بالخفر والاحتشام وغض الطرق وفتور الجفون وملازمة البيوت.

وقد ألفوا من الأغذية وجبتين أساسيتين هما العشاء والغداء ويتنوعون في صناعة الأطعمة والوجبات تنوعا كبيرا أما الشراب فأغلبه حليب أو رائب أو أقط وقد يحلى الرائب والأقط بالسكر لتخفيف حموضتهما وينقعون الصمغ العربي والتمر الهندي للشراب والدواء.

ولعل من أكثر المشروبات صلة بوجدانهم وأقواها نظرة بالتمتع هو الشاي فقد داخل حياتهم أيما مداخلة وانعكست ممارسات السلوك المتعلقة بشربه على أنشطتهم حتى ارتبط عندهم بأدبيات مخصوصة، وكانوا يحرصون على اقتنائه بأي ثمن فأوان خلو الوفاض والانفاض يقدمون شراءه على اقتناء بلع الزاد، إذ لا بد منه في الصباح بديئا أو مسبوqa بحساء أو لبن أو مذيق كما يفضل أن يكون عقبة لكل طعام، وشاي الصباح يسمونه "أتاي" وفي الأصيل يسمونه "الذهبي" وقد ألف فيه

سيد محمد بن حبت كتابا سماه مفرج الفتى في شرب الأتاي وهو نظم يتناول الشاي من حيث الحكم الشرعي والأدوات والشرب وأوقات الشرب والآداب والظروف⁽¹⁾

2. الآداب والأشعار

ولقد عرفت الحركة الأدبية بهذه المدينة رواجاً كبيراً وبرزت بساحاتها شعراء كثر من بينهم على سبيل المثال سيد عبد الله بن رازكه الذي يعد أبرز رواد الشعر الفصيح في البلاد الموريتانية كما نجد الشاعر أحمد بن عبد العزيز.⁽²⁾

شنقيط ته وافتخر بالعظم والأدب مذ كنت أم القرى نطرننا العري
قطرسما فسمما رفع العلوم به فدنت له أعين من أعين الشهب⁽³⁾

ويقول فيها شغالي بن أحمد محمود⁽⁴⁾
أنت يا شنقيط حقا
كل حمد فوق هذه الأر
كان قبل اليوم طيا
جيك الماضي تولى
يشهد التاريخ فجر
ض من ثديك در
فيك وهو اليوم نشر
يوم ولي وهو بر

1. مفرج الفتى في كل ذكر في شرب الأتاي: سيد محمد بن حبت (مخطوط).

2. شاعر مجيد مارس التدريس له ديوان شعري (ت 1990).

3. الثقافة الشنقيطية، مقارنة نسقية، ص 352.

4. إبراهيم بن محمد محمود الملقب (شغالي) تلقى تكوينه الأول بالمحاضرة ثم التحق بسلك التعليم كان متمكنا من العربية واسع الإطلاع على الآداب ذا ملكة شعرية رفيعة له ديوان شعري (ت 1993).

ويقول محمد الحنشي بن محمد صالح⁽¹⁾

أشـنـجـيـطـنـا يـا بـلـاد الصـراح وأم الرـجـال ومهـد الكفـاح
تـواري الظـلام وجـاء الصـباح فبـشـرى النـجـاح وكـل النـجـاح

ونختم هذه النماذج بأبيات لمحمد عبد الله بن محمد المختار بن محمد يحيى الولاتي
ينوه ضمنها بشنقيط ويذكر منازل أهله بالحوض يقول: ⁽²⁾

بشـنـجـيـط من زهر المنى روض سقاه ولي البشر نرجه غـض
به التـقـطـت ما تشـتـهيه يد الصـبا وما غـب عن أرجائها الطرب المحض
فيه ظباء كالغـصـون تمايسـا وأعينها نجل بأجائها خـفـض
وفتيان صدق لا يمل صداقهم لهم في مجال الشعر مـذ زمن خوض
ولكن منى نفس المقيم والذي يروم أخو العلياء في دهره الحوض
وما زال قلبي حافظا لعهوده بشـنـجـيـط فما مر قـط ولا عـوض

خاتمة:

وصفوة القول إن لفظ " شنقيط " في الأصل علم على مدينة بالشمال الموريتاني غير
أنه شاع واتسع حتى صار عنوانا على البلد كله والقطر أجمعه فصارت بذلك
تحمل بعدا حضاريا وعمقا تاريخيا فهذا اللفظ مشحون بلهب الفتح والجهاد، مشبع
بدفء المعرفة والعلوم، فهي مركز من مراكز الإشعاع العلمي لحمت فيه الثقافة
العربية الإسلامية شتات الأعراق والأجناس فتعانقت بساحتها الحضرات والمحاضرات

¹. الثقافة الشنقيطية، ص 353.

². مخطوط بحوزتنا

والجامعات الأهلية والجوامع والصالحا بينهما صلحا فاتخذ القوم من هذا اللفظ شعارا وتجلى ذلك على أديم جملة من المؤلفات من أهمها : "كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، و"بلاد شنقيط المنارة والرباط"، و"نشأة الشعر الفصيح في بلاد شنقيط"، و"أدب الرحلة في بلاد شنقيط"، ناهيك عن حضورها المكثف على مستوى المدارس والجامعات والمراكز التجارية والقنوات الإعلامية والمؤسسات الثقافية والبحوث العلمية.

سلاح المقاومة الثقافية الموريتانية في القرن 13 هـ ، 19 م الشعر الفصيح نموذجاً

الشيخ ولد احمدو
قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمة:

طرح في الفترة الأخيرة وبإلحاح موضوع المقاومة الوطنية ضد المستعمر الفرنسي، واختلف الناس حول أهميتها وأصنافها طرائق قديدا. فمن قائل إنه لم تكن هناك مقاومة أصلا وإنما هناك دعاية لهذه الجهة أو تلك أو لهذه القبيلة أو تلك أو لهذا الشخص أو ذاك. ومن زاعم أن المقاومة الموريتانية كانت قوية ومتنوعة وفريدة من نوعها أجبرت المستعمر على الرحيل نهارا جهارا. ورأي آخر يرى أن الفعل المقاوم كان ثقافيا في المقام الأول حفظ للبلاد هويتها ووقف بالمرصاد لمحاولات التغريب والاستلاب الحضاري.

وبالمقابل برز اتجاه آخر لا يرى للمقاومة إلا معنى عسكريا صرفا أجبر الفرنسيين في نهاية المطاف على الرحيل، ولا يرى للفعل الثقافي أية مهمة مقاومة. ولسنا معنيين في هذه العجالة بتمحيص هذه الآراء وترجيح بعضها، بل إننا نرمي إلى استنطاق بعض النصوص الشعرية التي هب أصحابها لمواجهة الاستعمار الثقافي واللغوي الذي كان دائما السمة المميزة للاستعمار الفرنسي وسواء بعد ذلك اعتبرنا تلك النصوص فعلا مقاوما أم لا.

وقبل الشروع في استعراض بعض النصوص المذكورة، نرى من المناسب أن نشير إلى مكانة الشعر في الثقافة الموريتانية. ولا بأس في القول بشيء من الثقة إن الشعر كان أكثر الفنون الأدبية إنتاجاً واستهلاكاً في المجتمع الموريتاني منذ القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي على أقل تقدير. وربما كان ذلك منشأ تسمية موريتانيا الشائعة اليوم في البلاد العربية وهي "بلاد المليون شاعر". ومع ما في هذه التسمية من مبالغة غير خافية، فإن فيها مع ذلك دلالة على مدى ما كان للشعر من مكانة في ثقافة القوم. ومن هذه المكانة تتبع أهمية الشعر كأداة تحسيسية وتعبوية في مجتمع بدوي يمثل فيه الشاعر لسان حال قبيلته ومجتمعه؛ إذ يضحي الشعر أهم أدوات الدعاية والتحريض بل وأهم وسائل الإعلام على الإطلاق.

إن المتتبع للنصوص الشعرية التي كتبت فيما قبل القرن العشرين الميلادي، والتي تعتبر بواكير المقاومة الثقافية في البلاد، ليعجب من نفاذ بصيرة أصحابها وقوة استشعارهم للخطر المقبل حيث حذروا من ما سيؤول إليه حال البلاد والعباد في ظل سيطرة النصارى، وذلك قبل اكتمال هذه السيطرة بقرابة قرن من الزمان!

ويمكن اعتبار ابن الشيخ سيدي¹ (1832م/1247هـ . 1285/1869هـ) أول الشعراء تحذيراً من النيات الحقيقية للمستعمر الفرنسي المتخذ من السنغال قاعدته الأساسية

¹. هو الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي الأبييري دارا التندغي الحلي نجارا، ولد سنة 1247هـ/1832م. تربي في حضرة أبيه الشيخ سيديا الكبير (ت1284هـ/1868م)، والذي كان شخصية دينية وعلمية وسياسية كبيرة. ورغم عمره القصير فقد كان له شأن سياسي تمثل في التحذير من الخطر الاستعماري الداهم، كما كان يدعو إلى تنصيب إمام يبسط سلطته على البلاد ويواجه الأطماع الخارجية المترتبة بها. توفي سنة 1285هـ/1869م. راجع بشأنه: د. أحمد جمال ولد الحسن "الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر. مساهمة في وصف الأساليب، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب 1995م، ص. 138 وما بعدها.

في المنطقة، ومنطلقه نحو استكشاف المجال الموريتاني. وربما كان الشأن السياسي الذي اضطلع به والده الشيخ سيديا الكبير، من أسباب ذلك الحس الديني والوطني الذي نلمسه في قصائده التي حذر فيها من ما يبيته النصارى من مكائد ومؤامرات الهدف منها السيطرة على البلاد وتسخيرها لخدمة أهدافهم الدينية والإستراتيجية والاقتصادية.

وسنقتصر في تناولنا لإنتاج ابن الشيخ سيدي الشعري الفصيح . في هذا المقام . على قصيدة¹ من أشهر قصائده ينذر فيها مجتمعه عواقب التغاضي عن المشاريع الفرنسية لاحتلال البلاد. وتبدأ القصيدة على النحو التالي:

رويدك إنني شبهت دارا

على أمثالها تقف المهاري

تأمل صاح هاتيك الروابي

فذاك التلّ أحسبه "أنارا"

وتان الرملتان هما "ذواتا

عليان" وذا "خط الشقاري"²

وتستمر المقدمة الطللية على هذا النحو مستحوذة على تسعة عشر بيتا من القصيدة البالغ عدد أبياتها سبعة أبيات ومائة، قبل أن تفضي بالشاعر إلى الغرض

. د. محمد المختار ولد اباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس 1987 م ص. 75.

. أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أديباء شنقيط، منشورات مكتبة المنير في نواكشوط ومكتبة الخانجي في القاهرة، 1989 ، ص. 243.

¹. نقلنا المقاطع المستعرضة منها عن خليل النحوي، المنارة والرباط، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1986 ص. 400 . 403.

². "أنار" و"ذواتا عليان" و"خط الشقار"، تعريب أسماء مواضع في ولاية الترارزة.

الرئيس وهو استنهاض الهمم وبث روح الحماس والغيرة لحماية البلاد من الخطر الفرنسي الداهم. وفي هذا السياق بدأ الشاعر بداية قوية حيث عزف على أكثر الأوتار حساسية لدى الموريتانيين ألا وهو دينهم وعقيدتهم، متسائلاً . وتمرارة . عن من بوسعه حماية ذلك الدين الذي يوشك أن يقع أسيراً للفرنسيين النصاري الذين يريدون به الهوان والصغار. يقول:

ولو في المسلمين اليوم حر
يفك الأسر أو يحمي الذمارا
لفكوا دينهم وحموه لما
أراد الكافرون به الصغارا
حماة الدين إن الدين صارا
أسيرا للصوص وللنصارى

وبعد تشخيص الوضعية التي يعيشها الإسلام والمتمثلة في مواجهته لعدوين يتربسان به الدوائر: عدو داخلي هو حالة الفوضى وقوامها السلب والنهب الذي تمارسه بعض المجموعات الحسانية، وعدو خارجي هو الاستعمار الفرنسي النصراني الذي بدأ يطرق باب البلاد بقوة وصلف، يعرض الشاعر وجهة نظره في ما يتعين على المسلمين القيام به دونما تأخير لإنقاذ البلاد والعباد:

فإن بادرتموه تداركوه

وإلا يسبق السيف البدارا
بأن تستصروا مولى نصيرا
لمن والى ومن طلب انتصارا

مجيباً دعوة الداعي¹ مجيراً

من اللأواء كل من استجارا

ولا يكتفي الشاعر باستنهاض الهمم ووصف ما يتطلبه الموقف من التحرك السريع
قبل فوات الأوان، مذكراً بضرورة التعويل على الله تعالى أولاً وأخيراً، قبل أن يضع
تحت أيدي المقاتلين خطة عسكرية مفصلة ومتكاملة، مبيناً عن حس عسكري
مستغرب على شاب مثله ينتمي إلى قبيلة زاوية غير محاربة:

وأن تستنفروا جمعاً لهماماً

تغص به السياسب والصحارى

تمر على الأماعز والثنايا

قنابلهُ فتتركها غبارا

تتي رُبْدُ النعام بحافتيه

وتعبي دون معظمه الحبارى

يلوح زهاؤه لك من بعيد

كما رفع العساquil الحرارا

تخال سلاحه شهياً تهاوى

وتحسب ليله النقع المثارا

ولولا النقع إن يلمع بليل

لصيرّ ضوءه الليلَ النهارا

¹ يشير إلى قوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"، البقرة، الآية 186.

بكل طليعة شهباء تبدي

إذا طلعت من الصدف أخضرارا

وتخفق فوقها بالنصر راي

فتحسبها بها روضا أنارا

وإن العجب ليأخذ من المرء كل مأخذ، وهو يقرأ هذا الوصف الذي يكاد يكون فوتوغرافيا، لهذا الجيش الجرار الذي لم ير الشاعر مثله في حياته، ولكنها الثقافة الواسعة التي تقرب البعيد وتجعل الصورة الذهنية ماثلة للعيان. ويمضي الشاعر في المراوحة بين توضيح ملامح الخطة العسكرية لمواجهة النصارى والمضمون التعبوي في خطابه الشعري، متكئا على العاطفة الدينية الجياشة لدى المقاتلين المحتملين:

وفتيان يرون الضيم صابا

وطعم الموت خُروطوما عُقارا

أحبوا الملة البيضاء¹ فكانوا

عليها من مُراودها غيارى

قبل أن يعاود وصف عناصر المشهد العسكري مبرزاً ما للخيل من شأن عظيم في

ذلك المشهد وما لها من مكانة لدى القوم:

وسلَّهَبَةٌ مفاصلُها ظِماء

قوائِمُها رواء لا تجارى

عليها من محاسنها شهود

على أن لا تباع ولا تعارا

¹ يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها

إلا هالك" الحديث.

ثم يعود إلى وصف السلاح الذي بحوزة المقاتلين، فيبدع في الوصف أيما إبداع:
بأيديهم مُدْرَبَةٌ طوال

تُري الأقرانَ أعماراً قصارا

وببيض مرهفات جردوها

وردوها من العلق احمرارا

وكل أخي فمين أبي اعتدالاً

وتقويما عن الغرض ازورارا

حذاه بكالهلال مُؤَشَّحوه

بكالجوزاء صوغاً وازدهارا

بوشي حَبْرُوه وأودعوه

تماثيلاً ترى فيها اعتبارا

من العدد الألى آلى "سماك"¹

بروح الله عيسى لن تبارى

تَلْظَى النارُ في الكانون منه

إذا ما صافح الزندُ الشَّفَّارا

وبعد هذا الوصف الدقيق للجيش الجرار الذي يتمنى ولد الشيخ سيديا أن يراه في معمعان المواجهة مع الفرنسيين، وبعد وصف ما لهذا الجيش من عدة وعتاد، ينتقل إلى تحديد الأسباب التي جعلت هؤلاء يجروون على المساس بالإسلام ودياره، وهي أسباب يرجعها إلى الضعف والانحطاط الذي أصاب المسلمين. ثم يوضح أن الروم كما يسميهم إنما يختبرون مدى تصميم المسلمين على الدفاع عن بلادهم:

¹ "سماك" فرنسي كان البيضان يبتاعون منه السلاح على ضفتي نهر السنغال. نقلا عن الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سابق، ص. 412.

وروم¹ عابنوا في الدين ضعفا
فراموا كل ما راموا اختبارا
فإن أنتم سعيتم وانتدبتم
برغم منهم ازدجروا ازدجارا
وإن أنتم تكاسلتم وخمتم
برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فألفوكم كما يبغيون فوضى
حيارى لا انتداب ولا ائتمارا

ويستعرض الشاعر في الأبيات ذاتها النتائج التي ستترتب عن حالة الفوضى والحيرة تلك، وأهونها احتلال الأرض واستعباد السكان، وذلك قبل أن يعاود الدعوة إلى الجهاد مبديا تبرمه بتقاعس القوم وتوانيتهم عن إجابة داعي الله. غير أنه يحس راحة الضمير؛ لأنه بذل كل ما بوسعه؛ لأنه محض قومَه النصَحَ وحذرهم من عواقب التقاعس عن جهاد الكفرة الفرنسيين، ويخلص في الخاتمة إلى أن الله تعالى شاهد على أنه لم يأل جهدا في مواصلة التحريض على الجهاد رغم صدود القوم وتصاممهم:

وربي شاهد وكفى شهيدا
به أني دعوتكم جهارا²
وكم من ناصح قبلي دعاكم
جهارا بعد ما يدعو سرارا³
وكل حين يدعو لم يزدكم
دوام دعائه إلا فرارا⁴

¹. المقصود : الفرنسيون، وكان البيضان يطلقون تسمية "الروم" على الأوروبيين بمختلف جنسياتهم.

². يشير إلى قوله تعالى حكاية عن نوح: "ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا"، سورة نوح، الآية 8.

³. يشير إلى قوله تعالى حكاية عن نوح: "ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا"، نوح، الآية 9.

⁴. يشير إلى قوله تعالى حكاية عن نوح: "فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا"، نوح، الآية 6.

تلك بعض المقاطع من قصيدة الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديا، أوردناها باعتبارها من الإرهاصات الأولى للمقاومة الثقافية في شقها الأدبي. وقد رأينا ما تضمنته من استشراف للمستقبل، بل ومن نبوءات تحقق الكثير منها. ولم يكن ابن الشيخ سيدي الوحيد الذي عمل على مقاومة الفرنسيين شعرا، فهذا الشاعر "اجدود ولد اکتو شني" العلوي¹ يقول في إحدى قصائده مطالباً المسلمين بالاستعداد لقتال الفرنسيين إبان محاولاتهم الأولى . على ما يبدو . للاستقرار على الضفة اليمنى للنهر والتي تجسدت ضمن ما تجسدت فيه في حربهم مع الترارزة:

حاصر المسلمين جنْدُ النصارى
بيد الله أن يزيل الحصارا²
وببيدَ العدا وينصر قوما
أكثر فيهم النصارى البوارا
فلقد قامت القيامة فيهم
ولقوا من أذى الحصار كثارا
فترى الناس في الحصار سكارى
لا لعمرى وما هم بسكارى³
أثخنوهم وأوثقوا وأغاروا
رَبَّ فانصرهم على من أغارا
وسبوا منهم النساء الغواني
والأيامى واستعبدوا الأحرارا

¹. (ت 1865م/1282هـ)، عالم موريتاني من منطقة الترارزة كان شيخ محضرة تخرج عليه عدد من علماء البلاد. اشتهر بمناهضة التعامل مع الفرنسيين ودعا إلى مواجهتهم والتصدي لهم.

². نقلنا المقاطع المذكورة من القصيدة عن "الشعر السياسي الإصلاحي الموريتاني في القرن الثالث عشر ص. 83 وما بعدها.

³. يشير إلى قوله تعالى: "يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"، الحج، الآية 2.

وتطفح هذه الأبيات بالمرارة والغضب مما اقترفه الفرنسيون بحق السكان من فظاعات تبدأ بالحصار ومنع المؤن ولا تنتهي بالأسر والاستعباد. ولكن الشاعر لا يستكين للواقع المر الذي وصفه، وإنما يهب داعياً إلى التصدي للفرنسيين وجهادهم وفق ما أمر الله به من الاتحاد والتعاقد، والابتعاد عن الفرقة والتنازع لما في ذلك من ذهاب للريح وتبديد للقوة:

أيها المسلمون شدوا عليهم

وانزلوا "الزير" وانزلوا "گنار"¹

واعبروا البحر في مواخر فلك

أحكم العجم لوحها والدارا

سارعوا للجهاد بعد التواني

واجعلوا خشية الإله شعارا

جاهدوا في الإله حق جهاد

ولتكونوا الرىكم أنصارا

وانفروا للوغى خفافا ثقالا²

لا يثبطكم اللعين اغترارا

وبعد هذه الدعوة القوية إلى الجهاد، والحث على قتال الفرنسيين في المناطق التي بدؤوا يحاولون التمركز فيها على الضفة اليمنى للنهر، يحذر الشاعر من خيانة الإمام . والمقصود هو محمد الحبيب أمير الترارزة آنذاك . :

لا تخونوا إمامكم وانصروه

إن في خونه لذلًّا وعارا

¹. گنار والزيرة منطقتان على الضفة اليمنى للنهر قرب مدينة سينلوي السنغالية، ويبدو أنها كانت ساحة معارك بين الفرنسيين ومحمد الحبيب أمير الترارزة في الحرب التي سميت حرب الصمغ.

². يشير إلى قوله تعالى: "انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"، التوبة، الآية 41.

طالما حاول الجهاد وحيدا
أوحيد يروم فتح النصارى
فانصروه ينصركم الله طرا
واقتلوا المشركين والفجارا
يا حبيباً¹ أوجف عليهم بخيل
وبرجل² يهدم الأمصارا

ولا تقتصر دعوة الشاعر على التصدي عسكريا للفرنسيين، بل إنه يدعو كذلك إلى
مواجهتهم اقتصاديا من خلال الامتناع عن بيعهم الصمغ العربي المعروف محليا
بالعلك، والذي سميت به الحرب بينهم ومحمد الحبيب، لما في ذلك من مساعدة لهم
وتقوية لهم على حساب المسلمين:
لا تعينوا بالعلك حزب الأعادي
أتعينون فاجرا كفارا³
فاقطعوا عنهم الشراء حذارا
أن يصروا على الأذى إصرارا
فإذا ما أعنتموهم أساؤوا
وأصروا واستكبروا استكبارا¹

¹ يعني أمير الترارزة محمد الحبيب.

² يشير إلى قوله تعالى: "وَمَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، الحشر، الآية 6.

³ يشير إلى قوله تعالى: "إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا"، نوح، الآية 27.

وتمضي القصيدة على هذا النحو صرخة قوية ودعوة صادقة للسكان كي يبادروا إلى دفع العدو المشرف على الحدود قبل أن يتقدم خطوات أخرى ويستفحل أمره، فيندموا على تفاعسهم وتوانيتهم ولات حين مندم. والواقع أن جل القصائد التي أتيح لنا الاطلاع عليها، والتي يمكن اعتبارها بواكير للمقاومة الثقافية في شقها الأدبي، تنضح توثبا حماسة وتأجيجا للمعاطفة الدينية لدى سكان هذا المجال للذب عن دينهم وهويتهم. كما لا يخفى ما في نصوص ولد الشيخ سيدي واجدود ولد اكتوشن من إحساس بالخطر الداهم الذي يمثله الاستعمار الفرنسي، الذي كان قد باشر التحرش بالحدود الجنوبية؛ إيدانا بوضع مخططاته لاحتلال بلاد البيضان موضع التنفيذ. ولا نرى ضرورة بعد ذلك في استطراد نماذج أخرى من المقطعات الشعرية التي اضطلع أصحابها بالتعبئة ضد الجحافل الفرنسية التي كانت تعد العدة للسيطرة على البلاد، فحسبنا أننا قدمنا منها نماذج نعتقد أنها تمثلها خير تمثيل!

الخاتمة:

ويمكن القول عموما إن علماء البلاد وشعراءها انتبهوا مبكرا إلى الأهداف الفرنسية على حقيقتها، فهبوا يحذرون من التعامل مع الفرنسيين ويعبئون السكان للتصدي للمخططات الفرنسية للسيطرة على موريتانيا، وذلك قبل تنفيذ تلك المخططات بما يقرب من قرن من الزمان. ولذلك واجه الفرنسيون عند بداية تغلغلهم في الأراضي الموريتانية. علاوة على المقاومة العسكرية. مقاومة ثقافية قد اشتد عودها وقويت

¹. يشير إلى قوله تعالى: "وَأَنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"، نوح، الآية 7.

شوكتها، لاستلهاها مواقف الرواد من العلماء والشعراء المشار إليهم أعلاه. فقد كان الشأن العظيم الذي قام به هؤلاء الأساس الذي بنى عليه أبناؤهم وأحفادهم¹، فحملوا راية المقاومة الثقافية خفاقة في وجه المستعمر وثقافته؛ فحفظوا للبلاد هويتها وصانوا للمجتمع خصوصياته الدينية والثقافية. فما أهم أوجه المقاومة الثقافية التي أبدتها النخب المثقفة في مواجهة الاستعمار الفرنسي وقد أصبح حقيقة ماثلة؟ وإلى أي حد ساهمت تلك المقاومة في الحفاظ على الهوية الدينية والحضارية للبلاد؟

المصادر والمراجع:

- أحمد بن الأمين الشنقيطي، " الوسيط في تراجم أدياء شنقيط"، مكتبة المنير بانواكشوط ومكتبة الخانجي بالقاهرة 1989
- د. أحمدو جمال ولد الحسن، " الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مساهمة في وصف الأساليب"، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب 1995م
- الخليل النحوي، " المنارة والرباط"، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1986م
- عبد الله ولد حمدي، " الشعر الإصلاحى السياسى فى موريتانيا فى القرن الثالث عشر"،
- د. محمد المختار ولد أباه، " الشعر والشعراء فى موريتانيا"، تونس 1987م

¹ - لا يغيب عنا مثلا أن الشيخ سيدي بابيه وهو نجل الشاعر سيدي محمد ولد الشيخ سيدي، كان ممن هادن الفرنسيين وتعامل معهم بل وله في ذلك فتاوى ومواقف مشهورة.

الطريق إلى تنبكتو عبر البلاد الموريتانية (الرحالة الفرنسي رني كايي نموذجاً)¹

محمود محمد أمين

قسم التاريخ

Résumé:

Par ses fonctions culturelles, économiques et politiques, la ville de Tombouctou a joué un rôle de premier plan lui permettant d'occuper une place de choix et d'acquérir un intérêt particulier aux yeux des européens désireux de pénétrer à l'intérieur de l'Afrique. C'est ainsi que les Sociétés de Géographie britanniques et françaises ont rivalisé en promettant des prix incitateurs au premier Européen qui visiterait cette ville et en rapporterait des renseignements « intéressants » pour les Européens de l'époque.

Ces prix ont été décernés à l'explorateur français René Caillié qui a pu atteindre cette ville mystérieuse, le 20 avril 1828, après avoir subi les vicissitudes d'un long et périlleux voyage.

L'itinéraire tracé par ce voyageur comportait, un arrêt au Pays Maure pour y apprendre des notions de la langue arabe et de la religion musulmane et y découvrir les us et coutumes des habitants.

En exécutant ce projet, René Caillié a dû séjourner chez les Maures Brakna pendant 9 mois et demi (1824-1825), en feignant de se convertir à l'Islam et en adoptant les traditions en vigueur au sein de la population locale, en vue de faciliter son accès à cette ville entourée de

¹ - قدم هذا البحث الذي لم ينشر لحد الساعة مشاركة في ندوة دولية حول: تنبكتو وخصوصياتها الثقافية والاجتماعية نظمها وزارة الثقافة المالية بمدينة تنبكتو من 14 إلى 19 نوفمبر 2006. ونحن نقدمه للنشر في صيغته الأصلية ودون إدخال أي تعديلات عليه.

beaucoup de mystère dans l'imaginaire collectif des Européens du XIX^{ème} siècle.

Tombouctou a longtemps excité l'imaginaire européen, qui l'exprima en mythes, légendes et belles paroles qui nous sont parvenus.

Son entrée a longtemps été considéré par les voyageurs et explorateurs européens comme une aventure pénible et périlleuse: "**Je portais toujours dans mon sac un arrêt de mort et combien de fois ce sac a du être confié des mains ennemies**" disait René Caillé. p. 37.

A l'aire du "village planétaire" et malgré son déclin, Tombouctou continue à attirer des touristes occidentaux (allemands, canadiens, américains....) à la recherche de cultures exotiques ou tout simplement de l'estampille sur leur passeport attestant qu'ils y ont été.

La ville de Tombouctou, capitale de l'Islam au Soudan, perle du Sahara et authentique cité musulmane de la région, ne mérite-t-elle pas l'intérêt des touristiques, investisseurs et bienfaiteurs musulmans et arabes pour la sauvegarde de son patrimoine islamique menacé par le temps, l'enclavement et l'isolement que lui imposent aujourd'hui l'Histoire et la Géographie.

تمهيد

اضطلعت مدينة تنبكتو بأدوار متعددة ثقافية واقتصادية وسياسية في إفريقيا والعالم الإسلامي مما بوأها مكانة متميزة وجعلها تحل موقعا خاصا في اهتمامات الأوروبيين الساعين إلى الوصول إلى المناطق الإفريقية الداخلية.

وهكذا فمنذ بداية القرن التاسع عشر تسابقت الجمعيات الجغرافية الفرنسية والبريطانية إلى منح الجوائز المعنوية والمادية لأول مستكشف أوروبي يصل هذه المدينة ويعود منها بمعلومات تهم الأوروبيين في ذلك الوقت.

وكانت تلك الجوائز من نصيب الفرنسي رني كايي الذي نجح بعد جهد جهيد في الوصول إلى تنبكتو يوم 20 من إبريل سنة 1828 ليملك بها 14 يوما وينجح في العودة إلى فرنسا عبر المغرب.

وتقتضي الخطة التي تم رسمها للوصول إلى تنبكتو أن يمكث ذلك الرحالة بعض الوقت في بلاد البيضان بغية تعلم مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامي والاطلاع على عادات وتقاليد السكان تمهيدا لتلك المهمة الصعبة.

وتنفيذا لذلك المشروع حلّ الرحالة رني كايّ سنة 1824 بمنطقة البراكنة الواقعة بجنوب البلاد الموريتانية ومكث بها تسعة أشهر ونصف الشهر ساعيا إلى تعلم مبادئ اللغة العربية ومتظاهرا باعتناق الإسلام محاولا - ما استطاع إلى ذلك سبيلا- التعود على تقاليد السكان المحليين علّه يحصل عبر الصحراء على "جواز سفر" يخوله الدخول إلى تنبكتو التي كانت حينئذ تمثل أسطورة في المخيال الأوروبي.

وستسعى هذه المداخلة إلى تسليط الضوء على مكانة تنبكتو في الاهتمامات الأوروبية، وكيف تمكن ذلك الرحالة المغامر من السيق إليها؟ ولماذا تم اختيار منطقة البراكنة الموريتانية محطة عبور إلى تلك المدينة؟

أولاً. رني كايي وحلم السبق إلى تنبكتو¹

¹ - للمزيد من المعلومات حول هذا المستكشف ورحلته إلى تنبكتو يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع التالية:

- ✓ René Caillié, **Journal d'un voyage à Tombouctou et à Jenné dans l'Afrique centrale**, précédé d'observations faites chez les Maures Braknas, les Nalous et les autres peuples pendant les années 1824, 1825, 1826, et 1829, Paris, Imprimerie Royale, 1830, 2 tomes, I: XII+476; II: 427.); Dernière Edition, **Voyage à Tombouctou**, Paris, 1989, Editions La Découverte, 2 t., 291 et 373 p., t.2, pp. 211-249.
- ✓ dmé François, Jomard, **Remarques et recherches géographiques sur le voyage de Caillié dans l'Afrique centrale**, Imprimerie Royale, Paris, 1830, 406 p.
- ✓ J. Ancelle, **Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines, depuis l'antiquité jusqu' à nos jours**, Paris, Maisonneuve Frères et Ch. Leclerc, 1886, 445 p., pp. 70-95.
- ✓ Félix Dubois, **Tombouctou, la mystérieuse**, Paris, Flammarion, 1897.
- ✓ André Lamandé et Jacques Nanteuil, **La vie de René Caillié, vainqueur de Tombouctou**, Paris, Librairie Plon, 1928, 284 p.
- ✓ Antoine Demougeot, **René Caillié (1798-1838)**, Ed. L'Empire français, Paris, 1948, 154 p.
- ✓ Marcel Chailley, **Les grandes missions françaises en Afrique Occidentale**, Dakar, Initiations africaines, IFAN., 1953, 145 p., pp. 35-40.
- ✓ Hubert Deschamps, **L'Europe découvre l'Afrique. Afrique Occidentale (1794-1900)**, Editions Berger Levrault, Paris, 1967, 282 p., pp. 98 et suivantes.
- ✓ Anonyme, **Hommes et destins, dictionnaire bibliographique d'Outre Mer**, Paris, 9 tomes, 1975-1989, t.-1, 1975, pp. 115-118.
- ✓ Hommes et destins, ..op.cit., t.-1, 1975, pp. 115-118.

أورد رني كايي (René Caillié) في مقدمة رحلته معلومات حول سيرته الذاتية ربما يساعد استعراضها في فهم علاقته بالترحال وسعيه المبكر إلى ركوب البحار وتحدي الصحاري وبالذات في اتجاه هذه المدينة/الحلم. يقول كايي بشأن تاريخ ولادته: "ولدت سنة 1800⁽¹⁾ بقرية موزي (Mauzé) بمقاطعة دو سيفر (Deux Sèvres) لأسرة فقيرة. وفقدت لسوء الحظ والدي وأنا ما أزال صبيًا فاقترصر تعليمي على الدروس المجانية التي تقدم في مدرسة قرينتا"². ثم يضيف أنه عندما تعلم القراءة والكتابة بدأ يتدرب على مهنة³ سرعان ما أخذ يمقتها

- ✓ Numa Broc, *Dictionnaire illustré des explorateurs français au XIXème siècle, I, Afrique*, Paris, Editions du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, 1983, 316 p., pp. 64-65.
- ✓ Jean-Maurice Biziere et autres, *Dictionnaire de la biographie. Le XIXème siècle*, Paris, Armand Colin, 1994, t.-5, 252 p., p. 43.
- ✓ Jules Gros, *Nos explorateurs en Afrique*, Paris, collection Picard, sans date, 288 p., pp. 3-12.

¹ - يبدو أن المصادر قد اختلفت في تحديد سنة ميلاد كايي. فبينما يحددها هو بسنة 1800 (ص. 41) نجد دوموجو (Demougeot) يجعلها يوم 19 نوفمبر سنة 1799. راجع: Antoine Demougeot, *René Caillié (1798-1838)*, op.cit., p. 9. أما جل المصادر والمراجع الأخرى فترجع ميلاد كايي إلى سنة 1799. والطريف أن صفحة الغلاف الأخيرة من طبعة رحلة كايي (Editions La Découverte, 1989) التي اعتمدنا تذكر أنه مولود سنة 1799 بينما يذكر هو نفسه في الصفحة 41 من الطبعة نفسها أنه مولود سنة 1800.

2 - "Dès que je sais lire et écrire, on me fit apprendre un métier dont je me dégoûte bientôt grâce à ma lecture des voyages, qui occupant tous mes moments de loisirs", René Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t.-1, pp. 41-42.

³ - لم يشأ كايي أن يبوح بطبيعة تلك المهنة وهي العمل مساعدا لإسكافي.

جراء مطالعته للرحلات. تلك المطالعة التي كانت تحتل كل أوقات فراغه وتثير خياله إلى درجة بدأ يحس معها بشعور داخلي يدفعه إلى الترحال ويوحى إليه بأنه سيشتهر باكتشاف عظيم.¹

ويبدو أن كايي قد أخفى -ربما عمدا- عن القراء بعض المعلومات المتعلقة بنشأته وهي معلومات قد يكون لها أثر في رسم بعض معالم شخصيته ومستقبله وأهمها أن والده كان مدمنا على تعاطي المشروبات الكحولية وأنه تعرض للإدانة بالأعمال الشاقة بتهمة السرقة.²

وهكذا فإن هذا الصبي، المنحدر من أصول فلاحية فقيرة والذي فقد والديه ولما يتجاوز الحادية عشرة من العمر وسد أمامه باب التعليم، وكان معرضا للضياح والتشرد، قد وجد في مطالعة الرحلات والكشوفات الجغرافية مجالا لتخفيف همومه ونسيان أحزانه وميدانا يسعى فيه إلى تحقيق ذاته أو يمكنه، على الأقل، من الهروب والابتعاد عن الظروف القاسية التي يعيشها.

وربما كانت وفاة والده في السجن من أقسى تلك الظروف وقعا في نفس الطفل الذي يبدو أن مطالعته تلك ولدت لديه الأمل ووجهت اهتمامه نحو الرحلة والمغامرة وربطته في وقت مبكر بالقارة الإفريقية ومدينة تنبكتو بالذات. يقول كايي: "لم أفقد أية لحظة من اللحظات الأمل في اكتشاف بعض المناطق المجهولة من إفريقيا؛ ومن ثم أصبح الوصول إلى تنبكتو شغلي الشاغل وهدف جميع مجهوداتي. فصمت على أن أصل تلك المدينة أو أموت"³.

¹ - René Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t.-1, p. 42.

² - Deschamps, *L'Europe découvre ...*, op.cit., p. 99 .

³ - "Je ne renonçais donc pas un seul instant à l'espoir d'explorer quelque pays inconnu de l'Afrique; et par la suite la ville de Tombouctou devint l'objet continuel de toutes mes pensées, le but de tous mes efforts; ma

وفي صيف 1816 عندما بعثت فرنسا إلى مركز سين-لوي أسطولا بحريا صغيرا بقيادة الكولونيل شمالتز (Shmaltz) لاسترجاع السنغال من الإنجليز، تمكن رني كايي من السفر على متن إحدى قطع ذلك الأسطول كخادم لأحد الضباط. وعندما وصل هذا الفتى إلى سين-لوي أراد أن يبدأ تنفيذ مشروعه بالتوجه إلى داخل الصحراء نحو تنبكتو غير أن بعض الأشخاص المهتمين به وخاصة ضابطا يدعى كافو¹ (Gavot) تمكنوا -ولو مؤقتا- من صده عن هذا المشروع الطموح.

وبمساعدة من هذا الضابط توجه كايي إلى أرخبيل الأنتيل بالمحيط الأطلسي حيث استخدم مساعدا تجاريا وذلك بفضل توصيات جاء بها من السنغال. غير أنه لم يمكث في ذلك العمل سوى ستة أشهر لأن شغفه بالرحلات استيقظ من جديد عندما قرأ رحلة² المستكشف الإنجليزي مانكو بارك³ (Mungo Park) فعاوده الأمل بالنجاح في تحقيق مشروعه القديم فقفل راجعا إلى بوردو ليغادرها في نهاية 1818 متوجها من جديد إلى السنغال للالتحاق ببعثة استكشافية إنجليزية يتولى

résolution fut prise de l'atteindre ou de périr"., René Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t.-1, p. 41.

¹ - لم نعثر في الأرشيفين الفرنسي والسنغالي على معلومات حول هذا الضابط غير أن كايي أثنى عليه مشيرا إلى أنه تمكن بفضل من السفر مجانا على متن سفينة متوجهة إلى كوادلوب وذلك لإشباع رغبته في الترحال.

² - ترجمت هذه الرحلة إلى الفرنسية ونشرت مرات عدة آخرها:

Mungo Park, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, Paris, Maspéro, 1980, 355 p.

³ - مانكو بارك (1771-1806)، طبيب جراح ومستكشف اسكتلندي. قام بمهمتين استكشافيتين لنهر النيجر، أولاهما خلال سنتي 1795 و 1797، والثانية بدأت سنة 1805 توفي أثناءها في بوسا بنيجيريا.

قيادتها الميجر كراي¹ (Gray) كانت تحاول النفاذ إلى المناطق الإفريقية الداخلية عبر منطقة بوندو، غير أن مصير تلك البعثة لم يكن أحسن من مصير سابقتها² التي تولى قيادتها الميجر الإنجليزي بدى (Peddie).

ولم يجن كايى من سفره الطويل والشاق مع البعثة الإنجليزية عبر السنغال وغامبيا سوى الإرهاق المضني والمرض، إذ أصيب بحمى ملاريا أوشكت أن تقضي عليه.

ولكي رني كايى يستعيد صحته لم يجد بدا من مغادرة السنغال إلى فرنسا لقضاء فترة استراحة ونفاهة طويلة نسبيا استمرت حتى سنة 1824 ليعود للمرة الثالثة إلى السنغال وهو ما يزال يفكر في تحقيق حلم التجول داخل القارة الإفريقية والسبق إلى تنبكتو. ذلك الحلم الذي "لا يمكن لأية عقبة أن تحول دونه خاصة وأنا أجد على رأس مستعمرة السنغال البارون روجي"^[3] (Le Baron Roger)، وهو الذي

¹ - الميجر كراي (Gray) طبيب عسكري إنجليزي كان ملحقا بالبعثة الإنجليزية بقيادة الميجر بدى (Peddie) التي كلفتها الحكومة البريطانية سنة 1816 باكتشاف منطقة حوض النيجر. وفي 1818 اسندت قيادة تلك الحملة إلى الميجر كراي هذا.

² - فشلت هاتان البعثتان البريطانيتان رغم الامكانيات الهائلة التي وضعتها الحكومة البريطانية تحت تصرفهما. ويعود فشلهما إلى أن سكان منطقتي فوتا جالون وبوندو المسلمين لم يكونوا إذ ذاك مستعدين للسماح للإنجليز المسيحيين بعبور المنطقتين. راجع بهذا الشأن:

William Gray et F. Dochart, *Voyage dans l'Afrique occidentale pendant les années 1818, 1819, 1820 et 1821 depuis la rivière de Gambie jusqu'au Niger*, Traduit de l'anglais par Mme Charlotte Huguet, Paris, Avril de Gastel, 1826, 319 p.

³ - البارون روجي (1787-1849)، شغل منصب الوالي الفرنسي على السنغال بين سنتي 1821 و1827. وبعد عودته تابع اهتمامه بشؤون المستعمرات حيث شغل منصب رئيس لجنة الجزائر والمستعمرات بالبرلمان الفرنسي ونائب رئيس الجمعية الجغرافية الباريسية.

يعول عليه -لفلسفته وفكره المستنير- في احتضان وحماية كل الأعمال والمحاولات العظيمة¹.

ثانيا. منطقة البراكنة الموريتانية معبراً إلى تنبكتو

يبدو أن الفرنسيين في السنغال كانوا يدركون العراقيل الجمة التي تحول دون التوغل في أعماق المنطقة. ولهذا لم يستجب البارون روجي الوالي الفرنسي على السنغال لإلحاح رني كايي على بدء مشروعه الطموح المتمثل في التوجه فوراً إلى تنبكتو، بل اقترح عليه فترة تحضير وتدريب مع البيضان الموريتانيين ومنحه لهذا الغرض كمية من البضائع التجارية للذهاب بها إلى منطقة البراكنة الموريتانية "بغية تعلم العربية والطقوس الدينية لدى البيضان وذلك للتمكن لاحقاً من خداع يقظة السكان والوصول بسهولة إلى عمق القارة الإفريقية"².

وقد أصر البارون روجي على ضرورة إرسال كايي إلى بلاد البيضان لتعلم العربية والتقاليد المحلية معتبراً ذلك شرطاً لا غنى عنه للقيام بالرحلات المتوقعة إلى تنبكتو.

ولكن لماذا تم اختيار هذه المنطقة مجالا يتمرن فيه كايي على طرق التعامل والتكيف مع الصحراء وسكانها المسلمين؟

1 - "Il semblait qu'aucun obstacle ne pouvait plus m'arrêter, en voyant surtout à la tête de la colonie M. le baron Roger, dont la philosophie et l'esprit éclairé me promettaient un protecteur de toutes les entreprises grandes et utiles", René Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t.-1, p. 59.

² - "Cette détermination fit impression sur l'esprit du gouverneur qui m'accorda quelques marchandises pour aller vivre chez les Braknas, y apprendre la langue arabe et les pratiques du culte des Maures, afin de parvenir plus tard, en trompant leur jalousie défiante, à pénétrer plus facilement dans l'intérieur de l'Afrique", René Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t.-1, pp. 59-60.

يورد أندري لاماندي (André Lamandé) وجاك نانتي (Jacques Nanteuil) ثلاثة عوامل قد تساعد على فهم هذا الاختيار¹:

أولها -حسب رأي هذين المؤلفين- أن كايي سيجد بين هؤلاء السكان البيضان المنغلقيين أمام تأثيرات الحضارة الأوروبية مجالا للملاحظة أكثر خصوبة من مجال زنوج كايور.

وثاني تلك العوامل هو أن العربية التي يتكلمها سكان البراكه تعتبر لغة موحدة في إفريقيا وبالتالي فإن تعلمها لا غنى عنه لإنجاز الرحلة التي ينوي رني كايي القيام بها عبر الصحراء الإفريقية.

وأما ثالث تلك العوامل فهو أن كايي -وكذا البارون روجي- يرى أنه من الضروري، قبل بدء تلك الرحلة الطويلة، تعلم آيات من القرآن الكريم وبعض الشعائر والمعتقدات الإسلامية ليضمن تصديق القصة التي سيتبناها خلال رحلته الشاقة إلى تنبكتو. وتتخلص تلك القصة/الذريعة في أنه مولود في مصر من أسرة عربية وأن فرنسيين شاركوا في حملة نابليون على مصر اختطفوه إلى فرنسا وهو حينها ما يزال صبيا وأن سيده الفرنسي أرسله في بعثات تجارية إلى السنغال ثم

¹ - "Ce choix présentant à ses yeux des avantages décisifs : D'abord, il trouverait parmi ces peuplades maures enfermées à toute influence européenne, un champs d'observation plus riche que dans les tribus nègres plus hospitalières et à demi civilisées du Cayor. Ensuite, il savait que la langue arabe, parlée par les Braknas, tient lieu, en Afrique, de langue internationale et que sa connaissance lui serait indispensable pour voyager, plus tard, dans l'intérieur de l'Afrique. Mais surtout il jugent nécessaire, avant le grand dépat, de s'initier suffisamment au Coran, aux rites et aux croyances musulmanes pour rendre plausible la fable qu'il aurait adoptée"., André Lamandé et Jacques Nanteuil, **René Caillié vainqueur de Tombouctou**, op.cit., p. 96.Ce choix présentant à ses yeux des avantages décisifs :.

أعتقه مكافأة على خدماته المخلصة. وبما أنه استعاد حريته، فهو يسعى إلى العودة لمصر للقاء أهله والعودة إلى دينه الأصلي.

أما دموجو¹ (Demougeot) فيؤكد أن "حسن نوايا الأمير البركني^[2] آنذاك تجاه الفرنسيين له علاقة باختيار البراكنة مكانا لتعلم رنّي كايّ العربية والتظاهر باعتناق الإسلام".

وقد يكون استبعاد احتمال إرسال هذا الرحالة الفرنسي إلى الترارزه -وهم جيران البراكنة- له صلة بسوء علاقات الفرنسيين حينئذ مع الأمير التروزي أعمر بن المختار³ جراء معارضته لمشاريع الاستعمار الزراعي التي كانت الإدارة الفرنسية بالسنگال تحاول تجربتها في منطقة والو⁴. فقد حارب هذا الأمير الفرنسيين في ذلك الوقت وسعى إلى توحيد سكان منطقة النهر ضدهم، مما تسبب في إفشال تلك المشاريع الزراعية⁵.

¹ - Demougeot, René Caillié (1798-1838), op.cit., p. 30.

² - هو أحمدو (الأول) بن سيدي علي، شغل منصب أمير البراكنة بين 1818-1841. ورغم أنه شارك مرات إلى جانب الترارزه في حرب الفرنسيين، إلا أن علاقاته بهم كانت أكثر ودية.

³ - هو أعمر ولد المختار ولد الشرقي ولد علي شنظوره أمير الترارزه من 1800 إلى 1829 استفاد من التنافس بين الإنجليز والفرنسيين وترغم عمليات إفشال الاستعمار الزراعي الفرنسي في حوض نهر السنغال.

⁴ - تسمية تطلق أصلا باللغة الولفية على السهل الفيضي الممتد على ضفتي نهر السنغال. ومع أن هذه التسمية تشمل كل المنطقة التي تغمرها فيضانات النهر سنويا إلا أن الاستعمال المحلي محضها للضفة اليسرى السنغالية، بينما أخذت تسمية "شمامه" تلتصق بمنطقة الضفة اليمنى الموريتانية.

⁵ - بخصوص مشاريع الاستعمار الزراعي في منطقة حوض نهر السنغال ودور هذا الأمير التروزي في إفشالها تمكّن مراجعة:

وفعلا اتجه كايّ في صيف 1824 إلى منطقة البراكنة الموريتانية حيث قضى تسعة أشهر وخمسة عشر يوما بين سكانها قبل أن يعود في أغسطس/آب 1825 إلى مركز سين-لوي طالبا من الوالي الفرنسي منحه مبلغ 6000 فرنك لشراء قطع من المواشي وعبيدين تمهيدا للعودة من جديد إلى البراكنة والتوجه من هناك إلى منطقة آدرار التي سينحني منها شرقا في طريقه إلى مكة بحجة الذهاب إلى الحج فيمر بمدينتي ولاته وتبكتو لجمع كل المعلومات التي قد تخدم التجارة والجغرافيا ثم يعود إلى أوروبا عن طريق مصر.¹

بيد أن هذا المشروع الطموح لم يجد أذنا مصغية من الوالي الفرنسي مما أغضب رني كايّ ودفعه إلى التوجه نحو السيراليون باحثا عن مساعدة حاكمها الإنجليزي تشارلز تورنير (Charles Turner) الذي استقبله بحفاوة وأسند إليه مهمة الإشراف على معمل للصباغة.

وفي السنة الموالية يستقيل رني كايّ من وظيفته احتجاجا على رفض البريطانيين في السيراليون منحه مبلغ 6000 فرنك لتمويل رحلته الطويلة نحو تبكتو، ويتخذ قراره الصارم بالقيام بتلك الرحلة وحيدا ودون مساعدة أي كان واعتمادا على موارده الشحيحة التي لا تتجاوز 2000 فرنك كان قد اقتصدها خلال السنوات الماضية.²

- ✓ Monserat, *Mémoire inédit de Monserat sur l'histoire du Nord du Sénégal de 1818 à 1839*, publié et commenté par Boubacar Barry, BIFAN, Série B., t.-XXXII, n°1, janvier 1970, pp. 1-43;
- ✓ Boubacar Barry, *Le royaume du Waalo, le Sénégal avant la conquête*, Paris, Editions Karthala, 1985, 421 p.

¹ - René Caillié, *Voyage ...*, op.cit., t.-1, p. 186 .

² - Idem

وبالتأكيد فإن أفضل عون حصل عليه هذا المستكشف هو مقامه بين صفوف البيضان، إذ تعلم مفردات من اللغة العربية واللهجة الحسانية وحفظ آيات من القرآن العظيم وتعود على طريقة أداء الصلاة والصوم كما تمرن على تقاليد وعادات السكان المحليين.

وسيكون لهذه المعارف التي اكتسبها رني كايّ دور كبير في مساعدته على التكيف مع السكان وإقناعهم بأنه مسلم ومن أصول عربية، الشيء الذي ساعده في نهاية المطاف على الوصول إلى تنبكتو واجتياز الصحراء الكبرى والعودة منها إلى فرنسا.

ولا نستبعد أن يكون السعي إلى الكسب المادي قد لعب الدور الفعال في قرار رني كايّ بالإقدام على هذه المغامرة دون مساعدة. ذلك أن الجمعية الجغرافية الباريسية كانت قد أعلنت سنة 1824 عن جائزة تبلغ 2000 فرنك ستمنح لأول رحالة فرنسي أو أوروبي يصل مدينة تنبكتو عن طريق السنغامبيا ويعود منها بمعلومات تهم الأوروبيين في ذلك الوقت.¹

وقد أضافت وزارات البحرية والخارجية والداخلية الفرنسية وكذا الجمعية الجغرافية الباريسية جوائز أخرى إلى المبلغ الأصلي لهذه الجائزة.²

فمع الإعلان عن هذه الجوائز نجد رني كايّ يتحدى جميع العراقيين والصعوبات قائلا: "سوف أحصل على تلك الجائزة حيا أو ميتا. فإذا قُدر أن أموت قبل أن أتمتع بها فإن أختي ستأخذها من بعدي".³

¹ - Jomard, *Remarques et recherches...*, op.cit, pp. 355 - 359.

² - Idem.

³ - "J'avais eu connaissance du prix que la société de géographie de Paris avait promis au premier Européen qui pénétrait à Tombouctou, et je me

وبالفعل يغادر رني كايي السيراليون في رحلة طويلة وشاقة ستقوده في نهاية المطاف إلى مدينة تنبكتو التي سيمكث بها نصف شهر قبل أن يعود إلى فرنسا عن طريق الصحراء الكبرى ثم المغرب.

وبعد مرور حوالي شهرين على عودة رني كايي إلى فرنسا منحتة الجمعية الجغرافية الباريسية في 5 ديسمبر/كانون الأول 1828 الجائزة الكبرى بمبلغ 10.000 فرنك. كما حصل على وسام الشرف الاستحقاق بالإضافة إلى معاش (Une pension) من الحكومة الفرنسية¹.

وفي السنة الموالية عين رني كايي على رأس الممثلة الفرنسية التي كان مقررا أن تفتح في باماكو سنة 1829⁽²⁾، غير أنه تم إلغاء فتح هذه الممثلة في السنة نفسها، فبقي في فرنسا حتى وفاة سنة 1838 دون أن تكتمل فرحته بالمقام على رأس تلك البعثة غير بعيد عن تلك المدينة التي ارتبط اسمه بها ومنحته شهرة كبيرة حتى أصبح يلقب "قاهر تنبكتو"³.

ثالثا. مكانة تنبكتو في الاهتمامات الأوروبية

تأسست مدينة تنبكتو في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على منحى نهر النيجر، فاكتملت بسرعة أهمية اقتصادية كبيرة بصفتها منطلقا للقوافل التجارية التي تربط بين بلاد السودان وإفريقيا الشمالية. وبفضل ما عرفته

disais, mort ou vif, je l'obtiendrai; si je n'en jouis pas, ma sœur le recueillera", René Caillié, *Voyage* ..., op.cit., t.-1, p. 190.

¹ - Jules Gros, *Nos explorateurs* ... op.cit., p. 12.

² - Archives Nationales de France, Centre des Archives d'Outre-Mer (ANFCAOM), Série géographique: Afrique, Sénégal et Dépendances-III/5-d: *Notes sur René Caillié*, 3 p.

³ - René Caillié : le «vinqueur» de Tombouctou.

هذه الحاضرة من ازدهار ثقافي فقد أصبحت محجاً للتجار والعلماء والطلاب على حد سواء.

وليس من المستبعد أن يكون وصف الرحالة العرب خاصة ابن بطوطة الذي زار تنبكتو سنة 1353 والحسن الوزان الذي زارها في مطلع القرن السادس عشر إبان ازدهارها الاقتصادي والثقافي، وكذا المعلومات الواردة عنها في كتابي ابنيها محمود كعتي (تاريخ السودان) وعبد الرحمن السعدي (تاريخ الفتاش)، قد ساهم في إنكاء اهتمام الأوروبيين بها وسعيهم إلى سبر أغوارها واكتشاف أسرارها ومن ثم -ربما- التأثير عليها وعبرها.

وبالفعل فقد مثلت مدينة تنبكتو خلال العهود الحديثة أسطورة ساكنة في مخيال الأوروبيين -البريطانيين والفرنسيين خاصة- الذين تسابقوا للوصول إليها والاطلاع على ما قد تخفيه من أسرار.

وفي هذا النطاق رُصدت جوائز مالية كبيرة ستمنح لأول فرنسي أو أوروبي يصل مدينة تنبكتو عن طريق السنغامبيا ويعود منها بمعلومات قيمة تخدم الجغرافيا بمختلف فروعها وتتعلق بالسكان وأعرافهم وتاريخهم وحضارتهم ولغاتهم ودينهم.¹ ومن هذه الجوائز مثالا لا حصرا:

✓ جائزة بمبلغ 2000 فرنك أعلنت عنها الجمعية الجغرافية الباريسية سنة 1824،

✓ جائزة بمبلغ 2000 فرنك أعلنت عنها وزارة البحرية الفرنسية،

✓ جائزة بمبلغ 2000 فرنك أعلنت عنها وزارة الخارجية الفرنسية،

✓ جائزة بمبلغ 1000 فرنك أعلنت عنها وزارة الداخلية الفرنسية.

¹ - Jomard, Remarques et recherches..., op.cit, pp. 355 – 357.

وقد أضافت الجمعية الجغرافية الباريسية إلى تلك الجوائز جائزة بمبلغ 2000 فرنك فرنسي يشترط في الحصول عليها تقديم ملاحظات موضوعية وقيمية عن موقع مدينة تنبكتو والمجاري المائية المحاذية لها والتجارة التي تعتبر تلك المدينة مركزا لها بالإضافة إلى إعطاء المعلومات الأكثر دقة حول المناطق الممتدة من تنبكتو إلى تشاد.¹

ومما لاشك فيه أن الازدهار الذي عرفته تنبكتو والأدوار المتعددة التي اضطلعت بها خاصة منها الثقافية والاقتصادية كانت وراء اهتمام الأوروبيين بها في فترة شهدت أوج حركة الكشوفات الجغرافية وتنافس الدول الأوروبية من أجل بسط النفوذ عبر العالم بحثا عن مناطق النفوذ والمواد الأولية والأسواق.

فعلى الصعيد الاقتصادي:

كان الأوروبيون مقتنعين بأن تنبكتو مدينة تتوفر على ثروة اقتصادية وافرة بفضل تحكمها في تجارة الذهب وريش النعام والعاج والعبيد إلخ.. وبالفعل فقد كانت تنبكتو محطة مهمة من محطات التجارة عبر الصحراء مضطلعة بدور الموزع والمخزن والرابط في الوقت نفسه، ذلك أنها كانت بمثابة سوق كبرى تتم فيها إعادة توزيع السلع الواردة من المغرب والمشرق عبر تغازه وأروان وولاته، أو تلك الواردة من الجنوب عبر جيئته وغيرها من محطات النهر حيث تتم مبادلة بضائع متنوعة (الذهب، التبر، النحاس الأحمر، العاج، ريش النعام، الزجاج، الحرير، الخيول، الجلود، الحبوب، الملح، التوابل، العسل، الصمغ، إلخ).

¹ - Ibid, op.cit, pp. 355 - 359.

وهكذا باتت تتبكتو نقطة تماسٍ والتقاء وتبادل بين أجناس وعناصر وثقافات مختلفة آتية من جنوب ومن شمال الصحراء الكبرى. وعلى الصعيد الثقافي والديني:

أصبحت تتبكتو مركز إشعاع مهم في بلاد السودان، وذلك من خلال مساجدها العامرة ومدارسها العلمية المتعددة وكثرة علمائها وفقهائها ومؤلفيها الذين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

✓ العاقب بن القاضي محمود الذي اشتهر بتشييد وإعمار المساجد،

✓ أحمد بابا التمبكتي الذي خلف عشرات المؤلفات في مختلف فروع الثقافة الإسلامية،

✓ عبد الرحمن السعدي مؤلف تاريخ السودان،

✓ محمود كعتي الذي اشتهر بكتابه تاريخ الفتاش.

فمن خلال هؤلاء والعشرات غيرهم من العلماء والفقهاء والقضاة ضاهت تتبكتو مثيلاتها من الحواضر الإسلامية في شتى مجالات الثقافة العربية الإسلامية المتداولة في ذلك العصر.

ولعل من عوامل الازدهار الذي عرفته هذه المدينة والذي بلغ أوجه خلال القرن السادس عشر، العناية الفائقة التي كانت تمنح لأهل العلم والثقافة بالمدينة الذين كانوا موضع تقدير وتبجيل، إذ يحصلون على مرتبات كبيرة ويتمتعون بمكانة وتقدير عاليين.

وشجعت هذه الظروف على انتشار المدارس بتبكتو، إذ تذكر بعض المصادر أنها بلغت في القرن السادس عشر، وهو العصر الذهبي للمدينة، مائة وثمانين مدرسة يؤمها خمسة وعشرون ألف طالب.

ولم تكن تنبكتو سوق بضائع استهلاكية تقليدية فحسب، بل أصبحت سوقا ثقافية وعلمية، فقد كانت تباع في المدينة أعداد كبيرة من الكتب الواردة من الشمال الإفريقي والمشرق العربي حيث تدر أرباحا تفوق أحيانا ما كان يجنيه الناس من بيع السلع التجارية الأخرى.
أما على الصعيد الاستراتيجي:

فقد منح موقع تنبكتو على منحنى نهر النيجر وفي موضع يتوسط مناطق جغرافية وحضارية متعددة للمدينة أهمية كبيرة.

كما أن انتشار الدين الإسلامي بالمنطقة وتشبث السكان بهذا الدين ورفضهم استقبال الغرباء جعل الأوروبيين في حيرة من أمر منطقة تنبكتو وما تخفيه من أسرار وما قد تتوفر عليه من امكانيات اقتصادية وبشرية وعسكرية قد تعرقل محاولات التوغل الأوروبي في أعماق القارة السمراء.

ومن خلال هذه الأدوار المتعددة التي تضطلع بها مدينة تنبكتو وما تمثله مناطق الأنهار من أهمية في التنافس الاستعماري يمكننا أن نفهم العناية التي أولاها الفرنسيون والبريطانيون على وجه الخصوص للوصول إلى هذه المدينة وجمع المعلومات المتعلقة بها.

ويبدو التنافس الفرنسي البريطاني واضحا بخصوص السبق إلى المدينة، فحين طلب رني كايتي من السير نيل كام بيل (Sir Nill Campbell) الحاكم البريطاني في السيراليون مبلغ 6000 فرنك لتمويل رحلته المنتظرة إلى تنبكتو رد عليه بوضوح: "إن الميجر البريطاني لينغ¹ (Laing) الذي يسعى للوصول إلى تلك المدينة من

¹ - هو مستكشف اسكتلندي عهد إليه بمغادرة طرابلس الغرب لاكتشاف تنبكتو والتجول داخلها ووصف هذه المدينة ومنطقتها. وقد تمكن هذا الشاب الإنجليزي، بعد معاناة من الوصول إلى

الشمال أحق بشرف السبق إلى ذلك الاكتشاف ولا ينبغي بالتالي انتزاع ذلك الشرف منه.¹

وختاماً فإذا كانت تنبكتو قد أثارت على مدى قرون خيال الأوروبيين بحيث عدوا الوصول إليها شرفاً يتنافسون فيه فنسجوا حولها الأساطير وتسابقوا إلى دخولها متجشمين مصاعب السفر ومخاطر اقتحام المجهول الممانع²، فإنها في الوقت الراهن (2006) ورغم ما عانتته من كساد وتراجع -وبعد أن أصبح العالم قرية كونية واحدة- ما تزال تجتذب الغربيين أكثر من غيرهم. فأغلبية السياح الذين يصلون تنبكتو اليوم هم ألمانيون وكنديون وأمريكيون يأتي الكثير منهم في سياحة ثقافية من أهم أهدافها ختم جواز السفر في هذه المدينة الساحرة.

ولكن ألا تستحق تنبكتو، وهي عاصمة الإسلام في بلاد السودان وجوهرة الصحراء والحاضرة الإسلامية العريقة في المنطقة، بعضاً من اهتمام السياح ورجال الأعمال وفاعلي الخير العرب والمسلمين إنفاذاً لتراثها الإسلامي المهدد بفعل التهميش والعزلة اللذين تفرضهما عليها اليوم عوامل التاريخ والجغرافيا؟

أهم المصادر والمراجع:

- ✓ ANCELLE (J., capitaine de génie), **Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines, depuis l'antiquité jusqu' à nos jours**, Paris, Maisonneuve Frères et Ch. Leclerc, 1886, 445 p.
- ✓ ANONYME, **Hommes et destins, dictionnaire bibliographique d'Oltre Mer**, Paris, 9 tomes, 1975-1989, t.-1, 1975.

تنبكتو في إبريل 1826 ليغادرها في سبتمبر من السنة نفسها متوجهاً إلى أروان. إلا أن جماعة من قبيلة البرابيش البيضاء قتله على مقربة من تنبكتو.

¹ - Sir Nil CamBell ne me parla pas de M. Beaufort, mais du major Laig, à qu'il ne fallait pas tenter d'arracher la gloire d'arriver le premier à Tombouctou, et sous ce prétexte il rejeta ma proposition", René Caillié, **Voyage ...**, op.cit., t.-1, p. 190.

² - تبرز عبارة رني كايي "أحمل في حقيبتي قرار إعدامي" مستوى المخاطر التي كان الرحالة الأوروبيون يتعرضون لها خلال محاولاتهم الوصول إلى تنبكتو. انظر:

René Caillié, **Voyage ...**, op.cit., t.-1, p. 37..

- ✓ BARRY (Boubacar), **Le royaume du Waalo, le Sénégal avant la conquête**, Paris, Editions Karthala, 1985, 421 p.
- ✓ BIZIERE (Jean Maurice) et autres, **Dictionnaire de la biographie. Le XIXème siècle**, Paris, Armand Colin, 1994, t.-5, 252 p.
- ✓ BROCC (Numa), **Dictionnaire illustré des explorateurs français au XIXème siècle**, I, **Afrique**, Paris, Editions du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, 1983, 316p.
- ✓ CAILLIE (René), **Journal d'un voyage à Tombouctou et à Jenné dans l'Afrique centrale**, précédé d'observations faites chez les Maures Braknas, les Nalous et les autres peuples pendant les années 1824, 1825, 1826, et 1829, Paris, Imprimerie Royale, 1830, 2 tomes, I: XII+476; II: 427.); Dernière Edition, **Voyage à Tombouctou**, Paris, 1989, Editions La Découverte, 2 t., 291 et 373 p.
- ✓ CHAILLEY (Marcel), **Les grandes missions françaises en Afrique Occidentale**, Dakar, Initiations africaines, IFAN., 1953, 145 p.
- ✓ DESCHAMPS (Hubert), **L'Europe découvre l'Afrique. Afrique Occidentale (1794-1900)**, Editions Berger Levrault, Paris, 1967, 282 p.
- ✓ GRAY (William) et DOCHARD (F.), **Voyage dans l'Afrique occidentale pendant les années 1818, 1819, 1820 et 1821 depuis la rivière de Gambie jusqu'au Niger**, Traduit de l'anglais par Mme Charlotte Huguot, Paris, Avril de Gastel, 1826, 319 p.
- ✓ GROS (Jules), **Nos explorateurs en Afrique**, Paris, collection Picard, sans date, 288 p.
- ✓ JOMARD (Edmé François), **Remarques et recherches géographiques sur le voyage de Caillié dans l'Afrique centrale**, Imprimerie Royale, Paris, 1830, 406 p.
- ✓ LAMANDE (André) et NANTEUIL (Jacques), **La vie de René Caillié, vainqueur de Tombouctou**, Paris, Librairie Plon, 1928, 284 p.

- ✓ LEJEUNE (Dominique), *Les sociétés de géographie en France et l'expansion coloniale au XIXème siècle*, Paris, Editions Albin Michel, 1993, 236 p.
- ✓ MONSERAT, *Mémoire inédit de Monserat sur l'histoire du Nord du Sénégal de 1818 à 1839*, publié et commenté par Boubacar Barry, BIFAN, Série B., t.-XXXII, n°1, janvier 1970, pp. 1-43.
- ✓ PARK (Mungo), *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, Paris, Maspéro, 1980, 355 p.
- ✓ PREVOST (sous la direction de), *Dictionnaire de la Bibliographie Française*, Paris, Librairie Letouzey, 1933-1994, 18 tomes.
- ✓ Plusieurs sites trouvés par Google.fr.

- ✓ ابن بطوطة (محمد اللواتي الطنجي)، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة
النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، 1968.
- ✓ السعدي (الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر)، تاريخ
السودان، تحقيق وترجمة هوداس، باريس، 1981.
- ✓ كعتي (القاضي محمود بن الحاج)، تاريخ الفتاش، تحقيق وترجمة
هوداس، باريس، 1913.
- ✓ ابن محمدين (محمود)، المجتمع البيضاوي في القرن التاسع عشر (قراءة
في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، أطروحة دكتوراه، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة
محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، 2001.
- ✓ الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد
الأخضر، الرباط/بيروت، 1983.

علاقة الحق في التنمية بتنمية الموارد البشرية

د. لعلى بوكميش¹

جامعة أدرار - الجزائر

boukemiche@yahoo.com

الملخص:

تعد التنمية الشاملة هدفاً سامياً لمختلف الخطط والسياسات المطبقة في جميع الدول سواء كانت فقيرة أو غنية، والوصول إلى هذه التنمية الشاملة لا يتحقق إلا من خلال تنمية الموارد البشرية، هذه التنمية التي توفر للموارد البشرية الغذاء اللازم، والرعاية الصحية المطلوبة، والتعليم والتدريب اللازمين، وتؤهّلها لتكون قادرة على إحداث التنمية والتغير الذي ينشده المجتمع. وقد ظهر إعلان الحق في التنمية سنة 1986 كوثيقة دولية تؤكد على حق الأفراد والشعوب في التنمية وتدعو الحكومات والمجتمع الدولي للعمل من أجل ذلك. وفي هذه المقالة حاولنا إبراز علاقة الحق في التنمية بتنمية المورد البشرية، وذلك على أساس أن الاعتراف بحق الأفراد والشعوب في التنمية وإقرار ذلك سوف يؤدي إلى تحقيق تنمية الموارد البشرية.

الكلمات المفتاحية: الحق في التنمية، تنمية الموارد البشرية.

The relationship between the right of Development and Human development

¹ (*) - نائب مدير الجامعة مكلف بالتنشيط وترقية البحث العلمي والعلاقات الخارجية والتعاون.

The abstract:

The total development is considered as an ideal objective to different politics and planning's applied in all countries wither they are poor or rich. Thus, we can not realize this total development without developing human resources, this development which provides to humans food, health and needed education which enables the to be able to change and develop in society.

The bill of the right development appeared in 1986 as an international act enforces the right of individuals and people for development and asked governments to work for it.

In these papers I tried to draw a clear picture between the rights of individuals in development to develop human resources. This because the confession of individual and people rights of development leads of course to develop human resources.

Key words: the right of development, human development.

مقدمة:

إن التحولات التي يعيشها العالم اليوم ضمن إطار ما يسمى بالعولمة والثورة التي يعيشها العالم في مجال التكنولوجيا والمعلوماتية، تحتم ضرورة الاهتمام بشكل مستمر بتنمية الموارد البشرية سواء من حيث تلبية احتياجاتها الأساسية، أو من حيث تكوينها وزيادة فرص توظيفها في السوق الدولية للعمل، هذه الأخيرة التي أصبحت تعتمد كثيرا على الرأس المال المعرفي.

لقد أصبح موضوع تنمية الموارد البشرية من بين القضايا الهامة التي باتت تشغل اهتمام القادة والمفكرين ليس فقط في الدول النامية وإنما حتى في الدول المتقدمة، فالموارد البشرية أصبحت تعتبر الركيزة الأساسية لتنفيذ مشاريع وبرامج التنمية، وهكذا فإن تحقيق التنمية الشاملة لا يمكن أن يتم دون وجود موارد بشرية تتوفر فيها مواصفات معينة، هذه المواصفات لا تأتي هكذا جزافا بل لا بد من وجود جهود حقيقية تعمل على تنمية وتطوير هذه الموارد وهو ما يصطلح عليه بتنمية الموارد البشرية.

وفي سنة 1986 ظهر إعلان الحق في التنمية لينادي بضرورة ووجوبية تنمية الأفراد الشعوب والدول، فهو بذلك قد ألقى التزاما قانونيا على الدول وعلى المجتمع الدولي ووفر إطارا قانونيا لعملية التنمية سواء ما تعلق منها بتنمية الموارد البشرية أو بالتنمية الشاملة، وهكذا فإن الدولة أو الدول أو المجتمع الدولي كل حسب اختصاصه وإمكانياته قد أصبحوا مسئولين عن تنمية الإنسان سواء كفرد أو مجموعة أو كشعب أو كمجتمع دولي.

إن المتأمل لواقع العالم اليوم يجد فيه العشرات من الملايين ممن يعانون من الجوع والأمية وانعدام الرعاية الصحية، بل هناك الملايين ممن فقدوا حياتهم وممن أصبح حقهم في الحياة مهدد بسبب الحروب الدولية والأهلية.

إن الحق في التنمية في واقع الأمر يدعو إلى تنمية الإنسان بتوفير الغذاء والتعليم والرعاية الصحية، وكذلك إعطائه حرية التعبير وحقوقه وحياته السياسية وغير ذلك، ولا يقف عند هذا الحد بل يدعو إلى توفير الأمن والطمأنينة له وإبعاد شبح الحروب والنزاعات عنه، كما يدعوا المجتمع الدولي إلى التعاون والتكافل فيما بينه لتحقيق في النهاية تنمية الموارد البشرية وتحقيق التنمية الشاملة.

من خلال ما سبق فإن إشكالية هذه المداخلة تتمثل في بحث علاقة الحق في التنمية بتنمية الموارد البشرية، وذلك من خلال محاولة الإجابة على التساؤل الرئيسي الذي مؤداه: - ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه تفعيل أو إعمال الحق في التنمية في تنمية الموارد البشرية؟

وللإجابة على هذا التساؤل تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، وتم تقسيم هذا البحث إلى ثلاث مباحث أساسية، تم التطرق في المبحث الأول إلى تعريف الحق في التنمية وبيان نشأته، أما المبحث الثاني فتم التطرق فيه إلى تعريف تنمية الموارد البشرية وبيان مرتكزاتها وأهدافها ومؤشرات قياسها وتوضيح أهميتها، أما المبحث الثالث فقد تم التطرق فيه إلى علاقة الحق في التنمية بتنمية الموارد البشرية وتحديد الآليات الوطنية والدولية الضرورية لإعمال هذا الحق من أجل تحقيق هذه التنمية.

المبحث الأول: الحق في التنمية

سوف نتطرق في هذا المبحث إلى تعريف الحق في التنمية وتوضيح نشأته.

أولاً- تعريف الحق في التنمية:

يجدر بنا قبل الحديث عن الحق في التنمية وتعريفه أن نحدد المقصود "بالتنمية".

إن أول استخدام لكلمة تنمية " DEVELOPPEMENT " بالمعنى المعاصر يرجع إلى " يوجين ستيلي " " EUGENE STALYE "، الذي اقترح خطة لتنمية العالم سنة 1939¹.

وقد انتشر استخدام هذا المفهوم بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد موجة التحرر التي شهدتها دول العالم الثالث، والتي كانت قابضة تحت الاستعمار، ومن ثم ظهرت التنمية كآلية للقضاء على التخلف والوصول إلى مصاف الدول المتطورة. وفي البداية ظهر مفهوم التنمية الاقتصادية، التي تركز على العوامل الاقتصادية لإحراز التنمية، وهي تهدف إلى " تضيق الفجوة في دخل الفرد بين الدول المتقدمة والدول الفقيرة²، وزيادة الدخل القومي.

ولكن بعد الستينات من القرن الماضي تغير مدلول التنمية، حيث تأكد أنه لا يمكن الاعتماد على العوامل الاقتصادية وحدها لتحقيقها، بل لا بد من الاهتمام والتركيز

¹ إسماعيل العربي(1994)، التنمية الاقتصادية في الدول العربية والمغرب العربي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 32.

² نفس المرجع، ص 33.

على العديد من العوامل المختلفة والمتنوعة الاقتصادية منها والاجتماعية والثقافية والسياسية والإدارية¹.

وتعرف التنمية وفق التصور الحديث بأنها: " تعني حصيلة تفاعلات سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية متداخلة ومستمرة، تشكل كل منها - وبدرجة متفاوتة - عاملا مستقلا وتابعا في آن واحد"².

كما تعرف أيضا بأنها: " التحريك العلمي المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من خلال إيديولوجية معينة، لتحقيق التغيير المستهدف من أجل الانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب الوصول إليها"³.

وبالرجوع إلى " إعلان الحق في التنمية " نجده يعرف التنمية في الفقرة الثانية من الديباجة بأنها: " عملية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية شاملة تستهدف التحسين المستمر لرفاهية السكان بأسرهم والأفراد جميعهم"، والمقصود هنا جميع السكان في الدولة الواحدة وفي العالم بأسره، وجميع الأفراد بدون تمييز بينهم .

¹ voir: - Charles Debbasch(1972), Science Administration, Paris: Dalloz, 2 émmé édition, pp. 3-4.

- Gérard Timist(1986), Théorie de L'Administration, Paris: Edition Economisa, pp. 335-340.

² - محمد صادق(1983)، إدارة التنمية وطموحات التنمية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، عمان، الأردن، ص 20.

³ عاطف غيث، في تقديمه لكتاب، نبيل السمالوطي(1974)، علم اجتماع التنمية: دراسة في اجتماعيات العالم الثالث، الإسكندرية:الهيئة المصرية العامة للكتاب، صVI-V.

من خلال ما سبق يمكن تعريف التنمية بأنها التغيير والتطوير والتحسين الواعي والمقصود والمنظم في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإدارية، بهدف الانتقال بالمجتمع من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوبة. بعد أن عرفنا المقصود بالتنمية يمكننا الآن التعرف على "معنى الحق في التنمية" يعرف "ك. فاساك" الحق في التنمية بأنه: "حق موحد يضم عددا من حقوق الإنسان المعترف بها، ويعززها من أجل إعطاء قوة دفع فعالة لإقامة نظام اقتصادي جديد"¹.

نلاحظ من هذا التعريف أن الحق في التنمية هو حق مركب من عدد من حقوق الإنسان المعترف بها، أي الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما أن هذا التعريف يؤكد بأن الحق في التنمية يعمل على تعزيز هذه الحقوق، أي إعمالها وتحقيقها حتى يمكن الوصول إلى نظام اقتصادي دولي جديد، وكأن إعمال الحق في التنمية والتمتع بالحقوق المكونة له لا يتم إلا في إطار نظام اقتصادي جديد، وعندما نتكلم عن نظام اقتصادي جديد فإن المقصود بذلك نظام عالمي تسوده العدالة والمساواة والتضامن بين الشعوب والدول، وينتهي فيه الاستغلال والهيمنة على الدول المتخلفة والفقيرة.

ويعرف "أوريلوس كريستسكو" الحق في التنمية بأنه: "يعني خطى التقدم الضرورية للتمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أعلنها الإعلان العالمي

¹ - نقلا عن: راؤول فيريرو (1986)، النظام الاقتصادي الدولي الجديد وتعزيز حقوق الإنسان، منشورات الأمم المتحدة، ص 35.

لحقوق الإنسان، والاتفاقية الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية¹

نلاحظ أن هذا التعريف قد ربط بين الحق في التنمية ومسألة التطور أو التقدم في التمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، أي انه يشكل المحصلة النهائية لإعمال هذه الحقوق، كما نلاحظ على هذا التعريف بأنه اقتصر فقط على الجيل الثاني وأغل الجيل الأول من حقوق الإنسان (الحقوق المدنية والسياسية).

وبالرجوع إلى إعلان الحق في التنمية نجده يعرف الحق في التنمية بأنه: "حق من حقوق الإنسان غير قابل للتصرف، وبموجبه يحق لكل إنسان ولجميع الشعوب المشاركة والإسهام في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية، والتمتع بهذه التنمية التي يمكن فيها إعمال جميع حقوق الإنسان والحريات الأساسية"².

نستخلص من هذا التعريف أن الحق في التنمية واحد من حقوق الإنسان غير قابل للمساومة، وانه عن طريق إعمال هذا الحق يمكن تحقيق التنمية الشاملة في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والتمتع بها (أي نتائج التنمية)، وهذه التنمية المحققة هي التي تشكل البيئة الملائمة للتمتع بجميع حقوق الإنسان والحريات الأساسية.

من خلال التعاريف والتعاليق السابقة يمكن تحديد خصائص الحق في التنمية في الآتي:

¹ أوريليوس كريستسكو(1981)، تقرير المصير وتطوره التاريخي من خلال صكوك الأمم المتحدة، منشورات الأمم المتحدة، ص 104.

² - المادة رقم (1) من إعلان الحق في التنمية الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1986.

- أنه حق مركب من عدد من حقوق الإنسان (الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية).
- أنه من حقوق الإنسان غير القابلة للمساومة.
- أنه حق يهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة، وإحداث عملية التنمية الشاملة في جوانبها وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.
- أنه وسيلة للتمتع بحقوق الإنسان وحياته الأساسية (الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية).
- أنه حق يحتاج في تحقيقه إلى تغيير النظام الاقتصادي الدولي، وإقامة نظام جديد يقوم على العدل والمساواة وإنهاء حالة الاستغلال ركيز التعاون والتضامن في العلاقات الدولية.

وهكذا يمكن تعريف الحق في التنمية بأنه حق مركب من عدد من حقوق الإنسان المعترف بها، ويهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة وتحقيق تنمية شاملة في أبعادها المختلفة، للوصول إلى التمتع بحقوق الإنسان وحياته الأساسية، ويتطلب إعمال هذا الحق إقامة نظام اقتصادي جديد يقوم على التعاون والتضامن الدولي وإنهاء حالة التبعية والاستغلال وتقليل الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة¹.

ثانيا- نشأة الحق في التنمية:

لقد مرت نشأة الحق في التنمية بالعديد من المراحل والتطورات، وما اعتمد إعلان الحق في التنمية سنة 1986 إلا كتتويج لسلسلة مراطونية من المداولات والجهود

¹ - في إطار التأكيد على تحرير الدول الفقيرة وإنهاء استغلالها وتنميتها يقول "هكتور غروس أسبيل" أن: "الحق في التنمية الكاملة للفرد هو حق أساسي يشترط ويتضمن في الوقت نفسه الحق في تنمية الدول والشعوب النامية". أنظر: راؤول فيريرو، المرجع السابق، ص 35.

الدولية بشأن حقوق الإنسان، التي اعتبرت منذ البداية بأنها مجموعة واحدة ومتكاملة من الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. هذه الفكرة (وحدة حقوق الإنسان) بدأت في إعلان فيلادلفيا لمؤتمر العمل الدولي سنة 1944، وتجسدت في ميثاق الأمم المتحدة الذي تم اعتماده في السنة الموالية، وفي سنة 1948 أقر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بشكل واضح هذه الفكرة. وبعد اعتماد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان كان من المفترض أن يبدأ العمل بإعداد عهد واحد يشمل جميع الحقوق المبينة فيه لمنحها صبغة معاهدة دولية، ولكن نظرا للانقسام الذي شهده العالم بعد الحرب العالمية الثانية وظهور الحرب الباردة، وبدلا من أن تدون تلك الحقوق في عهد واحد دونت في عهدين دوليين سنة 1966، أحدهما خاص بالحقوق المدنية والسياسية والآخر خاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولكن هذا التقسيم لم يرضي المجتمع الدولي، ففي سنة 1968 ذكر إعلان طهران: " نظرا لكون حقوق الإنسان وحرياته الأساسية غير قابلة للتجزئة فإنه يستحيل التحقيق الكامل للحقوق المدنية والسياسية من غير التمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"¹. وقد أكد الإعلان حول التقدم والإنماء في الميدان الاجتماعي لسنة 1969 على الترابط الوثيق بين هاتين المجموعتين.

¹ - أرجون ك. سانغويتا، دراسة عن الحالة الراهنة للتقدم المحرز في تنفيذ الحق في التنمية، تقرير مقدم إلى لجنة حقوق الإنسان، الأمم المتحدة، الدورة السادسة والخمسون، جنيف، 13-17 أيلول/سبتمبر 1999، ص3.

وخلال فترة السبعينات قام المجتمع الدولي، ممثلاً في الوكالات الرسمية وفي الهيئات الأكاديمية غير الرسمية والمنظمات غير الحكومية، ببحث ومناقشة مختلف جوانب الحق في التنمية بصورة متكررة.

وفي سنة 1977 أوصت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة في الفقرة الرابعة من القرار رقم 4 (د-33) المؤرخ في 21 فيفري من نفس السنة، بأن يقوم الأمين للأمم المتحدة بالتعاون مع اليونسكو والوكالات المتخصصة الأخرى لإجراء دراسة حول موضوع: "الأبعاد الدولية للحق في التنمية كحق من حقوق الإنسان من حيث علاقته بحقوق الإنسان الأخرى القائمة على التعاون الدولي بما في ذلك الحق في السلم".¹

وفي سنة 1979 قامت لجنة حقوق الإنسان في قرارها رقم 5 (د-35) المؤرخ في 2 مارس من نفس السنة، بإدخال عدة مفاهيم لتوجه عملها المقبل حول الحق في التنمية بصفته أحد حقوق الإنسان الأساسية، وقد صدرت في هذا الإطار بعد ذلك قرارات الجمعية العامة التالية: القرار رقم 46/34 المؤرخ في 23 نوفمبر 1979، والقرار رقم 174/35 المؤرخ في 15 ديسمبر 1980.

¹ - هناك خلط في هذه المسألة بين المرجعين التاليين: - أرجون لك، سانغويتا، المرجع السابق، ص3،

وعمر سعد الله (1994)، حقوق الإنسان وحقوق الشعوب: العلاقة والمستجدات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، هامش صفحة رقم 168. نكن الباحث يرجح ما ذكره الدكتور سعد الله.

واستمرت التقارير والمناقشات في لجنة حقوق الإنسان والجمعية العامة وانتهت بصياغة مشروع إعلان الحق في التنمية والذي اعتمدته الجمعية العامة في كانون الأول/ ديسمبر 1986¹.

وما تجدر الإشارة إليه أن إعلان الحق في التنمية لسنة 1986 لم يستند إلى إجماع كامل في الآراء، رغم كونه قد حظي بدعم كبير من طرف أغلب الحكومات، الأمر الذي أدى في السنوات اللاحقة إلى بروز العديد من المحاولات لزيادة درجة التوافق في الآراء أو الإجماع، وتم ذلك من خلال عقد العديد من المؤتمرات والمفاوضات الدولية بلغت ذروتها في المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان المنعقد في فيينا سنة 1993، أين تم التوصل إلى توافق سياسي وذلك بعد أن تم التسليم بأن الحق في التنمية حق عالمي وغير قابل للتصرف وجزء لا يتجزأ من حقوق الإنسان الأساسية.

وتم تعزيز هذا التوافق في إعلان "ريو دي جانيرو" بخصوص البيئة والتنمية، وإعلان المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد في "القاهرة"، وإعلان مؤتمر القمة العالمي للتنمية الاجتماعية المنعقد في "كوبنهاغن"، ومنهاج عمل المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة المنعقد في "بيكين"².

ونتيجة لهذا الاتفاق لم يعد يوجد هناك تحيز لتقرير مجموعة من الحقوق على حساب المجموعة الأخرى، وإنما أصبح الآن العمل المطلوب هو إعمال هذه الحقوق جميعاً، وأي انتهاك لواحدة منها يعتبر انتهاكاً لجميع الحقوق، وهكذا فقد

¹ - قام بإعداد إعلان الحق في التنمية فريق الخبراء العامل المعني بالحق في التنمية التابع للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة.

² - أرجون ك. سانغويتا، المرجع السابق، ص 4.

انتقل المجتمع الدولي إلى دراسة مسألة إعمال هذه الحقوق كجزء من الحق في التنمية، وأصبح تأمين إعمال الحق في التنمية يشكل جانبا كبيرا من اهتمامات الدول والحكومات، نظرا لكون إعماله يحمل في طيا ته إعمال العديد من حقوق الإنسان.

المبحث الثاني: تنمية الموارد البشرية

سوف نتطرق في هذا المبحث إلى تعريف تنمية الموارد البشرية وبيان مرتكزاتها وأهدافها ومؤشرات قياسها وأخير توضيح أهميتها.

أولاً- تعريف تنمية الموارد البشرية:

قبل أن نتطرق إلى تعريف ماهية تنمية الموارد البشرية، فإننا نرى بداية ضرورة تحديد المقصود بالموارد البشرية؟

تستخدم المؤسسات على اختلافها نوعين من الموارد لتحقيق أهدافها، الموارد المادية والموارد البشرية، وهذا النوع الأخير هو المحرك والمستخدم للنوع الأول. ويقصد بالموارد البشرية في المشروعات (المؤسسات) جميع الأفراد الذين يعملون بها، بينما يقصد بها في الدولة جميع الأفراد الذين يحملون جنسية هذه الدولة وقيمون بها بصفة دائمة¹.

غير أننا نرى بأن الموارد البشرية تشمل جميع السكان المقيمين في دولة معينة سواء كانوا أصليين أو غير أصليين .

¹ - نفس المرجع والصفحة.

ومفهوم الموارد البشرية يضع الإنسان على نفس مستوى الموارد المجتمعية الأخرى إلا أنه مورد من أغلى الموارد، فهو القادر على تحويل الموارد الطبيعية الأخرى إلى طاقة منتجة ونافعة، ذلك أن الإنسان هو صانع هذا التحول في الموارد الأخرى وهو الموظف لها، وهو بذاته مورد لا تتضب طاقاته وهو في نهاية الأمر الغاية والهدف الذي من أجله يتم استثمار وتشغيل طاقات مختلف الموارد الأخرى¹. وبشكل مختصر فإن الموارد البشرية هم البشر الموجودين في أي دولة أو مؤسسة أو نقطة من العالم.

بعد أن عرفنا معنى الموارد البشرية بقي علينا أن نعرف معنى تنمية الموارد البشرية؟

تعرف تنمية الموارد البشرية بأنها: "إعداد العنصر البشري إعداداً صحيحاً بما يتفق واحتياجات المجتمع، على أساس أنه بزيادة معرفة وقدرة الإنسان يزداد ويتطور استغلاله للموارد الطبيعية، فضلاً عن زيادة طاقاته وجهوده"².

وقد أشار تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1990 أن التنمية البشرية تعنى بتوسيع نطاق الاختيار أمام الأفراد وذلك بزيادة فرصهم في التعليم والرعاية الصحية والدخل والعمالة³.

وهكذا لا يظهر هناك تعارض بين التعريفين السابقين، فتنمية الموارد البشرية تركز بشكل أساسي على تحسين الظروف الحياتية للإنسان من ناحية الصحة والتعليم

¹ - مكتب العمل العربي، "الموارد البشرية العربية ودورها في الحياة الاقتصادية"، مجلة العمل العربي، منظمة العمل العربية، القاهرة، عدد (98)، 1997، ص 117.

² - نفس المرجع، ص 118.

³ نفسه.

والحياة الكريمة، وبهذه الإجراءات يمكننا توفير الموارد البشرية القادرة على إحداث عملية التنمية المستدامة والشاملة .

وقد أشار " مكتب العمل العربي"¹ أن مفهوم تنمية الموارد البشرية قد تطور، ولم يعد يقتصر فقط على التعليم والتدريب، بل أصبح يركز على تطوير أنماط التفكير والسلوك، ونوعية التعليم والتدريب، ونوعية مشاركة الجمهور في اتخاذ القرارات والعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد، وثقافة الشعوب، وطرق وأساليب العمل والإنتاج أي تعبئة الناس بهدف زيادة قدراتهم على التحكم في مهاراتهم وقدراتهم. وهكذا نستخلص بان التنمية البشرية أصبحت تتسم بالشمولية والاتساع ولم تعد تقتصر فقط على جوانب الصحة والتعليم.

وما يجب التأكيد عليه أن تنمية الموارد البشرية انتقلت من كونها تركز على الجوانب التقليدية (الصحة، الغذاء، محاربة الأمية) إلى إضافة أبعاد أخرى تتعلق بمحو الأمية المعلوماتية والتركيز على الكفاءة والتدريب لهذه الموارد، وانتقلت من التركيز على تنمية الموارد البشرية ضمن إطار الدولة الواحدة أو مراعاة الظروف الداخلية لهذه الدولة إلى التركيز على تحليل الظروف الدولية العالمية التي نتجت عن ظاهرة العولمة وتوحد أسواق العمل الدولية.

ثانياً - المرتكزات الرئيسية لعملية تنمية الموارد البشرية:

تشير تقارير الأمم المتحدة أن تنمية الموارد البشرية تركز على ثلاثة محاور أساسية، تتمثل في الآتي²:

¹ - تقرير التنمية البشرية لعام 1990، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وكالة الأهرام للتوزيع، القاهرة، مصر، 1991، ص1.

² - مكتب العمل العربي، المرجع السابق، ص 119.

1 - أن يعيش الناس حياة مديدة وصحية (خالية من الأمراض) .

2- أن يكتسبوا المعارف (التعلم) .

3- أن يحصلوا على الموارد اللازمة لمستوى معيشة لائق.

وقد حددت الجمعية العلهة للأمم المتحدة مرتكزات تنمية الموارد البشرية في ما يلي¹:

1- اعتماد نهج شامل محكم الإعداد ومتكامل يجعل المنظور المتعلق بنوع الجنس

في الصميم، ويراعي احتياجات الناس، رجال ونساء، ويضم مجالات حيوية

من قبيل السكان والصحة والتغذية والمياه والمرافق الصحية والإسكان

والاتصالات والتعليم والتدريب والعلم والتكنولوجيا، ويأخذ في الاعتبار أيضا

الحاجة إلى توفير مزيد من فرص العمل، في إطار بيئة تكفل الحرية

السياسية، والمشاركة الشعبية، واحترام حقوق الإنسان، والعدل والإنصاف، وهي

جميعا أمور أساسية لتعزيز القدرة البشرية على مواجهة تحديات التنمية؛

2- تطبيق السياسات اللازمة لكفالة تنمية الموارد البشرية، عن طريق التعليم

والتدريب، وبالسعي، حيثما أمكن، إلى زيادة التقبل للابتكارات التكنولوجية، بما

في ذلك الابتكارات في ميدان تكنولوجيا المعلومات؛

3 - ضمان مشاركة المرأة مشاركة كاملة في وضع وتنفيذ السياسات الوطنية

الرامية إلى تعزيز تنمية الموارد البشرية.

¹ - حامد عمار (1987)، " العوامل الاجتماعية في التنمية " ورقة مقدمة ضمن بحوث ومناقشات

ندوة تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي المنعقدة في الفترة من 18-29 نوفمبر 1987،

بالكويت، ص 1.

ويرى الدكتور " سعيد إسماعيل علي" أن يركز مفهوم التنمية البشرية يركز على العناصر التالية¹:

- فسح المجال أمام المجتمع المدني للمشاركة في عملية التنمية وعدم الاقتصار فقط على مساهمة الأجهزة الحكومية.

- إبراز القضايا الرئيسية التي تهم المجتمع والتي تعد أكثر إلحاحا.

- محورة أو مركزة عمليات التخطيط للتنمية وتنفيذها حول العدل وحقوق الإنسان والديمقراطية.

- معرفة وترجمة آراء وتطورات ومفاهيم المواطنين وأولوياتهم في التنمية.

بالإضافة إلى ما سبق يرى الدكتور "حامد عمار" أن المحاور الرئيسية لعملية تنمية الموارد البشرية تتمثل في ما يلي²:

1- مدى إشباع الحاجات الأساسية للنمو الجسدي: وتشمل الغذاء، والماء، والكساء، والصحة والسكن، وحماية الجسم من الاعتداء والإصابة.

¹ - القرار رقم 52 / 196 المتعلق بتنمية الموارد البشرية لأغراض التنمية، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلستها العامة رقم 77 بتاريخ 18 كانون الأول/ديسمبر 1997.

² - سعيد إسماعيل علي(2001)، حقوق الإنسان والتنمية البشرية، مجلة الديمقراطية(القاهرة)، عدد 03، ص 93 (بتصرف).

2- مدى إشباع الحاجات الاجتماعية والثقافية: وتشمل التعليم وتحصيل المعرفة، وتنمية المهارات والمواهب، والعمل النافع المجزي للفرد والمجتمع، والتواصل الاجتماعي من خلال إتاحة المعلومات والخبرات وتكوين الوعي الاجتماعي.

3- مدى إشباع الحاجات النفسية: وتشمل الطمأنينة وإبعاد عوامل الخوف والقلق والمحبة، والاعتراف بقيمة الإنسان في أسرته ومحيطه الاجتماعي، حب الاستطلاع والتجربة والاختبار واكتساب الخبرة، والانتماء والهوية.

4- مدى القدرة على المشاركة في صنع القرار ومتابعة تنفيذه وتقييمه، والمشاركة العادلة في ثمرات العمل.

5- مدى إشباع الحاجات المعنوية: وتشمل القدرة على التعبير دون كبت أو قهر، القدرة على الفعل والتأثير، القدرة على إبعاد الظلم والتعسف، القدرة على التجديد والابتكار والإبداع.

وهكذا نلاحظ بان مرتكزات وجوانب تنمية الموارد البشرية كثيرة ومتنوعة وشاملة تمكننا في النهاية من الحصول على مواطن سليم من جميع الجوانب، مواطن يمكن أن يساهم بشكل فاعل ومسؤول في عملية التنمية.

ثالثاً - أهداف تنمية الموارد البشرية:

من خلال التعريف السابق لتنمية الموارد البشرية ومرتكزاتها يمكن تحديد أهداف تنمية الموارد البشرية بشكل عام فيما يلي:

- تمكين الأفراد من العيش بصحة جيدة ولمدة طويلة، وذلك من خلال إشباع الحاجات الأساسية لهم والمتمثلة في توفير الغذاء اللازم والضروري لهم، توفير المياه الصالحة للشرب، توفير الكساء اللازم، توفير المسكن اللائق، توفير المرافق والخدمات الصحية اللازمة.

- تعليم الأفراد والقضاء على الأمية.

- ضمان مشاركة المرأة مشاركة كاملة في كافة مناحي الحياة.

- تكريس الحرية السياسية، والمشاركة الشعبية، واحترام حقوق الإنسان، والعدل والإنصاف.

- تمكين الموارد البشرية من التكيف مع التطورات التكنولوجية.

بالإضافة إلى هذه الأهداف، نجد أن الجمعية العامة للأمم المتحدة قد حددت ثمانية أهداف أساسية للتنمية البشرية خلال الفترة الممتدة من سنة 2000 إلى سنة 2015 وهي¹:

1- استئصال الجوع والفقر الشديدين، وذلك من خلال تخفيض نسبة الذين يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم ونسبة سوء التغذية إلى النصف.

2- تحقيق شمولية التعليم الابتدائي، وذلك بضمان تمكن جميع الأطفال من إكمال التعليم الابتدائي.

¹ - حامد عمار (1987)، المرجع السابق، ص 2.

3- تعزيز المساواة بين الجنسين، وذلك من خلال تمكين النساء من حياتهن وإزالة التفاوت بين الجنسين في التعليم الابتدائي والثانوي.

4- تخفيض نسبة وفيات الطفولة، وذلك بإنقاص نسبة وفيات الأطفال دون الخامسة بمقدار الثلثين.

5- تحسين صحة الأمومة، وذلك من خلال تخفيض معدل الوفيات إبان الحمل والوضع بمقدار ثلاثة أرباع.

6- مكافحة فيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز/السيدا)، والملاريا، وأمراض أخرى. وقف نهائي لانتشار فيروس نقص المناعة الإيدز وأمراض أخرى، والبدء في تقليص هذا الانتشار.

7- ضمان الاستقرار البيئي، وذلك بإنقاص نسبة المحرومين من فرصة مستدامة للحصول على مياه الشرب المأمونة والصرف الصحي الآمن.

8- تطوير شراكة عالمية شاملة للتنمية، وذلك من خلال إصلاح أنظمة المعونات والتجارة، مع تخصيص معاملة خاصة لأفقر البلدان.

رابعاً - مؤشرات قياس تنمية الموارد البشرية:

لقد درجت تقارير الأمم المتحدة على قياس تنمية الموارد البشرية من خلال ثلاثة مؤشرات أساسية، وهي¹:

1- العمر المتوقع عند الولادة: ومعناه عدد السنوات التي من المتوقع أن يحياها طفل حديث الولادة، في حالة استمرار أنماط الوفاة السائدة وقت ولادته على ما هي عليه طوال حياته .

2- معدل القراءة والكتابة بين الكبار: المقصود به النسبة المئوية للأشخاص الذين تبلغ أعمارهم (15) سنة أو أكثر، والذين يستطيعون أن يقرءوا وأن يكتبوا بفهم فقرة بسيطة عن الحياة اليومية.

3- نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي: هو عبارة عن حاصل قسمة الناتج القومي الإجمالي على عدد السكان، وغالبا ما يعبر عن هذا النصيب الدولار، وما يعاب على هذا المقياس كونه لا يعكس حقيقة دخل الفرد.

ولإشارة فانه ويطلق على المقياس الذي يتكون من المؤشرات الثلاثة السابقة اسم دليل أو مؤشر التنمية البشرية (I DH)، وتتراوح قيمة المؤشر بين صفر وواحد (0-1) وتكون دلالة هذا المؤشر حسب الجدول التالي:

جدول رقم (01) دلالة مؤشر التنمية البشرية:

قيمة المؤشر	مستوى التنمية البشرية
أقل من 0.90	تنمية بشرية مرتفعة جدا

¹ -- نور الدين محمود(2006)، تقرير التنمية البشرية، ملف دراسات العام 2005، مركز الدراسات الإستراتيجية، دمشق، ص505.

تتمة بشرية مرتفعة	بين 0.70 و 0.90
تتمة بشرية متوسطة	بين 0.50 و 0.70
تتمة بشرية منخفضة	أقل من 0.5

(المصدر: Claude Grasland, Le Monde dans Tous Ses Etats, Université Paris

(VII, 2000, www..univ-paris7.fr

وقد يتم استخدام مقاييس أخرى إضافية تشمل على: معدل وفيات الأطفال، نسبة السكان الذين يحصلون على مياه مأمونة، عدد السعرات الحرارية يوميا.

وهذا ما قد يؤدي إلى بعض التداخل بين مقاييس تنمية الموارد البشرية والمقاييس المتعلقة بنوعية الحياة Quality of Life Indexes .

من خلال الأهداف سابقة الذكر التي حددتها الجمعية العامة للأمم المتحدة للتنمية البشرية، يمكن تحديد أبعاد ومؤشرات تنمية الموارد البشرية كما هو موضح في هذا الجدول.

جدول رقم (2) يوضح أبعاد ومؤشرات تنمية الموارد البشرية

المؤشرات	الأبعاد
- نسبة الذين يعيشون بأقل من دولار واحد في	1- القضاء على الفقر.

اليوم.	
- نسبة سوء التغذية.	
- مدى تمكن جميع الأطفال من إكمال التعليم الابتدائي.	2- تحقيق شمولية التعليم الابتدائي.
- تمكين النساء من حياتهن وإزالة التفاوت بين الجنسين في التعليم الابتدائي والثانوي.	3- تعزيز المساواة بين الجنسين.
- إنقاص نسبة وفيات الأطفال دون الخامسة بمقدار.	4- تخفيض نسبة وفيات الطفولة.
- تخفيض معدل الوفيات إبان الحمل والوضع بمقدار.	5- تحسين صحة الأمومة.
- مكافحة فيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز) والأمراض المعدية، ووقف انتشارها.	6- مكافحة الأمراض الفتاكة.
- إنقاص نسبة المحرومين من فرصة مستدامة للحصول على مياه الشرب المأمونة والصرف الصحي الآمن.	7- الاستقرار البيئي.

(المصدر: من إعداد الباحث)

وتبدو هذه المجموعة من المؤشرات أكثر شمولية من المؤشرات السابقة، فهي تستبعد المؤشر الاقتصادي ذو البعد الإحصائي والمتمثل في نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي، والذي يحسب بـ حاصل قسمة الناتج القومي الإجمالي

على عدد السكان، فهذا المؤشر غير حقيقي ولا يقدم لنا فعلاً قيمة دخل الفرد، وعليه فيمكن الاعتماد على المؤشرات المحددة في هذا الجدول لقياس تنمية الموارد البشرية، لكونها تقدم قياس شامل ومتعدد الأبعاد لعملية تنمية الموارد البشرية.

وبشكل عام فإن مقاييس تنمية الموارد البشرية تركز على قياس الشروط والمهارات اللازمة للحفاظ على حياة الأفراد وتطوير قدراتهم من أجل المساهمة بشكل فاعل في عملية التنمية.

خامساً- أهمية تنمية الموارد البشرية:

إن أهمية تنمية الموارد البشرية يمكن اكتشافها ولمسها من خلال دور هذه التنمية في صيانة الموارد البشرية الموجودة في الدولة سواء من حيث ضمان حقها في الحياة وتحسين ظروفها الصحية والمعيشية وفسح مجال التعليم والتكوين لها وإبعاد شبح الجهل والأمية عنها، أو من حيث فسخ المجال لها للمشاركة بشكل فاعل في خدمة المجتمع وتسيير شؤونه وتطويره.

ويمكن أن نكتشف أهمية تنمية الموارد البشرية من خلال الوقوف على الدور الهام الذي تلعبه هذه الموارد في المجال الإنتاجي، حيث أنها ساهمت وما تزال تساهم في زيادة الدخل القومي للمجتمعات البشرية عبر التاريخ، فالموارد البشرية هي القوة المحركة للموارد المختلفة ولعناصر الإنتاج المتنوعة، فالذي كان يزرع الأرض هو البشر والذي يشغل الآلة في المصنع هو البشر.

وتعتبر التنمية البشرية من المقومات الأساسية للتنمية الشاملة في أي مجتمع، بل يمكن اعتبارها هي الأساس، فلا توجد تنمية حقيقية في أي مجتمع كان دون تنمية موارده البشرية وتطويرها¹.

وفي هذا الإطار أظهر تقرير التنمية البشرية لعام 1996 أن كل بلد نجح في المحافظة على تنمية إنسانية سريعة ونمو اقتصادي سريع إنما تم له ذلك بعد أن سرع التقدم في التنمية الإنسانية أولاً أو سعى إلى تحقيق الهدفين في آن واحد². إن الدول التي لا تملك موارد طبيعية كافية لا يمكن الحكم عليها بالفناء والفشل 'ذا عرفت كيف تستثمر في تنمية مواردها البشرية، وخير مثال على ذلك اليابان المشهورة بشح مواردها الطبيعية استطاعت من خلال اعتمادها على تنمية مواردها البشرية من تحقيق تقدم تكنولوجي هائل واحتلال الرتبة الثانية عالمياً من حيث القوة الاقتصادية بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد أصبحت تنمية الموارد البشرية في الوقت الحاضر تكتسي أهمية بالغة بسبب تنامي التقدم العلمي والتقني وبسبب تزايد مساهمة اقتصاد المعرفة في الاقتصاد العالمي وفي الناتج القومي للدول، وبسبب تدويل رأس المال البشري وتدويل أسواق العمل وتزايد دور وأهمية اليد العاملة المؤهلة في العملية الإنتاجية، ناهيك عن انتشار المجاعات في أنحاء مختلفة من العالم، وعودة بعض الأمراض التي اختفت منذ زمن بعيد، إضافة إلى ظهور أمراض فتاكة عجز الطب الحديث عن إيجاد دواء شافي لها مثل الإيدز وأنفلونزا الطيور، هذا إلى جانب الظواهر المناخية

¹ - تقرير التنمية البشرية لعام 1990، سابق الذكر، ص2.

² - محمد حسن شعبان (2006)، التحديات المعاصرة أمام الموارد البشرية العربية وسبل التغلب عليها، مجلة الإدارة العامة، معهد الإدارة العامة - الرياض، مج46، عدد 04، ص 664.

الحديثة مثل الاحتباس الحراري وغيرها من ظواهر التلوث البيئي التي باتت تهدد حياة الإنسان.

إن هذه التحديات تجعلنا نؤكد بأن الموارد البشرية هي الثروة الحقيقية التي يجب المراهنة عليها في أي مجتمع كان، وتمييزها هو السبيل الأوضح للمجتمعات لمواجهة تلك التحديات والتغلب عليها.

المبحث الثالث: علاقة الحق في التنمية بتنمية الموارد البشرية وآليات تحقيق ذلك

قبل أن نتحدث عن علاقة الحق في التنمية بتنمية الموارد البشرية، فإنه من الضروري الحديث عن علاقة هذا الحق بكل من حقوق الإنسان وحقوق الشعوب، هذه العلاقة تساعدنا في فهم أعمق للحق في التنمية وفي تصور علاقته بتنمية الموارد البشرية، ومن ثم إمكانية تصور ووضع الآليات اللازمة لإعماله لتحقيق تنمية الموارد البشرية.

أولاً- علاقة الحق في التنمية بحقوق الإنسان والشعوب:

سوف نوضح في هذا العنصر علاقة الحق في التنمية بكل من حقوق الإنسان والشعوب، على أساس أن الحق في التنمية يعتبر من بين الجيل الثالث من حقوق الإنسان.

1- علاقة الحق في التنمية بحقوق الإنسان:

إن حقوق الإنسان وحياته الأساسية هي حقوق يكتسبها جميع البشر بالولادة، وهي حقوق غير مستمدة من القانون، وإنما هي مرتبطة بمفهوم الكرامة الإنسانية، وهي سابقة في وجودها على القانون.

ولكن السؤال الذي يطرح هنا هو: هل الحق في التنمية واحد من حقوق الإنسان أم لا؟ وما هي علاقته بهذه الحقوق؟

فيما يخص ما إذا كان الحق في التنمية واحدا من حقوق الإنسان أم لا، فقد دار نقاش مستفيض حول هذه القضية، ويمكن القول بأن هذه القضية قد سويت بعد حصول الإجماع في الآراء حول إعلان برنامج فيينا سنة 1993 الذي أعاد تأكيد أن: "الحق في التنمية كما هو مبين في إعلان الحق في التنمية بوصفه حقا عالميا وغير قابل للتصرف وجزء لا يتجزأ من حقوق الإنسان الأساسية"، وفي موضع آخر يذكر الإعلان ذاته أنه: "لا تقبل الطبيعة العالمية لهذه الحقوق والحريات أي نقاش"، كما أكد هذا الإعلان أيضا: "بأن على جميع الحكومات أن تعامل الحق في التنمية بوصفه واحدا من حقوق الإنسان في جميع معاملاتها وصفقاتها"¹.

وبالرجوع إلى المادة الأولى من إعلان الحق في التنمية نجد ما يؤكد بأن: "الحق في التنمية حق من حقوق الإنسان غير قابل للتصرف"، أي غير قابل للمساومة.

هذا ويشير تقرير فريق الخبراء العامل المعني بالحق في التنمية إلى أن الحق في التنمية حق من حقوق الإنسان، يولد التزامات معينة ويستتبع واجبات على كافة الدول في المجتمع الدولي².

إذن فالحق في التنمية هو "حق من حقوق الإنسان".

¹ - تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 1996، منشورات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

² - حول ما ورد في إعلان فيينا أنظر: أرجون ك. سانغويتا، المرجع السابق، ص5.

أما فيما يتعلق بعلاقة الحق في التنمية بباقي حقوق الإنسان فقد بينت ذلك صراحة المادة الأولى من إعلان الحق في التنمية، والتي بينت بأنه من خلال إعمال الحق في التنمية يمكن إعمال جميع حقوق الإنسان والحريات الأساسية إعمالاً تاماً.

وقد بينت كذلك الفقرة الثانية من المادة السادسة من نفس الإعلان بأن: "جميع حقوق الإنسان والحريات الأساسية متلاحمة ومتراصة، وينبغي إيلاء الاهتمام على قدر المساواة لإعمال وتعزيز حماية الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية".

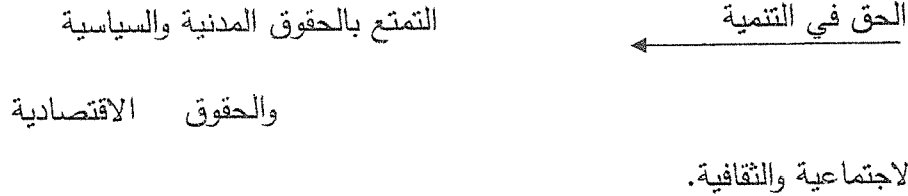
كما أوضحت أيضاً الفقرة الأولى من المادة تسعة بأن: "جميع جوانب الحق في التنمية (...) متلاحمة ومتراصة وينبغي النظر إلى كل واحد منها في إطار الجميع".

ويؤكد السيد " راؤول فيريرو" علاقة الحق في التنمية بباقي حقوق الإنسان بقوله: "وهكذا يتصل الحق في التنمية بالتمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بقدر ما يتصل بالتمتع بالحقوق المدنية والسياسية"¹.

إذن فالحق في التنمية له علاقة وثيقة بباقي حقوق الإنسان (الحقوق السياسية والمدنية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية)، فهو يشكل الأرضية التي يمكن من خلالها التمتع بهذه الحقوق، ويمكن تصوير هذه العلاقة على النحو التالي:

¹ - Keba M, Baye(1972), Le droit au développement comme un droit de l'homme, Revue des droits de l'homme, Paris, V(2-3), p.503.

عملية التنمية



إذن من خلال ما سبق، يمكن القول بأن الحق في التنمية هو حق من حقوق الإنسان، يوحد بين الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مجموعة واحدة مترابطة غير قابلة للتجزئة، وهو السبيل إلى إعمالها، وإن أي إنكار لأي حق من هذه الحقوق ينطوي على إنكار الحق في التنمية، وعليه فإن أي محاولة لإعمال الحق في التنمية يجب أن تقوم على أساس كفالة أو ضمان حماية جميع هذه الحقوق.

2- علاقة الحق في التنمية بحقوق الشعوب والدول والمبادئ التي تحكم العلاقات الدولية:

لاشك أن ما يميز الحق في التنمية هو كونه حق راسخ من قبل في حقوق ومبادئ أخرى سابقة تحكم العلاقات الدولية، ومن ثمة فإن إعماله يقتضي الاحترام التام لمبادئ القانون الدولي المتعلقة بعلاقات الصداقة والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

وقد أكد ذلك صراحة إعلان الحق في التنمية عندما بين بأن هذا الحق له علاقة وطيدة ببعض حقوق الشعوب والدول وعلى رأسها حق الشعوب في تقرير المصير،

الحق في السلم، والحق في ممارسة الدول للسيادة التامة على جميع ثرواتها ومواردها الطبيعية¹.

إذن فالحق في التنمية هو حق مركب أيضا من حقوق الشعوب والدول والمبادئ تحكم العلاقات الدولية، لكن ما هي هذه الحقوق والمبادئ؟ يشير إعلان الحق في التنمية وبعض المراجع إلى أن هذه الحقوق والمبادئ تتمثل في الآتي²:

- حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.
 - الحق في السلم.
 - الحق في ممارسة الدول للسيادة التامة على جميع ثرواتها ومواردها الطبيعية.
 - مبدأ التعايش السلمي بين الدول.
 - مبدأ التعاون والتضامن بين الدول.
 - حق الشعوب في المساهمة على أساس المساواة في منهج اتخاذ القرارات المتعلقة بالاقتصاد الدولي والتنمية والسلم.
 - حق الشعوب في اختيار نوع التنمية والنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي.
- من خلال ما سبق يتبين بان الحق في التنمية، بالإضافة إلى كونه حق مركب من الحقوق المدنية السياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فهو أيضا

¹ - راؤول فيريرو، المرجع السابق، ص35.

² - المادة (1) فقرة (2) من إعلان الحق في التنمية.

حق مركب من الحقوق والمبادئ التي تحكم العلاقات الدولية، فهو إذن حق ينطوي على حقوق وحرّيات يجب إعمالها على المستوى الوطني وحقوق ومبادئ يجب إعمالها على المستوى الدولي، ويمكن توضيح هذه العلاقة بالشكل التالي:

الحقوق المدنية والسياسية والحقوق

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الحق في التنمية

حقوق الشعوب والدول

والمبادئ التي تحكم العلاقات الدولية.

من خلال استعراض علاقة الحق في التنمية بحقوق الإنسان وحقوق الشعوب، ومن خلال التعريف السابق لهذا الحق تتجلى لنا العلاقة الوطيدة بين الحق في التنمية وتنمية الموارد البشرية، هذه الأخيرة التي تعتبر نتيجة لإعمال الحق في التنمية، ذلك أن هذا الحق في الواقع يعمل على تفعيل وإعمال جميع حقوق الإنسان بداية من الحق في الحياة إلى الحق في العيش الكريم وما يقتضيه ذلك، إلى الحق في التعليم والصحة والحق في المشاركة السياسية في إدارة شؤون الدولة، وليس فقط عند هذا الحد إذ ما الفائدة من توفير كل الحقوق السابقة ويبقى الإنسان يعيش في وسط دولي غير آمن تمزقه الحروب والنزاعات، يكون فيه مصيره أو حقه في الحياة مهدداً، لذلك فإن الحق في التنمية قد خرج بالتنمية البشرية من كونها مسألة داخلية تهم الدولة إلى كونها مسألة دولية تهم المجتمع الدولي بأسره، وذلك من خلال

تكريس السلم العالمي، وتكريس روح التعاون بين الدول، خاصة تلك الفقيرة التي تحتاج إلى مساعدة.

وهكذا فإن الحق في التنمية يمزج بين تنمية الموارد البشرية وبين التنمية الشاملة، فعندما نتكلم عن الحقوق الاقتصادية فإن ذلك يعني التنمية الاقتصادية، وعندما نتكلم عن الحقوق السياسية فإن ذلك يعني التنمية السياسية، وعندما نتكلم عن الحقوق الثقافية فإن ذلك يعني التنمية الاجتماعية وهكذا.

فهذا الحق يكرس تلك العلاقة الجدلية والاندماجية بين تنمية الموارد البشرية والتنمية الشاملة، فتنمية الموارد البشرية لا تتحقق دون وجود تنمية شاملة توفر الموارد اللازمة لتنمية العنصر البشري وكذلك الحال فإنه لا يمكن تحقيق التنمية الشاملة بدون موارد بشرية ذات تنمية عالية، إذن فالعلاقة متبادلة، وعليه فإن إعمال الحق في التنمية يصب في حقيقة الأمر في إطار تنمية العنصر البشري تنمية متكاملة ومن جميع الجوانب، ويصب أيضا في إطار تحقيق التنمية الشاملة، وهذا بالطبع ليس فقط على مستوى المجتمع وإنما على مستوى العالم.

وهكذا نلاحظ بأن الحق في التنمية يقدم لنا مدخلا متكاملا وشاملا لتنمية الموارد البشرية ولتحقيق التنمية الشاملة، كما أنه جعل من تنمية الموارد البشرية حقا اقتضائيا يجب على الدولة الوفاء به (شيء أو مطلب من واجب الدولة توفيره لمواطنيها)، وسوف تتضح الأمور أكثر عندما نتحدث عن آليات تفعيل الحق في التنمية لاحقا.

ثانيا- آليات إعمال الحق في التنمية وتحقيق تنمية الموارد البشرية:

لا شك أن الحقوق والحريات تبقى حبيسة النصوص والأوراق إذا لم يتم إيجاد آليات وأجهزة لتفعيلها وإعمالها، وكذلك الشأن بالنسبة للحق في التنمية، ووعيا بأهمية هذه المسألة عمدت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة سنة 1993 بإنشاء "فريق عامل مفتوح العضوية أول" لولاية مدتها ثلاث سنوات، اجتمع خلالها خمس مرات، وقدم تقريرا شاملا إلا أنه لم يحضى بالإجماع من طرف الدول، الأمر الذي أدى إلى إنشاء فريق عمل ثاني سنة 1996 لولاية مدتها سنتين، وقام هذا الفريق بتقديم تقريره سنة 1998، اقترح فيه استراتيجية عالمية لإعماله الحق في التنمية تستند إلى جهود الأمم المتحدة و وكالاتها والدول الأطراف والدول المعنية.

وفي نفس السنة قررت لجنة حقوق الإنسان في قرارها رقم 72/1998 وكجزء من آلية متابعة إعمال الحق في التنمية أن تعين خبيرا مستقلا معنيا بالحق في التنمية، يكون دوره تقديم دراسة عن الحالة الراهنة للتقدم المحرز في مجال إعمال الحق في التنمية، تكون كقاعدة لإجراء مناقشات مركزة في كل دورة من دورات الفريق المفتوح العضوية، المنشأ لرصد واستعراض التقدم المحرز في مجال تعزيز الحق في التنمية وإعماله.

وهكذا يتبين لنا بان آلية متابعة أعمال الحق في التنمية تتمثل في كل من الفريق العامل المفتوح العضوية والخبير المستقل¹.

أما فيما يتعلق بالجهود التي يجب القيام بها لأعمال الحق في التنمية، فإن الأمر في الواقع يتطلب جهودا مضمنة على المستويين الوطني والدولي، وسوف نحاول فيما يلي شرح وتوضيح هذه الجهود.

أ- على المستوى الوطني:

لقد حدد إعلان الحق في التنمية العديد من الالتزامات والجهود التي يتعين على كل دولة القيام أو الوفاء بها لأعمال الحق في التنمية، وتتمثل في الآتي²:

- الاهتمام بالسكان الذين يعانون من الفقر والحرمان لرفع مستواهم المعيشي وقدرتهم على تحسين أوضاعهم.

¹ - هذا ما يفهم من قرار الجمعية العامة رقم 155/53، الذي طلبت فيه من لجنة حقوق الإنسان بدعوة آلية المتابعة - الفريق العامل المفتوح العضوية والخبير المستقل على حد سواء- للنظر في جملة أمور منها مسألة وضع اتفاقية بخصوص الحق في التنمية.

² - أنظر: - الدباجة والمواد (1)، (5)، (7) من إعلان الحق في التنمية.

- عبد الله الولادي، العلاقة العضوية بين حق التنمية وحقوق الإنسان، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الخامس عشر لاتحاد المحامين العرب المنعقد بسوسة، تونس، 2-5 نوفمبر 1984، ص 2 (بتصرف).

- إفساح المجال للجميع للمشاركة الفعالة في التنمية والاستفادة منها، وتشجيع المشاركة الشعبية في جميع المجالات بوصفها عاملاً هاماً في التنمية وفي أعمال جميع حقوق الإنسان.
- إتاحة الفرص المتكافئة للجميع في إمكانية الوصول إلى الموارد الأساسية، والتعليم، والخدمات الصحية، والغذاء، والإسكان والعمل.
- ينبغي على الدول اتخاذ التدابير اللازمة لضمان وصول الفقراء والمجموعات المحرومة، بمن فيهم الفلاحون والمعدمون والسكان الأصليون والعاطلون عن العمل، إلى الأصول الإنتاجية مثل الأرض والائتمان وسبل الاشتغال بالمهن الحرة¹.
- التوزيع العادل للدخل ولل فوائد الناتجة عن التنمية.
- إجراء إصلاحات اقتصادية واجتماعية مناسبة، بهدف استئصال المظالم الاجتماعية.
- ضرورة الاحترام التام للحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- ضرورة وضع سياسات إنمائية وطنية ملائمة، واتخاذ التدابير اللازمة من أجل تحقيق عملية التنمية التي يمكن من خلالها أعمال الحق في التنمية.

¹ - أنظر المواد: (1)، (2)، (3)، (4)، (5)، (6)، (8) من إعلان الحق في التنمية.

- ضرورة اتخاذ خطوات جدية لإزالة العقبات التي تعترض سبيل التنمية، والناشئة عن عدم مراعاة الحقوق المدنية والسياسية، فضلا عن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك لأن إعمال هذه الحقوق شرط ضروري لإعمال الحق في التنمية، نظرا لكون جميع حقوق الإنسان وحياته الأساسية متلاحمة.

- ضرورة اتخاذ خطوات حازمة للقضاء على الانتهاكات الواسعة النطاق والصارخة لحقوق الإنسان الخاصة بالأفراد، والناشئة عن الفصل العنصري وجميع أشكال العنصرية والتمييز العنصري.

- القيام بإجراء تغييرات تشريعية ودستورية بهدف إعطاء المعاهدات الأسبقية على القانون الداخلي، وإن تكون أحكام المعاهدات واجبة التطبيق مباشرة في النظام القانوني الداخلي¹.

- تشجيع مشاركة أكبر للمجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية، وبالأخص تلك التي تمثل الفئات المحرومة والضعيفة، ومنظمات حماية المستهلك والبيئة ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان في اتخاذ القرارات المحلية².

وللإشارة فإن هناك مشكلة كبيرة تقف أمام إعمال الحق في التنمية بشكل خاص وحقوق الإنسان بشكل عام ألا وهي مشكلة شح الموارد، وللتغلب على هذه المشكلة

¹ - ورد ذلك في توصيات الفريق العامل في تقريره المقدم سنة 1998، أنظر:

E/CN.4/1998/29 نقلا عن: أرجون ك. سانغويتا، المرجع السابق، ص4.

² نفس التوصيات نقلا عن نفس المرجع.

ينصح باتباع نهج أو مدخل حقوق الإنسان، وهو نهج يركز الاهتمام على الأفراد أو الفئات الأكثر فقرا وحرمانا، وهو يقوم على مبادئ عالم الاقتصاد "راولز" التي تنص على تحقيق أقصى فائدة لأفقر الناس بغض النظر عن آثار هذه العملية على امتيازات باقي الأفراد الآخرين. وفي هذا الإطار يجب أن تكون البرامج التنموية قائمة على أساس تحسين قدرات الفقراء.

ب- على المستوى الدولي:

لقد حدد كذلك إعلان الحق في التنمية العديد من الالتزامات والجهود، التي يتعين على المجتمع الدولي التعاون للوفاء بها لإعمال الحق في التنمية، وتتمثل في الآتي¹:

- إزالة العقبات الدولية التي تعترض التنمية.

- ضرورة قيام الدول بالوفاء بالتزاماتها وأداء واجباتها على نحو يعزز عملية إقامة نظام اقتصادي دولي جديد، يقوم على أساس المساواة في السيادة والترابط والمنفعة المتبادلة بين جميع الدول.

- ضرورة قيام الدول بالتعاون من أجل تعزيز وتشجيع وتدعيم الاحترام العالمي لجميع الحقوق والحريات الأساسية، دون تمييز بين الأفراد والشعوب بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين.

¹ - نفس التوصيات نقلا عن نفس المرجع.

- تشجيع إقامة وصيانة وتعزيز السلم والأمن الدوليين، والعمل على نزع السلاح المدمر واستخدام الموارد الناجمة عن ذلك لأغراض التنمية الشاملة ولا سيما تنمية الدول النامية.
- إنهاء الاستعمار والسيطرة والاحتلال الأجنبيين، والعدوان والتدخل الأجنبي، والتهديد بالحرب.
- احترام السيادة الوطنية والوحدة الوطنية والسلامة الإقليمية للدول.
- احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها.
- ضرورة قيام الدول باتخاذ خطوات بشكل فردي أو جماعي لوضع سياسات إنمائية دولية ملائمة لتيسير أعمال الحق في التنمية إعمالاً تاماً وكاملاً.
- ضرورة التعاون الدولي الفعال لتزويد الدول النامية بالوسائل والتسهيلات الملائمة لتشجيع وتسهيل تنميتها الشاملة، وكذلك بذل الجهود المستمرة لتعزيز تنمية هذه الدول بشكل سريع.
- ينبغي للمجتمع الدولي أن يبذل كل ما في وسعه من أجل المساعدة على تخفيف عبء الدين الخارجي الملقى على عاتق البلدان النامية، بغية تكملة الجهود التي تبذلها حكومات هذه البلدان¹

¹ John, Rails(1971), Theory of justice, Harvard University.

وفيما يتعلق بالمنظمات الدولية فيجب أن تواصل المفوضية السامية لحقوق الإنسان الحوار مع البنك وصندوق النقد الدوليين وغيرها من المؤسسات جل المساعدة على تخفيف عبء الدين الخارجي الملقى على عاتق البلدان النامية، بهدف إدراج مبادئ الحق في التنمية في سياساتها وبرامجها ومشاريعها¹.

بعد أن رأينا كيفية إعمال الحق في التنمية على الصعيدين الوطني والدولي، فقد اقترح الخبير المستقل "أرجون ك. سانغويتا"² خطة تدريجية لإعمال هذا الحق، وذلك من خلال تشجيع التعاون الدولي (نقل الموارد من البلدان الصناعية إلى البلدان النامية)، على أن يستند هذا التعاون إلى شكل عقد أو اتفاقية بين البلدان المانحة التابعة لمنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي والمؤسسات المالية والبلدان النامية، للبدء بتنفيذ الحقوق الأساسية المتمثلة في: الحق في الغذاء، والحق في الرعاية الصحية الأولية، والحق في التعليم الابتدائي، وذلك لفترة زمنية محددة على أن يتم بعد ذلك الاهتمام بإعمال باقي الحقوق المشكلة للحق في التنمية، وقد قام الخبير المستقل باختيار هذه الحقوق الثلاثة نظرا لعلاقتها الوثيقة بالحق في الحياة، الذي يعتبر الحق الأساسي الأول ضمن حقوق الإنسان.

فالحق بالغذاء لا بد منه للبقاء على قيد الحياة، والرعاية الصحية الأولية لا بد منها كشرط أدنى للعيش بدون مرض في السنوات الأولى من حياة الإنسان على الأقل،

¹ - أنظر المواد: (2)، (5)، (4)، (6)، (7)، (8)، (9) من إعلان الحق في التنمية، وكذلك الفقرة (4) من ديباجة نفس الإعلان.

² - أنظر إعلان وبرنامج فيينا سنة 1993، نقلا عن: أرجون ك. سانغويتا، المرجع السابق، ص

والتعليم الابتدائي لا بد منه للنمو العقلي للإنسان ليتمكن من النمو كفرد له كامل المقومات، ويبرر "الخبير" كذلك اختيار هذه الحقوق الثلاثة إلى وجود عدة منظمات دولية تعمل في هذا المجالات بخطط عمل، ويمكن أن تتحول بسهولة إلى برنامج عالمي لحقوق الإنسان له مقومات الإنجاز أو إمكانية التنفيذ، والباحث يؤيد هذا الاقتراح نظرا لكونه اقتراح عملي قابل للتطبيق خاصة وإن هناك منظمات دولية تعمل في هذا الإطار، ويمكن تحويل نشاطها للعمل ضمن برنامج دولي خاص بحقوق الإنسان، على أن يتم توسيع هذا البرنامج ليشمل عددا أكبر من الحقوق فيما بعد.

هذا مع ضرورة إدراج الحق في التنمية ضمن التشريعات الوطنية، وإيجاد آليات إدارية وتشريعية مناسبة لإعمال هذا الحق ومنع أي انتهاك له.

خاتمة:

بقي في الختام أن نشير إلى نقطة مهمة تتعلق بالطبيعة القانونية للحق في التنمية، حيث يشير الخبير المستقل التابع للجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة: "أنه طالما أن الحقوق المتصلة بالحق في التنمية لم تدون في عهد دولي واحد فإن الالتزام بها لا تكون له حرمة القانون الدولي، وإن كان القبول الطوعي لإعلان الحق في التنمية يعني ضمنا الالتزام الأخلاقي به والذي يشكل الأساس لأي نظام قانوني"¹.

¹ - ورد ذلك في توصيات الفريق العامل في تقريره المقدم سنة 1998، أنظر:

E/CN.4/1998/29 نقلا عن: أرجون ك. سانغويتا، المرجع السابق، ص4.

ولكن وكما رأينا بان الحق في التنمية مركب من مجموعة من الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية وكذلك حقوق الشعوب والدول والمبادئ التي تحكم العلاقات الدولية وتعتبر قواعد ومبادئ القانون الدولي، وهي جميعا إما مدونة في عهد دولي أو في معاهدات واتفاقيات ومواثيق دولية، الأمر الذي يعطي هذا الحق قوة قانونية، فهو محصلة نهائية أو مركب لمجموعة من الحقوق والمبادئ المعلنة والتي لها قوة في القانون الدولي، ومع هذا فإننا نأمل أن يتم تدوينه في عهد دولي حتى يأخذ صبغة واضحة وجلية ليصبح بذلك قاعدة قانونية ملزمة¹.

إن إعمال الحق في التنمية بشكل فعال ما يزال في بداية الطريق، ويحتاج إلى وقت طويل وإلى مجهودات وطنية ودولية، ولا يرجع السبب في ذلك إلى كونه لم يدمج في معاهدة أو عهد دولي، ذلك أن الحقوق المدنية والسياسية قد أخذت وقتا طويلا منذ صياغتها وقبولها من طرف الكثير من الحكومات واعتمادها وإدماجها ضمن التشريعات الوطنية والدولية، وإلى غاية اليوم لا يعتبر إعمالها وتطبيقها شاملا وعالميا.

كما أن قبول إعلان الحق في التنمية أو حتى إدماجه ضمن القوانين الوطنية والدولية لا يشكلان ضمانا لإعماله وتنفيذه، فالأمر يحتاج إلى وجود قنوات وإجراءات وطنية ودولية لإعمال هذا الحق، وإيجاد آليات وطنية ودولية كذلك لمراقبة تنفيذه ومحاربة وردع كل انتهاك له.

¹ - يشير أحد الباحثين أن الحق في التنمية يشكل قاعدة قانونية قطعية شأنها في ذلك شأن سائر قواعد القانون الدولي، أنظر: عمر سعد الله، المرجع السابق (1994)، ص 167.

إن العالم اليوم يعيش حالة من الفوضى والتذبذب والمساس بالمبادئ والقواعد الدولية التي تشكل الركيزة الأساسية لإعمال الحق في التنمية، ولعل من أبرزها انتشار الحروب والنزاعات المسلحة، والمساس بسيادة الدول وحق الشعوب في تقرير مصيرها، والمساس بمبدأ التعايش السلمي بين الدول، والمساس أيضا بمبدأ عدم التدخل، وكذلك المساس بحقوق الأفراد وحياتهم الأساسية.

كما أن العالم اليوم يعيش أيضا حالة من اللا تكافؤ بين الدول المتقدمة أو الغنية والدول النامية أو الفقيرة، واتساع الفجوة بينها، وكذلك انتشار الفقر والمجاعات والأوبئة والأمراض الفتاكة في قطاع كبير من دول العالم، هذا بالإضافة إلى مشكلات التلوث البيئي ومشكلة طبقة الأوزون التي أصبحت تهدد الصحة والحياة البشرية على وجه المعمورة.

وإذا ما توقفنا عند هذه المشكلات والتحديات فإننا نتساءل عن كيفية إعمال حق ديست قواعده الأساسية وهزت أركانه، أي هل يعقل أن نتحدث عن بيت هدمت أركانه؟

إن مثل هذه التحديات والمشكلات تجعل من الضروري التفكير في إستراتيجية شاملة على المستوى الدولي والوطني تعمل على حل تلك المشكلات والتخفيف من تلك التحديات والتناقضات، مع تفعيل دور الهيئات والمنظمات الدولية، ومراعاة الآليات والجهود الواجب بذلها على الصعيدين الوطني والدولي، التي سيق ذكرها، وكذلك مقترحات الخبير المستقل في التدرج في إعمال هذا الحق.

إن الوضع في العالم حسب ما تم بيانه سابقا يشير بان العالم في حاجة كبيرة إلى التنمية البشرية وإلى التنمية الشاملة، وفي هذا الإطار فان تفعيل الحق في التنمية سيلعب دورا كبيرا في تحقيق ذلك، فهو إلى جانب توفيره للعناصر الأساسية التي تركز عليها عملية تنمية الموارد البشرية يوفر وينمي جوانب أخرى واسعة لدى الإنسان ويحث على ضرورة التعاون الدولي من أجل التنمية.

من خلال العرض السابق يمكن الخروج بأهم النتائج التالية:

- إن الحق في التنمية يوفر مدخلا شاملا لتنمية الموارد البشرية ولتحقيق التنمية الشاملة، ويحدد آليات ذلك.

- إن إعمال الحق في التنمية يساهم في تحقيق تنمية الموارد البشرية والتنمية الشاملة.

- إن العالم اليوم ما يزال بحاجة إلى إعمال الحق في التنمية، ومن ثم الحاجة إلى المزيد من الجهود التنموية التي تصب في إطار تنمية الموارد البشرية والتنمية الشاملة.

ومن هذه النتائج وإضافة لما سبق بيانه حول آليات تفعيل الحق في التنمية فانه يمكن إضافة بعض الاقتراحات والتوصيات:

- الاهتمام أكثر بتنمية الموارد البشرية، والتركيز بداية بالحاجات الأساسية المتمثلة في: توفير الغذاء، الرعاية الصحية، التعليم، وإنشاء صندوق وطني خاص لهذه الحقوق الثلاث.

- إدراج الحق في التنمية ضمن معاهدة دولية، وإدراجه ضمن المنظومة التشريعية الوطنية.

- تعزيز علاقات التعاون وتبادل الخبرات مع الدول في مجال وضع وإدارة برامج التنمية.

- الاعتماد على التخطيط في مجال تنمية الموارد البشرية، وضرورة بناء هذا التخطيط على أساس إطار شمولي ذو أبعاد اقتصادية واجتماعية وثقافية.

إبيستيمولوجيا الجوهر والخطأ، في فلسفة ديكارت

سيدي الأمين ولد سيد احمد
قسم الفلسفة وعلم الاجتماع

يعتبر مفهوم الجوهر، من بين المفاهيم الكبيرة، التي شغلت بال الفلاسفة في العصور القديمة والوسطية والحديثة، ولا تفسر أهمية هذا المفهوم فقط بحضوره في تاريخ الفلسفة وانشغال الفلاسفة به أكثر من غيره، بل تفسر أيضا بكونه " الجنس الطبيعي النهائي، الذي لا يمكن تجاوزه علميا وفلسفيا".⁽¹⁾

تتمحور اشكالياتنا في هذه الورقات، حول إجلاء الصدا عن بعض المفاهيم الفلسفية القديمة، بصورة عامة، وتسليط الأضواء الكاشفة على مفهوم الجوهر بصفة خاصة، مبرزين الصلة الإبيستيمولوجية والانطولوجية الوثيقة، بين هذا المفهوم ومفهوم آخر هو مفهوم الخطأ.

لأشك أن هذه الصلة تطرح الكثير من الأسئلة، من أهمها السؤال: لماذا يتأصل بين هذين المفهومين مثل هذا التواصل؟ هل تعني هذه الصلة، أن من غير الممكن معالجة مسألة الخطأ دون ربطها بمسألة الجوهر، ولا الجوهر دون ربطه بمسألة الخطأ؟

¹ Miguel Espinoza, art. La catégorie naturelle ultime, Revue de métaphysique et de morale, ed SNRS Paris ; 1993, P 368.

ربما يرجع ترجيح هذه الاستحالة، إلى ملاحظة إبستيمو. انطولوجية، مبناها أن الوجود لا يحضر للفيلسوف المتأمل، إلا بوصفه جوهرًا، للتلازم بين المُفَكِّر والمُفَكَّر فيه، أو بين العاقل والمعقول، فعلى أساس الجوهر، يتمكن الفيلسوف من صياغة ما يسميه خطاب الحقيقة: حقيقة الفكر والوجود، غير أن خطاب الحقيقة يفترض نقيضه: أي خطاب الوهم والخطأ، ومن هنا تنشأ تلك الصلة المشتركة والمتناقضة بين الجوهر والخطأ، البحث عن مفهوم الجوهر، يعني إذن البحث عن السند اليقيني.

هل يعني هذا أن الخطأ، يرجع إلى أصل مختلف عن الجوهر؟ بمعنى آخر: إذا كان الوجود لا يحضر في ذهن الفيلسوف إلا بوصفه جوهرًا، فهل يعني هذا أن الجوهر هو أصل الحقيقة لا الخطأ؟ وأصل العلم لا الجهل؟

يبدو أن هذا الإشكال، ينطوي على عائق فلسفي عميق الجذور، ومن هذا العائق تتولد ثلاثة افتراضات: فإما أن نلغي وجود الخطأ جملة وتفصيلاً، وإما أن نقبل بانتمائه إلى الجوهر، واعتباره جزء لا يتجزأ منه، وإما أن نموقعه في مساحة أخرى: ربما العدم أو الخلاء الميتافيزيقي.

لا مانع من أن تكون هذه الإشكالات، هي السر في حضور مفهومي الجوهر والخطأ، في تاريخ الفلسفة على هذا النحو، من القوة والتأصل، فقد ناقش أفلاطون هذه المسألة، في سياق نقده الموجه إلى السفسطائيين وبرمنيدس معاً، حيث ساند الانطولوجيا البرمنيدية في بداية تعاطيه مع الإشكالية، فاعتمد على الديالكتيك بوصفه علماً، ومنهجاً رصينا في مواجهة المحاكاة "L'imitation" السفسطائية، ذلك أن "المحاكاة . يقول أفلاطون . بعيدة كل البعد عن ما هو حقيقي،

وإذا كانت تعرض لكل الموضوعات، فلأنها . على ما يبدو . لا تلامس إلا جزءا طفيفا من كل موضوع، وهو الجزيء الذي لا يعدو ظلا⁽¹⁾.

ويمكن الكشف عن هذه المنزلة الفلسفية للديالكتيك عند أفلاطون من خلال نظريته للذات، حيث يعتبرها "رؤية خالصة، ينمحي فيها الرائي في المرئي، فأن نتأمل يعني أن ننبت من ذواتنا، وأن نتماهى بالشيء الذي نتأمله"⁽²⁾.

غير أن من يقتصر، في قراءة أفلاطون، على هذه المرحلة من التصور، إنما يلغي التحول الذي طرأ على فلسفته، في محاوره السفسطائي: المحاور التي شكلت منعرجا هاما في تفكير أفلاطون على المستويين: الابستمولوجي والإنطولوجي، فلم يعد أفلاطون في هذه المحاور، يرفض إمكانية الخطأ، بل يعتبره جزءا من الطبيعة: نحن إذن أمام قلب بموجبه تلغى مقولة برمنديس، التي تؤكد على وجودية الوجود، ولا وجودية اللاوجود⁽³⁾، بهذا المعنى تحدث البعض عن جريمة القتل الأبوي، فبرمنديس الذي اعتبره أفلاطون في كتابته الأولى أبا للفلسفة، انقلب عليه وقتله وألغاه، غير أنه بهذا الإلغاء ألغى نفسه أيضا، لأن برمنديس المقتول هنا هو أفلاطون الجمهورية، نحن إذن إزاء ما سميت مرارا بالانتحار الأفلاطوني، أي أمام قتل مزدوج.

¹⁾ Platon, la république, ed Garnier , frères, 1966, Livre X ; P 362

²⁾ Huber Grenier, « la Connaissance Philosophique », ed. Boulevard, S, G, Paris, 1973. P 99.

³⁾ راجع قصيدة برمنديس، التي تذهب إلى أن إنقاذ الوجود، يقتضي رفض اللاوجود وتدميره، فالوجود هو الوجود، وأما اللاوجود فليس له وجود، إذ لا يمكن فهمه ولا التعبير عنه.

ففي محاوراة السفسطائي، لم يعد الوجود موجودا إزاء الوجود فحسب، بل أصبح شرط وجود الوجود ذاته، وهو ما يفتح الباب واسعا أمام إمكانية الخطأ، يقول أفلاطون: "بما أن الوجود واللاوجود، يكتنفان وجودنا معا، فبإمكاننا إذن الاعتقاد، في أن كل ما يجلو أحدهما، في يوم خائم أو صحو، يمنحنا الكشف عن الآخر، بنفس الدرجة من الجلاء⁽¹⁾."

ورغم هذا الانقلاب، تتجه نصوص أفلاطون في أغلبها، إلى أن الجوهر هو الوجود الفكري، المماهي لذاته، وأن الخطأ لا ينبع من هذا الوجود الكامل، الحقيقي بصورة لا متناهية، بل من اللاوجود، فهو من جهة ناجم عن الجسد، الذي يمنع النفس من تشكيل رؤية مباشرة خالصة، كما ينبع أيضا من الوجود المادي، الذي لا يعدو ظلالا وأوهاما، كما عبر عنه في أسطورة الكهف⁽²⁾، ينبغي أذن أن نتعاطى الموت الفلسفي، حتى ينمحي فيها كل ما لا ينتمي إلى العقل.

وبالانتقال إلى أرسطو، نجد أن مسألة الجوهر تدخل عنده، في مسألة الأصناف، حيث يميز بين أصناف حملية، وأصناف ميتافيزيقية، فالأولى تتضمن الماهية والكيفية، وما شاكلهما، والثانية تتضمن الجوهر، كما تتناول الكيفية والكمية، بما هي حدود مفاهيم لدى البعض، وعلى مستوى هذا التمييز، تظهر قيمة مفهوم الجوهر، فهو ينتمي إلى الأصناف الميتافيزيقية، ولا يتحدد إلا بها.

ويتحدث أرسطو عن ثلاثة أصناف من الجواهر:

(أ) الجوهر المادي، وقد بينه في كتابي المقولات والطوبىقا، عندما صرح بأن الجوهر، يطلق في معناه الأولي والجوهري على الأفراد (الرجل، الحصان)، ويحمل هذا الجوهر المادي وصفين:

¹⁾ Platon, Le Sophiste, Garnier-Flammarion ;p82

²⁾ راجع أسطورة الكهف، في محاوراة الجمهورية، للوقوف على نقد أفلاطون للوجود المادي.

1. كونه محسوسا.

2. كونه فاسدا.

كما يتحدد هذا الجوهر، بعلاقته بالصورة، فعندما تتشكل كرة من البرونز، فالبرونز هو المادة، والشكل الكروي هو الصورة، ويمكن فهم هذا الجوهر أيضا، بالتقابل مع العرض، فالجواهر قائم بنفسه، على خلاف العرض، إذ لا يستغني أبدا عن جوهر يحمل عليه.

ب) الجوهر الهولاني، وهو الموجود بذاته، من غير أن يكون كما ولا كيفاً، ولا غير ذلك من المقولات.

ج) الجوهر المتعالي (المتحرك الذي لا يتحرك)، ويمكن تحديده، من خلال التفسيرات الميتافيزيقية، المذكورة في كتاب لامدا، بجملة من الأوصاف:

1. أنه علة الحركة الأبدية وسببها، باعتباره موضوع العشق والرغبة، وهو ما منحه الغائية الميتافيزيقية الأصلية.

2. أنه كائن فاعل، وموجود بالفعل، رغم أن موضوع العشق والرغبة، قد لا يكون واقعا موضوعيا⁽¹⁾.

3. أن نشاط المحرك الأول، يتمثل في التأمل المحض، غير أنه لا يتأمل إلا ما هو كامل، فهو إذن إنما يتأمل ذاته: ذلك "أن الفكرة الأسمى، تفكر في ذاتها بذاتها، إذ أنها هي الأسمى، وفكرتها هي فكرة الفكرة"⁽²⁾.

¹) Aristote, Métaphysique, Lambda, 1072b

²) ibid 1074b

لكن فيم يتميز أرسطو عن أستاذه أفلاطون، بصدد مسألة الجوهر والخطأ؟ لقد سبق أن بينا، أن المادة جزء من الجوهر لدى أرسطو، لكن بما أن المادة تتجسد في موضوعات وموجودات مختلفة فلا تعتبر في نظره جزءاً أساسياً، وبذلك نعود من جديد إلى عوائق أفلاطون: العودة إلى المعقول، في مقابل المحسوس السفطائي، فالإحساس، باعتباره غير مؤد إلى الفكر، لن يكون علماً أبداً، إذ أنه لا يعد صحيحاً ولا خاطئاً، فالقصد الفكري هو العلم الأسمى، الذي لا يخاله الخطأ.

وبنفس التمشي الأفلاطوني، يتبنى أرسطو الديالكتيك، بوصفه فن الحقيقة، حيث يميز بإمعان بين الديالكتيك وفن المماحكة، أو الجدل "L'eristique"، وبينه وبين السفسطة، باعتبار هذين الأخيرين فنين خاطئين، يمثلان وجهين لعملة واحدة، لذلك يعرف أرسطو السفسطة بكونها "التعقل الجدالي" (الفرق بين الفنيين عند أرسطو، يكمن في الغاية، فغاية الأول هي الغلبة، وغاية الثاني جمع المال).

كان الغزالي في العصر الذهبي الإسلامي، بمثابة ثورة فلسفية، أعادت النظر من جديد إلى مفهومي الجوهر والخطأ، حيث رأى الغزالي أن مصدر أخطائنا، هو وثوقنا الأعمى بكل ما لدينا من معارف وآليات (النقل، العقل، الإحساس): "فتحرك باطني . يقول الغزالي . إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتميز بين هذه التقليدات، وأوائها تلقينات"، المدخل إلى تحديد الإشكال، يتمثل إذن في رفض الموروث السائد، ووضعه موضع شك وتساؤل، وتلك هي الآلية النقدية، التي يمثل الشك رأس الحربة فيها، إذ كيف ننقد ما ننق فيه ثقة عمياء؟

في هذا النص يضع الغزالي الأصبع، على آليات الدوغمائية الوثوقية: "التقليد" و"التلقين"، غير أن رفض الموروث، لدى الغزالي لا يشكل غاية، بل هو الوسيلة إلى ما سماه "العلم اليقيني"، الذي ينكشف معه العلوم، انكشافاً لا يبقى معه ريب"، والمتتبع لفلسفة الغزالي، يرى أن هذا "العلم اليقيني"، يرتكر إلى محددين: هما الأساس الجوهرى لعملية البحث عن الحقيقة، وعن المنهج الصارم، الذي يتعالى على التقليد والتلقين، المنهج الذي بموجبه تتميز الحقيقة عن الخطأ والوهم، عبر المحدد الأول ينفذ الغزالي إلى مفهوم الجوهر، وعبر الثاني ينفذ إلى ما يمكن تسميته ابستمولوجيا الخطأ.

مع ديكارت نعود من جديد إلى نقاش مفهوم الجوهر، وعلاقته الميتافيزيقية، والابستمولوجية بالخطأ، غير أن ديكارت يرفض أن يظل أسيراً للأطروحات الفلسفية، التي تناولت المفهومين، لذلك يسجل نقاط تجاوز محورية.

يكشف ليون برنشفينغ عن هذا التجاوز، عبر الإحالة إلى التعارض التقليدي، بين المفهوم والماصدق، "فبين النظرية السكولائية . يقول برنشفينغ . وبين النظرية الديكارتية، يوجد بادئ ذي بدء اختلاف في البنية المنطقية، يترجم تحديداً، في التعارض الكلاسيكي بين المفهوم والماصدق، على صعيد المصطلحات، أي بين منطق ماصدق، يتم تصوره على غرار تصنيفات مقترحة للأنواع الحيوانية، من شأنها رسم لوحة من الأفكار العامة، لا تخلو قمة هرمها، من فكرة تكون هي الأكبر من حيث الماصدق.. وبين منطق جيد، ذي طابع رياضي، تفقد معه المبادئ

السكولائية كل مدلولاتها.. يتم التعبير عنه عبر مفاهيم مجردة، تقوم بتعرية الجذور، وهذا هو عمق الثورة الديكارتية⁽¹⁾.

وتعتقد ميغل أسبينوزا، أن التجاوز الديكارتى، ينكشف عبر مستويين:

(1) التغيير على مستوى الجوهر، ذلك أن الجوهر يتماهى دائما بالموضوع (Substrat) الدائم، لهذا ينبغي أن ينحصر معيار المعرفة، في الوضوح والتميز.

(2) فردانية الجوهر: فقد رأينا كيف أن جوهر الامتداد، لاغ عند أرسطو، على خلاف ديكارت، الذي يعتبره جوهرًا قائمًا بنفسه، وله درجته من الواقعية⁽²⁾.

فعلى هذا المستوى من التجاوز، ينبغي البحث عن منزلة الخطأ لدى ديكارت، والملاحظ أن هذه المنزلة تحدث عنها شراح ديكارت، فلاحظوا تحولا نوعيا، مع ديكارت والديكارتيين عموما، ويتمثل في أن إشكالية الخطأ أصبحت أكثر أهمية من إشكالية الحقيقة⁽³⁾.

ووفقا لجيل دولوز، يتكشف التجديد الديكارتى بخصوص الخطأ في مفهومته، إذ أصبح مفهوما عميقا، له مكوناته الأساسية، يتعلق الأمر هنا بمكونين:

¹ Leon Brunschvicg, Spinoza et ses contemporains , PARIS, PUF, 1951, PP155-156

² M. Espinoza, la categorie naturelle ultime, op cit , P373

³ Hibert Grenier, op cit, p 120

هما الفاهمة المحدودة، والإرادة اللامحدودة⁽¹⁾. وبذلك يكون الخطأ هو الخلل، أو الاتجاه الذي يعكس الجهة السلبية من الفكر.

وسنركز في هذه المطارحة، على سؤالين مركزيين:

- (1) ما الذي يعنيه ديكارت بالجوهر؟
- (2) إلى أي مدى يكون الحديث عن الجوهر، إثارة لمسألة الخطأ؟

مفهوم الجوهر في فلسفة ديكارت

يتحدث ديكارت عن ثلاثة جواهر، إذا ضربنا صفحا عن مقولة وحدة النفس والجسد بوصفهما جوهرًا مركبًا واحدًا، ذلك ما يطفح به نص "التأملات" الذي يدمج هذا الثالث، في نسق ميتافيزيقي، يواكبه نقد إبستمولوجي وانطولوجي يتناول دلالة كل جوهر وقيميته.

يظهر من نص التأملات، كما بينه ابرنشتفيغ، وجود ثلاثة جواهر: الأنا، الامتداد، والالانهائي، وفي كل جوهر من هذه الجواهر، يكتسي التأكيد الجوهري دلالة وطابعا خاصين⁽²⁾.

وفق نظام التأملات، يأخذ المنطق التراتبي الشكل التالي: الكوجيبو - الإله - الامتداد.

(أ) الكوجيتو (أو الجوهر المفكر):

¹ Deleuze, qu'est la philosophie? Tunis, ceres, 1993, P44

² Alquié, "Descartes". ed. Mis au jour, 6 ieme, pp 6-7

يلاحظ آل كييه "أن التأمل الأول، يطرح مسألة الماهيات الرياضية ذاتها، فيما يكشف التأمل الثاني عن الأنا أفكر (Le je pense)، أي الإنسان أو الوجود الخاص بهذه المسألة"⁽¹⁾.

ويقوم الشك مقام الافتتاحية التأهيلية للفكر، باعتباره شرط ظهور الكوجتو، فهذا الشك . أو هذه المغالطة الكونية . سيلعب دورين هامين: يتعلق أحدهما بالإرث التقليدي، المتمثل فيما سماه الفلسفة المهيمنة، والسوقية، حيث تكون مهمة هذا الشك "أن يخلصنا من كل أشكال الأحكام المسبقة"⁽²⁾.

وأما الثاني: فيتعلق بالمستقبل، حيث "يهيئ لنا طريقا سالكا، يعوّد فكرنا على التحرر من الحواس"⁽³⁾.

لكن ما طبيعة هذا الأنا أفكر؟

سؤال لا نجيب عنه، إلا إذا أمعنا النظر، في العلاقة بين هذا الأنا أفكر، وبين الوصف، ذلك أن تمييز الجواهر يتم من جهة عن طريق الوصف، ومن جهة أخرى عن طريق العقل والجوهر، فالجوهر يتميز بالوصف، إذ أن الوصف يضطلع بمهمتين: إحداها تحديد القيمة الوجودية، حيث يتم إقصاء العدم، لكونه لا يحمل وصفا، والثانية: أن يمنحنا الوسيلة، التي بها يعرف الجوهر إذ يكشف عن طبيعة كل جوهر: فالمهمة الأولى مهمة انطولوجية، والثانية مهمة إبستمولوجية.

¹ Leon Brunschvicg, op cit P159

² Descartes, Meditations metaphysiques, Abregé, op cit P12

³ Ibid, P19

وبالاستناد إلى هذه الأخيرة، يكون التمايز، فمثلاً أن الامتداد يمثل طبيعة الجوهر اللامادي، فإن الفكر يمثل هو الآخر، طبيعة الجوهر المفكر، أو الأنا أفكر، الفكر هو إذن طبيعة هذا الأنا أفكر، وفق هذا التحليل، غير أن طبيعة هذه النفس المفكرة، تظهر مشكلاً عويصاً، مثلما عبر عنه غاسندي في إحدى اعتراضته على ديكارت، يقول غاسندي مخاطباً ديكارت: "لكي نعرف أننا نفكر، وأننا موجودون، ينبغي أن نعرف [أولاً] ما الفكر وما الوجود، بيد أنكم ألغيت ذلك من ذهنكم".

على هذا الاعتراض، يجيب ديكارت بنفي مسوغ الاعتراض، فهو لا يلغي "الأفكار البسيطة، والتصورات التي لا تتضمن تأكيداً ولا نفيًا، بل فقط الأحكام التي تحتمل وحدها الخطأ والحقيقة"⁽¹⁾.

فالذي يلغيه ديكارت إذن، هو الحكم بوصفه تأكيداً لحقيقة المفهوم أو خطئه، فلا يتعلق الأمر إذن بالمفاهيم المحضة، أو الروح والنفس في ذاتها.

ولما كانت التأملات الثلاثة الأولى، تتحدث عن ما سماه ديكارت الشيطان الماكر، الذي يمثل الخداع المطلق، والخطأ المحض، وضلال الفكر، كان لزاماً على الكوجيتو، أن يقوم مقام المناضل ضد هذا الخطأ، والعبث الفكري، بقصد تجريد التفكير من وساوسه.

لهذا يصبح من الضروري . قبل كل شيء . أن ننقد كل ما له علاقة بقطاع الفكر: يتعلق الأمر هنا بالفاهمة، L'entendement والإرادة La volonté والتخيل

¹ Descartes, Reponses aux V^e objections, lettre du 12 janvier

L'imagination والشعور Le sentiment لوضع اليد على المنافذ التي يتسلل منها الخطأ إلى شبكة الفكر، لكن، كيف يكون الكوجيتو، الذي هو السبيل الوحيد إلى اليقين، وكرا للخطأ؟ هنا تطرح فرضيتان: فإما أن يكون الخطأ أمراً خاصاً بالفكر، وبناء عليه يتوجب إلغاؤه خارج الفكر، وإما أن يكون أمراً خارجياً عن الفكر، يبحث عنه في عوالم أخرى: الإله، العالم الخارجي، وقبل استعراض مسألة الخطأ، على مستوى الإله والعالم الخارجي، في التأملات (1، 4، 5، 6)، ينبغي أن نتفحصها على صعيد الروح.

1. الفاهمة والإرادة (إشكالية المتناهي واللامتناهي):

يعتقد ديكارت، أن أهم مكونات الذهن تتمثل في الفاهمة والإرادة، بل ذهب في كتاب "مبادئ الفلسفة" إلى حد القول: إنه "لا يوجد في ذاتنا غير صنفين من الفكر: هما تصور الفاهمة، ونشاط الإرادة"⁽¹⁾.

ورغم هذه الأهمية، يمكن للفاهمة والإرادة، في حالة من حالات الاختلال، أن تصبحا مصدرا للخطأ: يفسر ديكارت هذه الملحوظة، باختلاف طبيعتي الفاهمة والإرادة، فالأولى نهائية ومحددة، والثانية لا حدود لها ولا نهاية، لا يتسرب الخطأ من الاختلاف في حد ذاته، بل يتسرب من كون الإنسان لا يحصر إرادته في حدود فاهمته المحدودة، بل يبسطها على الأشياء والموجودات، التي تتجاوز طاقة الفاهمة.

¹ Descartes, Principes de la philosophie, œuvres, c, ed. Pléade P585

ذلك ما يبينه نص التأمل الرابع، يقول ديكارت: "من أين تولد أخطائي إذن؟ إنها تولد من كون الإرادة، أكثر اتساعاً وامتداداً من الفاهمة، ومع ذلك لا أحصرها في تلك الحدود نفسها، بل أتخطاها إلى الأشياء التي لا أفهمها... لذا فهي تضل بسهولة، وتختار الشر على أنه خير، والخطأ على أنه صواب، وهو ما يجعلني أخطئ وآثم"⁽¹⁾.

خلاصة نص ديكارت، أن الفاهمة والإرادة، إذا ما بقيتا في وضعيهما دون تجاوز، لم تتسببا في الأخطاء، وإنما ينشأ الخطأ من النشاط البشري المؤسس على نهائية الفاهمة، في مقابل لا نهائية الإرادة، ويبدو أن مصدر الاختلال، نابع من حريتنا: "فبينما تتدرج الفاهمة من الأكثر غموضاً إلى الأكثر وضوحاً، تبدو الإرادة مطلقة، إذ تنطلق من التأكيد والنفى على حد سواء، ومعلوم أن بين نعم ولا، تبايناً مطلقاً، كالتباين الواقع بين الوجود واللاوجود: الفاهمة متناهية، والإرادة إنما تكون فقط لا متناهية، ومن هنا تنشأ حرية اختيار الإنسان، التي ترتبط بها إمكانيةه"⁽²⁾.

وهذا ما يحتم علينا، وضع قيمة حرية الاختيار هذه، محل تساؤل واختيار، ففي نص سبق هذا النص الأخير، يعتبر ديكارت أن حرية الاختيار بهذا المعنى تعتبر "أحط درجات الحرية، فهي تكشف عن اختلال في المعرفة، أكثر من كشفها عن اكتمال الإرادة، ذلك أنني إذا كنت أعرف دائماً وبوضوح، ما هو حقيقي، وما

¹ Descartes, Meditation 4, op cit P89

² Leon Brunschvicg, op cit P174

هو خير، فلن يعجزني أبداً، أن أحدد أي حكم وأي اختيار يجب علي فعله، وبذلك أكون حراً بشكل كامل، دون أن أكون غير مبال⁽¹⁾.

التخيل وإشكالية الحدود:

يلاحظ مارسيل غرو، أن ديكارت يعني بالتخيل أمرين مختلفين: الأول التخيل بما هو ملكة بسيكولوجية، متمثلة في النفس، التي تمارس فعلاً معيناً عليّ، الثاني التخيل الجسمي، المتمثل في قدرة الجسم، على الاحتفاظ بآثار الأفعال التي تمارس عليه، سواء من الداخل أو من الخارج.

وبما أننا الآن نتحدث عن منطقة النفس، ينبغي أن نركز على المعنى الأول، انطلاقاً من أن التخيل، قد يأخذ شكل ارتكاز على فكرة الفاهمة، كما قد يأخذ شكل ارتكاز على الفكرة، في صورتها الحسية، وبذلك ينشطر إلى نوعين من التخيل: "التخيل العلوي" و"التخيل السفلي".

فعن طريق التخيل العلوي يمكن للنفس أن تستحضر تخيلاً أفكاراً فطرية، ويتعلق الأمر هنا بتخيل الموجودات الهندسية، بينما لا تستطيع أن تستحضر بواسطة التخيل السفلي، غير الأفكار العارضة: يتعلق الأمر هنا بالأوصاف الحسية.

من البين إذن أن ديكارت، لا يهمل قيمة التخيل، ومنزلته في الفلسفة، وإنما ينقد أسسه وحدوده، من جهة تلاؤمه أو عدم تلاؤمه مع الفاهمة، فقد يجول في

¹ Descartes, Meditation 4, op cit P9 88-89

عالم الفاهمة، فيتمثل الأفكار الفطرية (التخيل العلوي)، كما قد ينشغل بمعطيات الحس، مبتعدا عن الأفكار الواضحة للفاهمة، فيصبح مصدرا للأفكار العرضية، وهذه الحالة الثانية، هي التي تنمي إمكانية الخطأ، لكن ما مسوغ هذه إمكانية؟

ربما يكون هذا المسوغ، عائدا إلى طبيعة التخيل كما يفهمه ديكرت، فالتخيل لا يمكن اعتباره فكرة محضة، كما هو حال الفاهمة، كما لا يمكن اعتباره امتدادا محضا، كما هو حال الجسم، فهو إذن منزلة بين منزلتين، وبموازاة هذا المسوغ ينهض مسوغ آخر، يتمثل في العلاقة بين لانهائية التخيل، ونهائية الفاهمة، فعلى سبيل المثال "يمكنني أن أتخيل الأضلاع الألف للشيليوغون (شكل هندسي يتألف من ألف ضلع)، كما أتخيل الأضلاع الثلاثة للمثلث، رغم أنني عاجز عن أن أنظر إليها ماثلة أمام أعين فكري".

ولا يأتي الخطأ من عجز التخيل عن الإحاطة بما يفوق طاقته التخيلية، بل من كونه لا يعترف بالعجز، فيشرئب في نهم إلى ما يجاوز حدوده، فيقدم لنا صورا باهتة ومغلوبة، ذلك أنه "كلما تعقد التصور، كلما كان على [التخيل] أن يتنامى، وكلما أصبح النشاط التخيلي عاجزا، كلما كان أكثر تعقيدا، إلى حد تصبح معه طاقتنا الاستيعابية متجاوزة، لذلك عندما أحاول أن أتخيل أشكالا متشعبة الأضلاع Polygones لا تفتأ أضلاعها تتعدد، فإن التخيل لا يلبث أن يستنفد حدوده، وبذلك يختلف عن الفاهمة . بحكم كونه يبال بسهولة متساوية التعدد اللامتناهي للتصورات . فيبدو كما لو لم يكن له حدود نهائية⁽¹⁾.

¹ Marcial Gueroult, Descartes selon l'ordre des raisons, op cit, T2, PP 42-43

والمستخلص من هذا التمشي، أن التخيل إذا بقي في دائرة الأشكال الهندسية البسيطة، بإمكانه أن يتفادى الخطأ، بخلاف ما لو عانق الأشكال المعقدة.

ولكي نحدد الحقل الخاص بالتخيل، بالمقارنة مع الفاهمة، يمكن القول إن التخيل . باعتباره عنصر معرفة بالأشياء، وفق نظرة واقعية لدقائقها الجزئية . غير قادر على معرفة هذه الأشياء، إلا بصورة خارجية ومحدودة، بخلاف الفاهمة . حسب ديكارت . التي تعرف عن طريق العقل الباطني، التصورات، حيث تميزها في الحال، مهما كانت درجة تعقدها، فالتخيل بهذا المعنى، رغم وضوحه وتميزه الحسي، يبقى غامضا بالنظر إلى الفاهمة.

2. الشعور والحكم:

بتأمل درجة اليقين، والقيمة الموضوعية للشعور، نلاحظ أن الشعور يمثل لدى ديكارت مساحة هامة من الفكر، إلى درجة أن وجود الأشياء المادية التي تمثل الإيمان بالنسبة للفاهمة، والاحتمال بالنسبة للتخيل، يصبح يقينيا بالنسبة للشعور، لكن ما ذا نعني بالشعور لدى ديكارت؟

الملاحظ كما يرى غرو، "أن ما نعنيه بالشعور، هو في الواقع، كيان مركب من ثلاثة عناصر:

- التحويلات التي تحدثها الأشياء الخارجية، على مستوى النظام الجسمي.
- كل ما يتولد عن ذلك مباشرة، على صعيد الفكر، يتعلق الأمر هنا بمختلف المشاعر الخام، سواء كانت خارجية أو داخلية.

- الأحكام التي نحملها عليها، منذ الشباب، والتي نفترض ضرباً من التعقل، فهي تتعلق بالفاهمة فقط⁽¹⁾.

غير أن ما يهمنا أكثر من غيره، هو معرفة حدود إمكانية حصول الخطأ على مستوى الشعور، وكيف يكون الشعور مصدراً للخطأ، رغم يقينيته التي تحدثنا عنها؟

يجيبنا التأمل الثالث، بأن الذي يحتمل الخطأ إنما هو الحكم، ذلك أن الأفكار، "إذا نحن اعتبرناها في ذاتها فقط، ولم نحملها بتاتا على أشياء أخرى، فلن يكون في الإمكان خطؤها... عندئذ لا يبقى غير الأحكام، التي يجدر بنا الحذر منها، كي لا نتخذعنا"⁽²⁾.

هل يعني هذا أن كل حكم خداع مخطئ؟

هنا يجيب ديكارت بالنفي، إذ أن الحكم قد يبنى انطلاقاً من الأفكار الواضحة والمميزة، وبذلك ينجو من الخطأ واللبس، غير أنه قد يبنى انطلاقاً من أفكار ضبابية، فيكون بذلك مصدراً للخطأ والضلال، لهذا يتوجب البحث عن العوائق التي تعرقل الشعور، وتوقعه في الخطأ.

فنحن قد نحكم مثلاً منذ شبابنا، انطلاقاً من الفاهمة، غير أن تدخل فاهمتنا هذا، قد يغيب أحياناً عن وعينا، وهو ما يجعلنا ننسب هذا الحكم إلى الشعور، رغم

¹ Ibid, P 48

² Descartes, Meditation 3, op cit PP 56-57

أنه نابع من التفكير، فنقع في الخطأ واللبس، فكيف نبعد الشعور عن مظنات الخطأ؟ هنا يتحدث النص الديكارتي عن مهمتين:

■ تتمثل الأولى في تنقيته من الأغشية التي تغلفه، حتى يعود إلى تجريدته الأولى، وذلك على نحو تنقيتنا للفاهمة، كما هو الحال في مثال قطعة الشمع "غير أن الأغشية، التي تحجب عنا الفكرة الواضحة والتميزة لقطعة الشمع منسوجة من كفيات حسية، نابعة من التخيل والاحساسات، بينما تنسج الأغشية التي تحجب عنا الواقع الموضوعي للشعور، من أفكار نابعة من الفاهمة⁽¹⁾.

يراهن ديكارت إذن، على تحقيق المعطين المباشرين للفاهمة والشعور، على خلاف برغسون، الذي لا يراهن إلا على المعطى المباشر للشعور⁽²⁾.

■ وتتمثل المهمة الثانية، في نقد الأحكام والأفكار، التي بواسطتها يؤكد وجود الأشياء، فنقد الشعور يقتضي إذن نقد الأحكام، خاصة الأحكام المسبقة، على نحو ما عبر عنه المبدأ 33 من كتاب "مبادئ الفلسفة": "إننا لا نخطئ، إلا عندما نحكم على شيء، غير معروف عندنا بما يكفي"⁽³⁾.

لكن ما الذي يعني ديكارت، بهذا الشيء غير المعروف عندنا بما يكفي؟ لا شك أن الأمر يتعلق بالأفكار المغلوطة والغامضة، مهما كانت مصادرها (سواء

¹ Martial Gueroult, Descartes selon l'ordre des raisons, op cit, T2, P 48

² (يرى برغسون أن تصورات الفكر، تحجب دائما صفاء الشعور، وعنده أن معطيات الشعور تنقذ مباشرة بعكس الفاهمة.

³ Descartes, Principes de la philosophie, op cit P 12

كانت الفلسفة المهيمنة، كما يسميها ديكارت، وهي الفلسفة السكولائية ذات المصدر الأرسطي، أو الأفكار الحسية والسوقية، أو أفكار الطفولة..).

الأفكار السكولائية: وهي أفكار الفلسفة المهيمنة، التي لا تتأسس على النور الفطري، بل على الإرث الكلاسيكي، الذي شحن الأدمغة بالأفكار المغلوطة، في غياب تام لآليات النقد والشك، لا يعتبر ديكارت هذا الإرث زائفا وحسب، بل إنه ضار إلى أبعد الحدود، وبهذا يكون البحث عن مصادر الخطأ، بمثابة ابستمولوجيا نقدية، تعيد النظر في الموروث الثقافي، الذي تعشش فيه أخطاؤنا وأوهامنا.

أ) الأفكار السوقية:

وهي أفكار التجربة غير العلمية، التجربة التي تتأسس على الحس المشترك السوقي، لذلك لا يفتأ ديكارت . سواء في التأملات أو المبادئ . يؤكد على الفرق بين هذا الحس المشترك، وبين المفهوم العلمي، ففي المبادئ مثلا يبين خطأ مفهوم الحركة الموافق للحس المشترك، ويؤسس ما يتصور أنه المفهوم الحقيقي⁽¹⁾.

¹ (أنظر المبدأ 24، 25 من الجزء الثاني من كتاب المبادئ، وفيه أن "الحركة إذا أخذناها بالمعنى العادي، لا تعدو فعلا، بموجبه يمر جسم من مكان إلى مكان آخر، في حين أن الحركة الحقة، هي انتقال جزء مادة أو جسم من جوار ما يلامسه بشكل مباشر بحث نعتبره كما لو كان ساكنا في مجاور [أجزاء أو أجسام] أخرى". Ibid, P 624

كيف نتخلص من هذه الأفكار السوقية، المبنية على المظاهر والإحساسات الزائفة، والعادات والتقاليد؟ السبيل الوحيد. عند ديكارت ماثل في الكوجيتو، فهو وحده الذي يسمح لنا، برفع معرفتنا إلى ما وراء الحس المشترك⁽¹⁾.

ب) أفكار الطفولة:

وهي الأفكار التي نتلقفها، منذ سنواتنا الأولى، على أنها حقائق، مع أنها تفتقد إلى أدنى مسوغات العقل، لاعتمادها على أساس واحد، هو العادة، وهذه الأفكار هي الروافد الأولى لتجربتنا الثقافية، ولا تتبخر هذه الأفكار إلا بعد اكتشاف الأفكار الواضحة والمتميزة، أو الأفكار الأزلية.

هذا ما يفسر تخصيص ديكارت التأمل الأول للشك، حيث يشكل الشك آلية منهجية، تصارع الأفكار الغامضة والمغلوبة، يقول ديكارت: "لقد أدركت منذ زمن، أنني تلقيت انطلاقاً من سنواتي الأولى، حزمة من الآراء الخاطئة، على أنها صائبة، كما أدركت أن ما تلقفته منذ تلك الأزمنة من مبادئ غير موثوق بها، لن يكون إلا مشكوكا فيه، وغير يقيني"⁽²⁾.

من هذه الأطروحات، يتجلى لنا في الخلاصة، أن الخطأ على مستوى الفكر عموماً: بما في ذلك الفاهمة، والتخيل، والشعور، لا يمثل ضرورة حتمية، من جهة المعطى الصوري، فالفكر في ذاته لا يحمل الأخطاء، لكنه بالنظر إلى أن هذا

¹ Descartes, Meditation 2, op cit P 49

² Descartes, Meditation 1, ibid P 26

الفكر، يمثل خصوصية الإنسان الحر، الذي يفكر ويفهم ويريد، يكون احتمال الخطأ أمراً ضرورياً، وفق نظام الأفكار.

هل يمكن . والحال هذه . أن نتفادى الخطأ؟ لا يحجم ديكارت عن الإجابة بنعم، ولكنه يشترط لازمتين:

الأولى: نقد أفكارنا عموماً، ويلعب التأمل الأول، الدور الأكبر في ذلك، إذ ينبهنا إلى أهمية الشك، وجاهزيته لتعرية الأوهام والخرافات.

الثانية: تأسيس العلم بما هو علم، ولا سبيل إلى ذلك، إلا بإقامة النور الفطري، مع تنقية مناطق الفكر الثلاث: الفاهمة، والتخيل، والشعور، فبدون هاتين اللازمتين لا يحصل اليقين العلمي، الذي هو غاية البحث عن الحقيقة، غير أن هذا اليقين، حتى لو بلغناه، يحتاج إلى ضمان يؤمن التجربة الابستمولوجية، من تلبسات الشيطان الماكر: تلك هي مهمة الإله، التي لا يمكن لغيره القيام بها.

الجوهر اللامتناهي (الإله)

لا يمكن إغفال المكانة البارزة، التي يتبوؤها الإله في النسق الديكارتي، تلك ملاحظة بالغ أحد الشراح الألمان في التشبث بها، هو رينهولد، حيث اعتبر أن المبدأ، أو الفكرة المؤسسة في فلسفة ديكارت، هو الإله "فالملاحظ، حسب رينهولد .

ويختلف في هذا مع كل الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة الألمان الآخرين في ذلك العهد .
أن المبدأ الأساس في فلسفة ديكارت، لا يتمثل في الكوجيتو، بل في الإله⁽¹⁾.

ويطرح مفهوم الإله، في علاقته بالخطأ لدى ديكارت، في كتاب التأملات
على مستويين: فالتأمل الثالث، يقدم فكرة متقدمة عن الإله، بوصفه جوهرًا، فيما
يطرح التأمل الرابع مشكلة الخطأ في علاقتها بالإله.

لكن ما الذي يعنيه الإله بالنسبة لديكارت؟

يقول ديكارت: "إنني أقصد بالإله، ذلك الجوهر اللامتناهي، الأبدي،
الثابت، العليم، القادر، الذي خلقني وأبدعني، وخلق وأبدع كل الأشياء
الأخرى.."⁽²⁾.

يقوم الإله إذن بمهمتين: الأولى انطولوجية، والثانية إبستمولوجية، فالمهمة
الانطولوجية ماثلة في خلق العالم، وإعادة خلقه بصورة أبدية، بل وفي كل لحظة،
"حسب مختلف الأشكال، لكن أيضا حسب مبدأ الثبات، دائما وأبدا"⁽³⁾.

وأما المهمة الإبيستمولوجية، فتتمثل في ضمان الحقيقة، عن طريق إقصاء
فرضية الشيطان الماكر، ذلك أن هذه الفرضية "تقوم مقام شرط الشك، الذي يضرب
الأفكار الواضحة والتميزة، فالمسلك الأول الذي ينبغي سلوكه، هو دحض هذه
الفرضية، وفي سبيل ذلك ينبغي البرهنة على وجود الإله، لكي نعيد . بصورة يقينية

¹ Reinhold, Les études philosophiques, art. la conception de la philosophie cartésienne, paris puf 1985

² Descartes, Méditation 3, ibid PP 68-69

³ Kant, et la théorie du ciel, ed. Librairie philosophique, 1984, P 231

علميا . إلى كونية أفكارنا الواضحة والمتميزة، القيمة الموضوعية، التي يضيفها فكرنا عليها بحكم طبيعته، بصرامة، ودون دليل⁽¹⁾.

ضمان الحقيقة يقتضي إذن، البرهان على وجود الإله، غير أن البرهان على وجود الإله، يقتضي هو الآخر وجود آلة يمكن بها لهذه البرهنة أن تتم، نحن إذن أمام منطق الحجة وحجة الحجة، ذلك أنني "لا أعرف الإله، إلا عن طريق فكرة ما، ولا يمكنني إثبات وجوده، إلا إذا كان لفكرته وجود موضوعي، فأنا إذن مجبر على سلوك طريق ثانية، غايتها البحث عن أساس القيمة الموضوعية للفكرة، أثناء الاجتياز إلى الإله"⁽²⁾.

يحتاج الأمر إذن، على نحو ما عبر عنه غرو . إلى سلوك طريقتين: طريق مباشرة، وأخرى غير مباشرة، فالمباشرة تقود تحليلنا إلى أن يتفحص . استنادا إلى منهج محكم . مختلف الأفكار، تبعا لدرجة موضوعيتها، للنظر فيما إذا كانت تشتمل، على أفكار أو فكرة واحدة على الأقل، تمتلك بالضرورة قيمة موضوعية، ونتيجة هذا المسلك، اكتشاف فكرة في ذاتي، هي فكرة الإله، التي لا يمكن تجاهل قيمتها، إنها تحيل إلى واقع خارج عن ذاتي، يقول ديكارت: "أقول إن فكرة هذا الوجود الكامل غاية، واللامتناهي، فكرة حقيقية تماما، ذلك أنه حتى لو سلمنا، أن مثل ذلك الوجود غير موجود بالمرة، فليس في مقدورنا التسليم أن فكرته، لا تمثل أي بعد واقعي، على نحو ما قلت ذات مرة بخصوص فكرة الشيء البارد"⁽³⁾.

¹ Martial Gueroult, Descartes selon l'ordre des raisons, op cit, T2, P 280

² Ibid p 280

³ Descartes, Meditation 3, op cit P 70

إن القيمة الموضوعية لهذه الفكرة، مضمونة عن طريق الصدق الكوني، الذي هو محل ثقة منذ الآن، ولذلك نستطيع القول: إن بناء القيمة الموضوعية للفكرة، والبرهنة على وجود الإله، يقودان في النهاية، إلى منظور واحد. وأما الطريقة الثانية، أي المسلك غير المباشر، فيتمثل في أن نبقي لكل الأفكار الواضحة والمتميزة قيمتها الموضوعية الأصلية التي تمنحها إياها الفاهمة بالطبيعة، داحضة بذلك الشيطان الماكر، غير أن ذلك لا يحصل إلا باللجوء إلى المسلك المباشر، الذي يسبر منهجيا هذه الأفكار واحدة واحدة، دون أن يدحض ذلك التخيل".

يؤكد ديكارت إذن، أن البحث الموضوعي والنقدي، عن القيمة الموضوعية للأفكار، من شأنه إثبات الإله، وأن إثبات وجود الإله، من شأنه هو الآخر إثبات القيمة الموضوعية لأفكاره، غير أن العصي على الحل، هو: كيف يكون هذا الإله، الذي هو صدق مطلق محض، مصدرا لأخطائنا وآثامنا؟ يقول ديكارت: "إن الإله بحكم كونه مطلق الكمال، لا يتصور أن يكون مصدرا لأي خطأ، وبموجب ذلك ينبغي أن نستخلص أن هذه الأطروحة أو هذا الحكم أمر حقيقي"⁽¹⁾.

تلك هي إجابة ديكارت في التأمل الرابع، غير أن الإله إذا كان بهذا الصدق المطلق، الذي يستبعد كل أشكال الخطأ، ينبغي أن يحفظ الصدق الكوني، ومع ذلك نلاحظ أن الإنسان . الذي هو جزء من هذا الكون، لا يسلم من الخطأ، وعلى هذا المستوى يصبح المشكل أكثر حدة: فإن نحن رفضنا هذا الصدق المطلق، فقد أعلننا السماح بعودة الشيطان الماكر، الذي دحضناه عن طريق

¹ Ibid, P 95

الكوجيتو، كما أننا إذا رفضنا وجود الخطأ، وقعنا في التناقض مع الواقع، ما المخرج إذن؟

لتجاوز هذه المعضلة، . يصير ديكرت على تقبل الأطروحتين معا: الصدق الإلهي، وإمكانية الخطأ في الوقت نفسه، ذلك أننا بدون الحفاظ على أطروحة الصدق الإلهي المطلق، لن نصل إلى العلم، وهو ما يعني ديمومة الخطأ، بصورة أبدية، لكننا بالمقابل إن لم نصل إلى إثبات إمكانية الخطأ، فلن يكون للعلم معنى ولا قيمة، وعندئذ تحل السفسطة محل العلم.

الخلاصة أن نقد جوهر الكوجيتو والإله، يكشف عن اليقينية المشروطة للأول: الكوجيتو، واليقينية المطلقة للثاني: الإله، فماذا عن الجوهر الثالث؟

الجوهر المادي أو الامتداد L'étendue

وفق المنهج المتبع لدى ديكرت في التأملات، نلاحظ أن مشكل وجود الأشياء المادية، يحل على مستويين: فالتأمل الخامس، أثبت واقعية ماهيتها، فيما أثبت التأمل السادس وجودها، إذ يظهر في المستوى الأول، أن ماهية هذه الأشياء هي الشرط الضروري لوجودها، إذا نحن تشبثنا بالفكر المحض، المنبثق عن الفكرة الواضحة والمتميزة لتأسيس العلم، ولطرد الشيطان الماكر ووساوسه، بفضل الإله الصادق الضامن، ذلك أنه "قبل أن أفحص عما إذا كانت تلك الأشياء توجد خارج

ذاتي، ينبغي أن اعتبر أفكارها بوصفها موجودة في فكري، وأن أثبتن المتميز منها والغامض⁽¹⁾.

إن وجود هذه الأشياء أو ما سماه ديكارت "الموجود خارج ذاتي" مسبوق أو مشروط بما سماه ما في ذاتي en moi أو بعبارة أخرى أفكار هذه الأشياء، مثلما أن فكرة الوجود الكامل اللانهائي، تسبق إثبات وجود الإله، وفق هذا النظام.

وأما في المستوى الثاني: المتعلق بالبرهنة على وجود هذه الأشياء "فحاصل منهجيا، بالاعتماد على واقعية ماهية هذه الأشياء المادية: الواقعية التي سبقت برهنتها، على ضوء الفاهمة، فهي تستخلص ابتداء أن وجود تلك الأشياء ممكن، بالاعتماد على حضور التخيل في ذاتي، ومن ثم تستخلص في النهاية أن وجودها يقيني"⁽²⁾.

من الجلي إذن، أن درجة اليقين العقلي، هي التي تتغير حسب مختلف مساحات الروح، وأن هذا اليقين يقع خارج الأشياء نفسها، فالعلم المادي يحضر كإمكان بالنسبة لفاهمتي، وكاحتمال بالنسبة لمخيلتي، وكيقين بالنسبة لشعوري، وهذه المكانة المكنية، التي يتبوؤها الشعور هنا، ينبغي الانتباه إليها، إذ ستصبح فيما بعد رافدا كبيرا للفينومينولوجيين المحدثين، كهوسرل وهيدغير ومرلوبونتي.

¹ Descartes, Meditation 5, op cit P 96

² Marcial Gueroult, Descartes selon l'ordre des raisons, op cit, T2, P 7

من الملاحظ أن هذا المسلك النقدي، يتدرج من أحط درجات اليقين، إلى أعلاها: أي الشعور، فهل يعني هذا، أن للشعور منزلة أرفع من الفاهمة لدى ديكارت؟

المراهن عليه هنا، هو أن يقينية العالم المادي، أمر ضروري لدى ديكارت، من أجل تأسيس العلم الفيزيائي، وهذا اليقين لن يصبح ممكناً إلا عن طريق الروح... لهذا تتناط هذه الأطروحة من جهة، بتميز الروح عن الجسد، كما تتناط من جهة أخرى باتحادهما، فالأطروحة الأولى تحيل إلى العقل، فيما تحيل الثانية إلى الشعور وترسم حدوده⁽¹⁾.

إن التميز الواقعي بين الجواهر عموماً، هو شرط الوجود، لأنه الوسيلة الوحيدة التي أدرك بها أن جوهر الامتداد، غريب بشكل جذري عن الفكر، ولهذا السبب لم يكن لديكارت . كما رأى ذلك غرو . أي حاجة لإثبات وجود الأجسام، بوصفه شرطاً لتأسيس الفيزياء الهندسية، من أجل دحض الفيزياء الكلاسيكية⁽²⁾.

هكذا يتم تأمين يقينية الأشياء المادية، عن طريق فاهمتنا (على مستوى التمييز الجوهرى)، وعن طريق شعورنا (على مستوى وحدة الروح والجسد)، وعلى صدقية الإله، أن تضمن هذه اليقينية، لكن كيف يتسنى للخطأ الظهور من جديد، رغم هذه اليقينية الصارمة؟

¹ Ibid, P 9

² Ibid, P 13

ربما يدفعنا هذا التساؤل، إلى نقد القيمة الموضوعية لأفكارنا الحسية، التي هي موضوع الخطأ.

الحس والطبيعة

لنذكر هنا، بأن النظام المتبع لدى ديكارت في التأملات، هو النظام التحليلي، حيث المراهن عله هو دائما فكرة الفاهمة، لذلك تعالج إشكالية الخطأ في ضوء الفكرة الواضحة والمتميزة.

ففي التأمل VI يتم دمج الشعور في مساحة المعرفة، بل وتحدد واقعيته ودرجة صدقه، بالتلازم مع درجة واقعيته، فنظام العقل ينقلنا إذن، من الفاهمة إلى الشعور.

وبغض النظر عن هذا التحديد، تأخذ مسألة الخطأ انطلاقا من التأمل V و VI شكلين مختلفين: ففي الأول، ينشأ الخطأ عن حريتنا، عندما لا تضع في الاعتبار حدود فاهمتنا، ولذلك تعانق ما لا تعرفه بوضوح وتميز: بتعلق الأمر هنا بالأفكار الحسية، إذ رغم أن الخطأ نابع من حريتنا، فإنه لا ينشأ عنها بصورة مطلقة، إذ لو انحصرت هذه الحرية، في الأفكار الواضحة والمتميزة، المستمدة من الفاهمة، لما كان للخطأ محل، فمنتشأ الخطأ إذن هو الاستعمال السيئ لإرادتنا.

غير أن مسلك التأمل VI مختلف عن مسلك التأمل V، إذ يراهن على أن الشعور في ذاته، لا يعرف الخطأ، وإذا كان يخطئ في بعض الأحيان، فلأننا ندمج عناصر من الفكر المحض. أي من الفاهمة. في الطبيعة الحقيقية والموضوعية، أو المعطى الحق للحس، يقول ديكارت: "غير أن هذه الطبيعة، تعلمني كيف

أتجنب الأشياء، التي تسبب لذاتي الشعور بالألم، وكيف أتشبث بالأشياء التي تمنحني الشعور بالمسرة، إن معرفة حقيقة هذه الأشياء، ترجع فقط إلى الفكر، لا إلى الكيان المركب من فكر وجسد⁽¹⁾.

إلا أننا قد نتصرف بطريقة مشوشة، من شأنها تضليل نظام الطبيعة، حيث نأخذ المشاعر، على أنها أدوات لفهم طبيعة الأجسام، وعندئذ يتحتم علينا الخطأ، "مثال ذلك، أن النكهة العذبة لبعض اللحوم، التي يدس فيها السم، قد تغرينا بتناول هذا السم، فنقع في خداعها"⁽²⁾.

ألا ينبغي هذان المسلكان على تناقض، عندما ما يؤكدان من جهة، أن الخطأ نتاج الاستعمال السيئ لحريتنا، فيما يؤكدان من الجهة الأخرى، أنه نتاج الاستعمال السيئ لطبيعتنا؟ رغم هذا التناقض الظاهري، يبدو جلياً أن التحليل يصب في مفهوم واحد للخطأ، وهو ما يوجب صياغة حل واحد للأشكال، يتمثل في "إعادة الفاهمة إلى ذاتها، وذلك بتنقيتها من الشعور، وإعادة الشعور "الطبيعة" إلى ذاته، وذلك بتنقيته من الفاهمة".

نظرية الخطأ وعوائقها

هل بإمكاننا الحديث عن نظرية للخطأ عند ديكارت؟ يقول ابروشار عن نظرية الخطأ الديكارتية: "رغم بعض الانتقادات، التي يمكن أن نوجهها إلى

¹ Descartes, Méditation 6, op cit P P 125-126

² Méditation 5, ibid P 127

ديكارت، يبدو لنا جليا أن نظريته هي الأكثر عمقا، والأكثر إقناعا، من بين كل النظريات التي سبق اعتمادها⁽¹⁾.

إن القول بوجود نظرية للخطأ لدى ديكارت، يستلزم الإضاءة حول القيمة الميتافيزيقية الابستمولوجية لهذه النظرية.

والاعتبار الأول الذي يطالعنا في هذا المسعى، ماثل في أن الخطأ لا يمكن معالجته إلا عن طريق الجوهر، وهو ما يغرينا بالبحث عن العلاقة بين هذين المفهومين، وطرح الأسئلة من جديد، هل الجوهر هو مصدر الخطأ؟، إذا لم يكن الجوهر مصدرا للخطأ، فهل للخطأ مصدر "خارج الجوهر؟"، هذان السؤالان يصبان في عوائق كبيرة: ذلك أن تأكيد كون الجوهر مصدرا للخطأ (سواء كان جوهر فكريا أو ماديا، أو إلهيا)، يعني أن الشيطان الماكر حل محل الكوجيتو، وهو ما يعني دحض كل إمكانية لبناء العلم، وعندئذ يخيم ليل الشك والخطأ الكوني، كما أن نفي كون الجوهر مصدرا للخطأ، يستلزم البحث عن الخطأ خارج الجوهر، وهذا "الخارج" يطرح مشكلة، فهل يعني هذا الخارج عدم مثلا؟

معلوم أن ديكارت، كان يقاوم بشدة أطروحة عدم، لأن الوجود يفترض صفة للموجود، والعدم يفتقر إلى الصفات والكيفيات.

للبحث عن هذا "الخارج"، نلاحظ أن ديكارت يعالج مسألة الخطأ، من خلال نسقية منطقية ما، نسقية تنظر إلى الخطأ، لا بوصفه وجودا جوهريا معتبرا، بل بوصفه اختلالا في نسق التفكير، فعلى مستوى الفاهمة نتذكر دائما، الفاهمة

¹ Victor Brochard, De l'erreur, Paris, librairie felixalgau, 1989, P 60

مثلاً، لا تحمل الخطأ في ذاتها، بل بفعل الاستعمال السيئ للحرية: الاستعمال المصاحب للانهائية الإرادة، إنها ليست مسؤولة عن الخطأ بتاتا، فهل منشؤه حرية الاختيار مثلاً؟

يجيب ديكارت أيضاً بالنفي، لأن هذه الحرية لا تخطئ أبداً، ما دامت تتناول الأفكار الواضحة وال متميزة، وهذا أيضاً ما ينسحب على الحس والشعور، بما هو تعبير عن الطبيعة، والطبيعة، لا تحمل في ذاتها الأخطاء، لكن التأثير السلبي للعقل على هذه الطبيعة: أي على الشعور، هو علة الخطأ والإثم.

هل نذبط الخطأ بالإله، أي بالجوهر اللامتناهي؟ كلا، فالإله لا يمكن أن يكون مصدراً لأخطائنا، للتناقض القائم بين الصدق المطلق الذي يتصف به الإله، وبين الخطأ والخديعة، لكن بما أن الإنسان متناه، فاحتمال الخطأ يظل وارداً في كل وقت، ولهذا تتفاقم الإشكالات بدل أن تحسم.

أولاً: بما أن الإله صدق مطلق، ينبغي أن يكون عالمه تعبيراً عن الحقيقة المطلقة، لأن هذا العالم هو صنع الإله ذاته، ورغم ذلك نلاحظ أن الإنسان الذي هو عنصر من هذا العالم، يقع في الخطأ والإثم، لا بد إذن من دحض هذه الحقيقة المطلقة، أو دحض وجود الخطأ، ولاشك أن دحض الصدقية الإلهية المطلقة، يعني فتح الباب أمام الشك، ويكافئ ذلك القضاء المبرم على العلم، وهدمه من أصوله، كما أن دحض وجود الخطأ يعني التناقض مع الواقع من جهة، ورفض العلم من جهة أخرى، إذ أن أساس العلم يحتم إمكانية الخطأ إلى جانب الصواب، ولولا ذلك لما استطعنا أن نفرق بين الحق والباطل في العلوم.

لتجاوز هذه المعضلة، يتشبث ديكارت . كما أسلفنا . بالجمع بين الأطروحتين في الوقت نفسه، حيث يتوجب الحفاظ على إمكانية الخطأ، رغم صدقية الإله، وعلى صدقية الإله، رغم إمكانية الخطأ.

ثانيا: يتولد عن هذا الحل إشكالان: أحدهما ميتافيزيقي يتمثل في السؤال: كيف يكون الخطأ ممكنا بالنظر إلى الصدقية الإلهية، والآخر أبيستمولوجي، ماثل في السؤال: كيف يكون الخطأ ممكنا بالنظر إلى الروح؟

ومعالجة هذين الإشكاليين، تمر عبر مستويين: ميتافيزيقي، وإنساني، فعلى المستوى الميتافيزيقي لا يعدو الخطأ شكلا من أشكال الحد (Limitation)، أو عدما محضا من منظرو الإله، وأما على المستوى الابستمولوجي أو الإنساني، فالخطأ وجود موضوعي من منظور الإنسان، لأنه يمثل حرمانا ما.

ومن جديد نجد أنفسنا أمام إشكالية طبيعة الخطأ، فالخطأ بوصفه عدما، لن يكون له سبب، إذ لا سبب إلا للأشياء الواقعية، والخطأ ليس واقعا وفق ما توحى به كلمة الواقع، بل يتعلق الأمر فيه بفعل واقعي للحكم، رغم خطأ الحكم نفسه، هل يمكن القول إذن إن الخطأ، بوصفه فعلا واقعا للحكم . يجد سببه في إرادتي الحرة، بالنظر إلى التناقض بين لانهائية الإرادة، ونهائية الفاهمة؟

بإمعان النظر، نكتشف أن هذا التناقض ليس أبدا سببا للخطأ (إذا سلمنا بأن الخطأ عدم)، بل هو سبب الفعل الموضوعي للحكم، لهذا السبب "لا يكون

للخطأ من أساس، غير هذا العدم الموجود في ذاتنا، أو هذا الخواء الميتافيزيقي، المفتوح أمام إرادتنا اللامتناهية، عن طريق فاهمتنا المتناهية⁽¹⁾.

ومن ركّام هذه المعضلات، ينهض إشكال جديد، مفاده السؤال عما إذا كان: من الممكن وضع حد للخطأ؟ وبأي وسيلة؟ وعما إذا كانت تلك المهمة، منوطة بالإله أم بالفاهمة؟

إذا قلنا: إن الإله هو المتكفل بضمان الحقيقة، وبوضع حد للخطأ وإنهائه، فأى دور يبقى للفاهمة كي تلعبه؟ وإذا قلنا بالمقابل: إن فاهمتنا هي المسؤولة عن ضمان الحقيقة، استنادا إلى إنتاج الأفكار الواضحة والتميّزة، ألا يعني ذلك الاستغناء عن الضمان الإلهي، وإفراغه من محتواه؟

هذا المنعرج الميتا ابستمولوجي، هو الذي قسم شراح نظرية الخطأ الديكارتيّة إلى اتجاهين: اتجاه يراهن على الفاهمة، ويمنح الإله وظيفة متواضعة، واتجاه يراهن على الإله، ويترك للفاهمة مجالا محدودا.

غير أن البحث عن الإجابة، من داخل نصوص ديكارت، يبين جليا، أن مسلك حل العقدة، مختلف عن رأي الاتجاهين، ذلك أن السؤال لدى ديكارت منوط بنسق جواهري، لا يلغي لا الإله، ولا الأفكار الواضحة الرياضية للفاهمة، ذلك ما انتبه إليه جان ليك ماريون، عندما بين أن من الضروري، التثبث بأطروحة الصدق الإلهي، "مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الصدق الإلهي، لا يضمن حقيقة غير

¹ Marcial Guérout, Descartes selon l'ordre des raisons, op cit, T2, P 281

الأحكام التي تصدرها، انطلاقاً من أقوى يقين ممكن، وهي الأحكام التي إذا فسدت، لم يعد في الإمكان تصحيحها"⁽¹⁾.

لقد خلقنا الإله، وفيما قابلية الخطأ، لكنه لا يساعدنا ولا يدفعنا إلى الخطأ والخديعة، إذ أن الانخداع حرمان أو نقص بالنسبة إلينا، لكنه بالنسبة إلى الإله، لا يمثل غير سلب بسيط، وبهذا نرجع إلى أطروحة: أن الخطأ نابع من الاختلال بين فاهمتنا المتناهية، وإرادتنا اللامتناهية.

غير أن هذه الأطروحة، ستواجه من جديد مأزقا عصبيا، ذلك أننا إذا سلمنا أن الفاهمة في ذاتها، لا تعرف إلا الحقيقة، وبأنها تخطئ فقط بسبب اختلال ما، وسلمنا أيضا بأن الإرادة، لا تعمل إلا وفق أفكار الفاهمة: فكيف نسلم بأنها تتعلق بأذنان العدم، وبأنها لا متناهية بالنسبة إلى الفاهمة؟ ذلك ما انتبه إليه غاسندي، فأودعه بعض اعتراضاته الشهيرة على فلسفة ديكارت⁽²⁾.

يبدو وفق ما ذهب إليه بروشار، أن عصمة الفكر هذه، هي العائق الديكارتي الذي لم يستطع الفيلسوف الفرنسي تجاوزه، ذلك "أن نظرية الخطأ، لا تتعرض لأي إشكال، لو سلمت بأن الفاهمة ليست معصومة البتة من التفكير في أشياء لا وجود لها، أو غير تلك التي تعتقد أنها تفكر فيها، فالإرادة إذن . بفعل الاختيار الحر . تطرح أشياء لا تعدو صناعة الفكر، وتعتبرها حقيقية، تبدو المعضلة غير قابلة للحل إذن، إذا ما اعتبرت الفاهمة معصومة، والظاهر أن

¹ Jean luc Mairion, art : l'ambivalence de la métaphysique cartésienne, Paris, PUF, Octobre, Décembre 1976

² Descartes, Méditation 5^e objection, op cit P 248

ديكارت، غير قادر على الجواب المقنع في هذه الحثيثة، بل يكاد يعترف بالعجز عنه⁽¹⁾.

لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل نلاحظ من زاوية أخرى، أن ديكارت يؤكد أحيانا عدم اكتراث الإرادة، كما لو كانت تمتلك حرية اختيار الخير والشر، والصائب والخطي، لكنه في أحيان أخرى، يصر على أن عظمة الإرادة، ماثلة في كونها إنما تتشبت بما هو خير وحقيقي، وتقصي كل ما هو شر «خطأ»، فهي بهذا المعنى لا تعد غير مكرثة، لأن اختيارها مرهون بسبب واضح ومتميز، وعندما يؤكد ديكارت هاتين الوضعيتين المتعارضتين للإرادة، يعتبر الأولى معبرة عن أحط درجات الحرية، فيما يعتبر الثانية تعبيراً عن أعلى درجات الحرية.

تصب مجريات التحليل في هذا السياق، في الاعتماد على خاصيتي الوضوح والتميز، بوصفهما معيارين غير قابلين للدحض، غير أن هذين المعيارين يحتاجان إلى النقد والتمحيص، قبل اعتبارهما قيمتين موضوعيتين للحقيقة، ذلك أن معرفة الشيء على أنه حقيقي، إنما تعني ظنه كذلك، والظن لا يكافئ الوضوح والتميز، كما أن هذين المعيارين الأخيرين: (الوضوح والتميز)، لا يكفئان البداهة، رغم أن ديكارت ما فتئ يؤكد تكافؤهما، فمعرفة الشيء بداهة، لا تعني معرفته بتميز، فالمعرفة بالبداهة، تعني تقديم الشيء إلى الذات على أنه بديهي، أي ظنه كذلك، فالوضوح والتميز خاصيتان منطقيتان، على خلاف البداهة، فهي خاصية بسيكولوجية.

¹Victor Brochard, De l'erreur, op cit, P 63

نحن هنا إزاء العمق النقدي الكانطي: فقد كان اعتراض كل من هوبز، وهيراسبيتس، بمثابة ضرب المعيارية الديكارتية في الصميم، فالأول أعلن قصور معياري الوضوح والتميز، بالنظر إلى أن الشيء قد يكون واضحاً ومتميزاً، دون أن يكون حقيقياً: "هناك وضوح كبير في الفاهمة . يقول هوبز . لا يعدو مجازاً... فكل من ليس له شك في مسألة، يعتقد في مثل ذلك الوضوح.." (1).

ولا يذهب هيراسبيتس بعيداً، فنقده يصب في نفس المسلك، إذ يعترض على ديكارت من زاوية، أن الفاهمة قد يلتبس عليها الحق والباطل، فيظهر لها الخطأ على أنه حقيقة، يقول هيراسبيتس، مخاطباً ديكارت: "تقولون إن الخطأ، لا يمكن أن يتجلى للفاهمة في مظهر الصواب، ألا يعد من الخطأ القول: إننا لا نجد في أنفسنا فكرة الإله؟ ومع ذلك لا يفتأ مهندسونا يعتقدون ويصدقون، أننا لا نجد في أنفسنا هذه الفكرة، ألا يأخذون عندئذ الخطأ في مظهر الصواب، على خلاف ما قلتم تماماً؟" (2).

ورغم هذا الاعتراض المدوي، يظل جواب ديكارت ثابتاً: وهو رفض أن يكون أولئك "المنخدعون" في نظره، قد صدروا عن أفكار واضحة ومتميزة، وهنا تظهر الدوغمائية الديكارتية في أوضح تجلياتها.

لنعد من جديد إلى معضلة موضوعية الخطأ أو عدميته، إذ يبدو أن ديكارت لم يحسم في المسألة، بل ظل يثبت أحياناً موضوعية الخطأ، وأحياناً أخرى سلبيته، فكما يصرح به بروشار: "إذا نظرنا إلى الفعل الذي يسبب الخطأ، تبين لنا

¹ Descartes, Méditations Réponses aux 3^e objection, op cit P 196

² Descartes, lettre I, Œuvres, XI, op cit, p248

أن الخطأ يبدو موضوعيا من ناحية، بالنظر إلى كونه فعلا حرا، مصدره الإرادة، لكنه يبدو من ناحية أخرى سلبا، وذلك بالنظر إلى كونه فعلا، وليس إرادة، غير كاملة البصيرة، يتعلق ديكارت بالناحية الثانية، دون أن يهمل الأولى⁽¹⁾.

هل من الحزم، أن نؤكد موضوعية الخطأ وسلبيته وعدميته في الوقت نفسه؟ يبدو أن مفهوم العدم هنا يكتسي غموضا، والتباسا، لدى ديكارت كما ينبه إليه غاسندي⁽²⁾: فهل يتعلق الأمر بنوعين من الخطأ؟ أم بنوع واحد لا يتعدد؟ أو بمعنى آخر، هل نتحدث عن خطأ موضوعي وآخر سلبي؟ أو عن خطأ واحد تحت مظهرين مختلفين؟

من الواضح أن ديكارت، يتحدث عن نوع واحد من الخطأ، لكنه لا يخلو من ازدواجية، تعود إلى اختلاف زاوية النظر، فإذا اعتبرناه فعلا إراديا جعلناه موضوعيا وموجبا، وأما إذا اعتبرناه حرمانا من معرفة الحقيقة قلنا بسلبيته وعدميته، لكن المشكل عند ديكارت أن الحكم هو وحده الذي يؤكد أو ينفي، فهل يعني هذا أن فعل الحكم في حد ذاته إرادي؟ يقول ديكارت: "لمعرفة ما إذا كانت الإرادة تمتلك قوة موضوعية للتحقق، ينبغي أن ننظر إليها قبل أن تكون فعلا ممارسا"⁽³⁾.

رغم إن ديكارت يعترف بالعجز عن حل الكثير من المشاكل المتعلقة بمسألة الخطأ، ووفق هذا التعايش يظهر العالم لديكارت بما هو صيرورة ذات سياق عرضي، وهو ما يشبه أطروحة سينوزا، الذي يرى أن العالم ضروري استمراري.

¹ Victor Brochard, De l'erreur, Paris, Librairie Felixalgau, 1989, P48

² Descartes, Méditations, Réponses aux 5^é objection, op cit P 196

³ Victor Brochard, De l'erreur, ibid p 62

- Leon Brunschvicg, Spinoza et ses contemporains, PARIS, PUF, 1951.
- Deleuse, qu'est la philosophie? Tunis, ceres, 1993
- Alquié, "Descartes". ed. Mis au jour, 6eme.
- Marcial Gueroult, Descartes selon l'ordre des raisons, T2.
- Reinhold, Les études philosophiques, art. la conception de la philosophie cartésienne, paris
- Kant, et la théorie du ciel, ed. librairie philosophique, 1984.

السكن العشوائي وإشكالية الفقر الحضري بمدينة نواكشوط

الحسين ولد بديدي

باحث في علم الاجتماع

مقدمة:

تعتبر العشوائيات أحد البدائل التي فرضت نفسها لحل مشكلة الإسكان بالنسبة لفئة محدودي الدخل من سكان الحضر في كثير من الدول النامية، وتلعب خبرات هؤلاء الأفراد عبر الزمن دورا في تشكل العشوائيات ونموها في المدن، حيث يتم نقل هذه الخبرات من جماعة إلى أخرى، كما تلعب الخصائص الفيزيائية والاجتماعية والسياسية والقانونية، وكذلك الأولويات والتفضيلات والثقافة، والموارد المتاحة دورها في تشكيل ونمو هذه العشوائيات، ولذلك فإن أنماط العشوائيات تختلف من منطقة لأخرى تبعا لتنوع هذه العوامل المختلفة، سواء المرتبطة منها بالمكان أو بالأفراد، بل إنها تختلف في منطقة واحدة تبعا لاختلاف سكانها من حيث تلك الخصائص، من هنا إذا لا يمكن النظر إلى قضية العشوائيات، أو تصنيفها، أو فهم ظروف نشأتها، أو محاولة دراستها أو طرح البدائل المختلفة لحل المشكلة دون الإحاطة بمختلف أبعادها.

وقد اهتم علم الاجتماع بدراسة سكان المناطق العشوائية واعتبرها موضوعا أساسيا من موضوعاته. وعلى أساس ذلك تعددت المداخل والمفاهيم والأطر النظرية والمنهجية والأهداف التطبيقية لدراسة هذه الظاهرة. أما بالنسبة للتراث الانتربولوجي فقد ارتبطت دراسة المناطق العشوائية وواضعي اليد بفرع الانتربولوجيا الحضرية بصفة عامة، وبالدراسات الحضرية المهمة بالفقراء، والطبقات الدنيا والمناطق

المتخلفة بصفة خاصة، فنجد أن الأنثروبولوجي J. Farnes, Goode مؤلف كتاب " أنثروبولوجيا المدينة " يؤكد أن معظم الدراسات الحضرية قد ركزت على الفقراء ومناطق إسكانهم.

وتعد ظاهرة المناطق العشوائية من أهم ما صاحب النمو الحضري وإحدى مشكلاته في العالم الثالث، حيث تضم نسبة كبيرة من سكان الحضر (أكثر من ثلث السكان) وفقا لتقارير الأمم المتحدة بل إضافة إلى أن هذه المناطق في ازدياد مستمر نتيجة عوامل بنيوية من أهمها انعدام الإنصاف والعدالة الاجتماعية في هذه البلدان وما ينجم عن ذلك من فقر وأمية وأمراض وبطالة وغير ذلك من أنواع الهشاشة. وفي هذا العمل نحاول استعراض هذه الظاهرة في موريتانيا وأبرز تجلياتها ومسار تطورها، وإلى حد يعكس انتشارا لسكن العشوائي في مدينة نواكشوط مؤشرا على فشل السياسات الإسكانية ؟

. أهمية الدراسة

اتضح من المقدمة أن الفقر وفقراء الحضر والمناطق العشوائية من أهم موضوعات علم الاجتماع الحضري، بل إنها من أهم المشكلات الاجتماعية في العالم الثالث. لذلك فإن هذا البحث خطوة واقعية عملية لتقديم مدخل علمي لدراسة واحدة من أهم المشكلات الاجتماعية في المجتمع الموريتاني. إذ تشكل مناطق العمران غير المصنف " المناطق العشوائية " نسقا متكاملا أوجدته مجموعة من الظروف الاجتماعية، تعتبر الحاجة إلى المأوى أولها، ثم يأتي القطاع الاقتصادي غير المصنف كنتاج لنشأة هذه التجمعات البشرية، وتبدأ عملية تفاعل عضوي بين

مختلف أبنية هذه التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية تؤدي إلى مزيد من نمو وتضخم هذه الظاهرة، التي تتخذ أشكالا وتمظهرات متعددة، حيث نجد أنفسنا نتحدث عن أنماط مختلفة للعشوائيات وليس نمطا واحدا، فهناك بالإضافة إلى المناطق العشوائية غير المخططة والتي يكون سكانها في غالبيتهم من شريحة الفقراء، نمط آخر من الإسكان اصطلح على تسميته "بالإسكان العشوائي الراقى" وهو عشوائي لأنه ينطوي على أحد محددات العشوائية أو بعضها، كأن تكون أرضا غير مخططة عمرانيا، أو تكون أرضا زراعية غير مسموح بالبذاء عليها. ولذلك فبالرغم من تسجيل ملكية الأرض لقاطنيها ومن الحصول على تراخيص البناء السليمة، ومن وصول كافة مرافق البنية الأساسية إليها، إلا أنها تعتبر عشوائية من المنظور العمراني التخطيطي، مع أنه إسكان راق لأن الفئات الاجتماعية التي تقطن هذه الأماكن وتعمرها تتدرج ضمن الفئات الاجتماعية العليا في المجتمع.

وهنا أعود فأكرر أن العشوائية ترتبط في تعريفها بالمكان وبالأفراد الذين يعمرهم المكان، ولأن هذا الإسكان العشوائي الراقى يقتصر فقط على عشوائية البناء الاجتماعي، فقد خرج من اهتمام هذه الدراسة التي تركز على العشوائيات من هذين البعدين، بعد المكان وبعد الإنسان، في علاقتهما بالفقر¹

وأخيرا لا بد من التأكيد على الفرق بين المناطق المتدهورة عمرانيا أو المتخلفة بالمعنى الاقتصادي الاجتماعي، وبين المناطق العشوائية فالأولى قد تكون مخططة ولكنها متدهورة بالمعنى العمراني مثل الأحياء الشعبية القديمة، أما الثانية فهي عادة

¹ محمد الجوهري و آخرون ، دراسات اجتماعية معاصرة ، جامعة القاهرة ،، مصر ، الطبعة الأولى 2006 ، ص 154

ما تكون غير مخططة أو تم البناء عليها بشكل غير قانوني، سواء من حيث الحصول على الأرض أو من حيث عملية البناء نفسها، إلى جانب كونها متدهورة عمرانيا، فالمناطق العشوائية ما هي إلا مناطق متخلفة يطلق عليها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا مصيدة الفقر، والحرمان والبؤس، حيث يسود عدم التنظيم الاجتماعي، وينظر إليها على أنها حاضنة لجميع الأمراض الاجتماعية من فقر، واغتراب، وجريمة، وعدم تكيف، ويسكنها المهاجرون من المناطق الريفية والأميون، والمعتلون والعاجزون عن الاندماج في حياة المدينة، وفي ضوء ذلك يوصف سكان هذه المناطق بالهامشيين الحضريين، لأنهم جغرافيا يسكنون أطراف المدينة المحرومة من الخدمات العامة، واقتصاديا واجتماعيا مهمشون من الحياة الحضرية بتفاعلات مختلفة.

أولا : ضبط وتحديد المفاهيم

1. التسميات المحلية للعشوائيات:

لهذه المناطق أسماء مختلفة باختلاف المجتمعات وعلى سبيل المثال لا الحصر يطلق عليها في تركيا Gecekondue وتشير إلى الأماكن التي يسكنها الفقراء عن طريق وضع اليد على أطراف المدن والتي يبنون عليها مساكنهم بين يوم وليلة ، بينما تتخذ اسم Sarifa في بغداد وتشير إلى المناطق التي يسكنها المهاجرون والتي يبنونها بأنفسهم من مواد بسيطة على أراضي ملك للدولة، وتوجد هذه المناطق حول مدينة بغداد وفي داخلها حيث تضم أكثر من 4/1 سكان مدينة بغداد .

أما في دول أمريكا اللاتينية فتعرف باسم Poblacion أو Barrio ومعناها الهامشي وهي المناطق التي يبنوها السكان عن طريق غزوهم للأراضي العامة والتي تقع

على أطراف المدن الكبرى، وتعتبر أخطر مشكلة حضرية تواجهها هذه الدول¹. وفي موريتانيا " مجال الاشتغال " تسمى الكزرة ، وهي اصطلاح محلي ظهر سنة 1989 . 1990 ويطلق على المباني الثابتة التي تشتمل على جدران من الإسمنت أو الطين أو مشابيهما، تشيد عادة في مناطق بعيدة نسبيا عن العمران وفي غفلة من السلطات الرسمية، وتقام على أراضي ملك للدولة، بقصد وضع اليد عليها والحصول على ملكيتها بعد ذلك، وتعتبر السلطات الرسمية مباني الكزرة مباني غير شرعية، وتشكل مع الكبة الأحياء الهامشية²، وتعني الكزرة في اللهجة الحسانية أخذ الشيء " قسرا " فأبدلت السين زاي³.

ويحولنا مصطلح الهامشية إلى مفهوم التهميش الذي وسم عبر تاريخيته بمجموعة من النعوت من قبيل الإمبريالية والبؤس والإلغام، غير أن ترديده من قبل المشتغلين

¹ عدلي السمرى وآخرون ، علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية ، مطبعة العمرانية للاؤفست ، الجيزة ، مصر 2000 ، ص 91

² الأحياء الهامشية : هي الأحياء التي تقام على أراضي لا يملكها صاحب المسكن ، و لا توجد فيها الخدمات والبنى الأساسية ، وتعتبرها السلطات الرسمية أحياء غير شرعية ، وتعرف في بعض الكتابات العربية ب (مدن البؤس ، ومدن الصفيح) كما تعرف في الكتابات الفرنسية (bidonville) وفي الإنجليزية (shanty town) . ولا تحيل الهامشية في هذا العمل إلى الهامشية المكانية بقدر ما تحيل إلى عدم الاندماج في حياة المدينة ، في محيط يشعر ساكنوه بالغبن و بالتهميش في نواحي الحياة المختلفة ، حيث تنتشر البطالة والفقر ويسود التذمر والعصيان .

³ محمد بباه بن محمد ناصر ، من أزمة البادية إلى أزمة التحضر الفوضوي في موريتانيا " نواكشوط نموذجا " أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس أكادال ، 2007 ص 2

في العديد من الحقول المعرفية. ابتداء من علم النفس وعلم الاجتماع والجغرافيا البشرية والعمران والاقتصاد حد من سطحيته. وبالتالي شموليته، ليتخذ داخل كل تخصص مفهوما معينا يرتبط بالمضامين وكذا بالسياقات التي يرد فيها¹.

2. المسميات العلمية للمناطق العشوائية

يستخدم الدارسون مسميات عدة، عند دراستهم لهذه المناطق وأكثر المسميات استخداما هي:

أ . مناطق واضعي اليد ويشير هذا المصطلح إلى المناطق السكانية التي تسكنها فئات اجتماعية معينة عن طريق وضع اليد على أراضي مملوكة للدولة، وعادة تتميز بوقوعها على أطراف المدن في العالم الثالث، والصورة العامة لهذه المناطق أنها متخلفة تتسم بمساكن منخفضة المستوى بالنسبة للمعايير الإسكانية السائدة في المجتمع ، ونقص كبير أو حرمان من المرافق الحضرية والخدمات.

ب . المناطق التلقائية أو الطفلية وهي مناطق تقع على أطراف المدن الكبرى في العالم الثالث، وتتكون هذه المناطق من مساكن متدنية المستوى من حيث الموارد المستعملة في البناء وتتسم هذه المناطق بأنها مناطق متخلفة ومحرومة من الخدمات الحضرية مثل المياه النقية، الكهرباء، الصرف الصحي، أما ساكنو هذه المناطق فلا يتمتعون بأي سند قانوني لملكية أو إيجار هذه المساكن.

ج . المناطق المستقلة: ولقد استخدم هذه المصطلح المهندس المعماري Jonh

¹ عبد الإله بنمليح، تهميش الرقيق في بلاد المغرب والأندلس في العصر الوسيط : الفعل ورد الفعل ، دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ المغرب ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن

امسيك الدار البيضاء ، الطبعة الأولى 2011 ص 97

Tumer لتعريف مناطق سكن واضعي اليد في أمريكا اللاتينية، وقد أشار إلى استخدام مصطلح Squatters الذي يثير كثيرا من عدم الفهم لمتى هذه المناطق، أما مصطلح المناطق المستقلة فهو أكثر المصطلحات وضوحا وذلك لأن هذه المناطق نشأت مستقلة عن السلطات الخاصة بالتشييد والبناء، بل في أكثر الأحيان يوجد صراع بين هذه المناطق وبين السلطات الحكومية.

3. سكان العشوائيات

اختلفت الدراسات في تحديدها للسمات الاقتصادية والاجتماعية لسكان المناطق العشوائية، ولقد ارتبط الاختلاف بالمداخل النظرية التي تبنتها هذه الدراسات ومن الممكن تصنيف هذه المداخل إلى ثلاث مداخل أساسية:

المدخل الأول: أن هذه المناطق ما هي إلا مناطق متخلفة، وتسمى بحزمة البؤس حيث يسود عدم التنظيم الاجتماعي، بل هي حضانات لجميع أنواع الأمراض الاجتماعية، كالفقر والجرائم وعدم التكيف، ويسكنها المهاجرون حديثا من المناطق الريفية، وتسود بها الأمية والبطالة، كما تتسم هذه المناطق بعدم وجود التماسك الاجتماعي أو التعاون بين الأفراد¹.

المدخل الثاني: أن المناطق العشوائية مناطق تتسم بقدر كبير من التنظيم الاجتماعي الداخلي وأن سكانها لديهم القدرات العامة على التكيف لمتطلبات وعواقب ومصاحبات الفقر الحضري، وتندرج تحت هذه الإطار دراسات John Turaer في مناطق واضعي اليد في أمريكا اللاتينية فقد أشار إلى أن نمو هذه المناطق نتاج لعملية النمو الحضري السريع، وأن هذه المناطق تلعب دورا إيجابيا

¹ عدلي السمرى وآخرون ، علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية ، مرجع سبق ذكره ، ص 92

في هذه العملية، إذ تساهم في حل مشاكل ذوي الدخل المنخفض والفقراء وسد حاجاتهم الأساسية وأهمها الحاجة إلى المأوى، كما أن لهذه المناطق دوراً أساسياً في عملية التكيف الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين كما تؤكد ذلك دراسات William Mangin. فقد أشار في دراسته لمناطق واضعي اليد في بيرو إلى أن هذه المناطق تتميز بدرجة كبيرة من التنظيم الاجتماعي ولا تتسم بمعدلات غالبية من الجريمة والتفكك الاجتماعي.

المدخل الثالث: دراسات تؤكد الاختلافات بين هذه المناطق مع بعضها البعض، وأن الخطأ الذي يقع فيه الباحثون هو النظر إلى المناطق العشوائية على أنها جميعها تحمل سمات واحدة، وأن سكانها يشكلون فئة واحدة من الفقراء أو المهاجرين الريفيين، ويندرج تحت هذا المدخل دراسات D.J. Dayer والذي اختبر عدد كبير من الدراسات عن المناطق العشوائية في دول العالم الثالث منذ الستينات إلى منتصف السبعينات وأكد على خطأ التعميمات في السمات الاقتصادية والاجتماعية لسكان هذه المناطق داخل إقليم معين، بل داخل المدينة الواحدة.

4. الفقر الحضري: المعنى والمؤشرات

أدت الاهتمامات بتحديد الناس المتأثرين بالفقر والرغبة في قياسه في بعض الأحيان إلى حجب حقيقة أن الفقر هو أكثر تعقيداً من أن يمكن تقليصه في بعد واحد من أبعاد الحياة البشرية¹، ولعل هذا ما أضفى على مفهوم الفقر الكثير من

¹ عبد الله عطوي، السكان والتنمية البشرية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى 2004،

بيروت. لبنان. ص 145

التعقيد والغموض ، خاصة في المجتمعات النامية¹ مثلما ما هو الشأن في موريتانيا، فمفهوم الفقر غير محدد بشكل صارم وحاسم، بل نجد أنفسنا أمام عدد كبير من التعاريف والتفسيرات التي تجعل حسن التعامل مع هذا المفهوم شائكا ومعقدا، إذ أنه يعتمد على الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمرحلة التاريخية وجملة واسعة من الظروف والأوضاع المختلفة من مكان لآخر، ومن وقت لآخر، مما يجعله بالضرورة مفهوما نسبيا سواء تعلق الأمر بتحديد ماهيته أو طريقة قياسه أو التبعيات الأخلاقية والسياسية المترتبة عليه². فلو تبينا مفهوم "الفقر النسبي" لقلنا إنه يرتبط أساسا بفكرة كفاف العيش، أي الشروط الأساسية التي ينبغي توفرها ليظل المرء على قيد الحياة في وضع صحي معقول ، وتتضمن هذه الشروط الغذاء الكافي. المأوى والكساء، فإذا توفرت هذه العناصر فحسب يوصف المرء بأنه في حالة من الفقر³. ويوزع الفقر عادة إلى مستويين هما الفقر المدقع والفقر المطلق، ويحدد كل من المستويين بمؤشرات معينة. وقد اتفق على أن للفقر المدقع مؤشرات أهمها احتياجات الفرد والأسرة من العناصر الغذائية بما في ذلك البروتين والفيتامينات بأنواعها والحديد، ثم تحديد سلات غذائية مختلفة وفقا للعمر والجنس، وترجمة محتوياتها إلى قيمة نقدية، وأخيرا تحديد القيمة النقدية

¹ حافظ المداني ، الاقتصاد اللاشكلي في تونس بين معالجة الفقر ودفع الحراك الاجتماعي ،

الحياة الثقافية ، العدد 227 ، يناير 2012 ، تونس، ص 111

² باقادر، أبو بكر أحمد ، الفقر وآثاره الاجتماعية وبرامج وآليات مكافحته في دول مجلس التعاون ، سلسلة الدراسات الاجتماعية والعمالية ، العدد 47 ، الطبعة الأولى 2008 ، المنامة . البحرين ، ص 25

³ حافظ المداني ، الاقتصاد اللاشكلي في تونس بين معالجة الفقر ودفع الحراك الاجتماعي ، مرجع سبق ذكره ، ص 111

اللازمة لتغطية احتياجات الأسرة شهريا. أما تحديد خط الفقر المطلق فيقوم على مؤشرات أهمها، تحديد الحاجيات الأساسية غير الغذائية التي تتفق مع نمط المعيشة السائد، وبيان متوسط الإنفاق الشهري والسنوي للفرد والأسرة؛ نقداً، وحساب الدخل الكافي لتغطية هذه الحاجيات.¹ وعموما يعرف "شحانة صيام" الفقر الحضري : بأنه ظاهرة تتشكل وفق ظروف خاصة بكل مجتمع، إذ تلعب فيها الأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية دورا واضحا في تحديدها، كما أن الفقر يكون أكثر بروزا في المدينة، بسبب تطور الأساليب الحضرية وزيادة اللاتجانس والفردية.²

التعريف الاجرائي: يتضمن المظهر البيئي للحي والوضع الاقتصادي والاجتماعي المنخفض للسكان في الأحياء الشعبية الداخلية لمدينة نواكشوط ، ومن مؤشرات المادية ما يلي :

أ . الانعزال البيئي والاجتماعي، ويقاس من خلال حدود الحي وعلاقة الحي وسكانه بباقي أحياء المدينة وسكانها.

ب . الفقر البيئي للحي، ويقاس من خلال سوء حالة المباني وقدمها، وتدني الخدمات العامة، كالخدمات البلدية، والخدمات الصحية، والخدمات التعليمية.

¹ ابراهيم عثمان ، مقدمة في علم الاجتماع ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 2007 ، عمان ، الأردن ، ص 314

² صليحة مقاوسي، الفقر الحضري : أسبابه وأنماطه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع و الديمغرافيا، الجزائر، 2007. 2008، ص 34

ج . الكثافة السكانية، وتقاس من خلال معرفة حجم سكان الحي، ومعرفة أفراد كل مسكن.

د . انتشار الأمية: ويقصد بها الأمية بأنواعها: الأمية الأبجدية (المستوى التعليمي لجميع أفراد الأسرة)، والأمية الثقافية (الجهل بالأفكار والمعارف المفيدة للأسرة ، كـ مجال الصحة وتنظيم النسل)، والأمية الممارسة (عدم اكتساب أي مهارات تدريبية) .

هـ . الوضع الاقتصادي للأسرة ، ويقاس من خلال نوع المهنة والدخل ، وعدد سنوات البطالة ، وملكية المسكن ومعدل الانفاق ، والاعتماد على خدمات الضمان الاجتماعي والجمعيات الخيرية وهبات الأهالي والتسول¹

لقد دفع غياب عمل تحليلي ذي نوعية يمكن من رسم عتبة للفقر خاصة بالسياق الموريتاني إلى استخدام العتبة التي تستخدم كثيرا من قبل البنك الدولي للبلدان الفقيرة ذات الدخل المنخفض، حيث يفضل استخدام حدي الفقر المعتمد من طرف البنك الدولي وهما 370 دولار و 275 دولار بأسعار 1985 الثابتة للتشخيص لكل سنة، ويظهر مسار تطور قيمة عتبات الفقر المعتمدة في موريتانيا بالعملة المحلية (الأوقية) تراجعاً في قيمة هذه الأخيرة، كما يظهر الجدول التالي² :

¹ عزيزة عبد الله النعيم، الفقر الحضري وارتباطه بالهجرة الداخلية " دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية في مدينة الرياض، مركز دراسات الوحدة العربية 2009، ص 60

² Ministère des affaires économiques et du développement, Cadre stratégique de lutte contre la pauvreté 2011-2015, Volume 1(Bilan de mise en œuvre CSLP 2006-2010) page 10

الجدول رقم (1) مراحل تطور عتبات الفقر في موريتانيا (المبلغ بالأوقية)

السنة	العتبة الأعلى	العتبة الأدنى
1990	32800	24400
1998	58400	43450
2000	72600	54000
2004	94650	70400
2008	129000	96000

Source : Cadre stratégique de pauvreté 2011-2015, page 1 lutte contre la

ثانيا: العشوائيات في نواكشوط أسباب الانتشار ومراحل التوسع

1. الأحياء العشوائية: النشأة والتكوين

تعود نشأة الأحياء العشوائية في مدينة نواكشوط إلى الظروف الطبيعية القاسية التي عرفت بها البلاد في أواخر الستينات (1968 - 1969) وبداية السبعينات وأواسط الثمانينات من جفاف وتصحر وحالة اقتصادية واجتماعية جد صعبة، اضطرت السكان الذين عانوا منها إلى ترك مناطقهم الأصلية التي لم تعد توفر لهم العيش الكريم ، بعد هلاك حيواناتهم وتراجع مزارعهم فهجروا هذه المناطق إلى مناطق جديدة للتحسين من وضعهم المعيشية فكانت نواكشوط المستقطب الأول لهؤلاء الضحايا ، حيث وصل عدد الذين نزحوا إلى المدينة سنة 1977 (87747) نسمة أي أكثر من 2/1 من المهاجرين الداخليين آنذاك ، وقد وجد هؤلاء أنفسهم يعانون مشاكل جديدة كان على رأسها مشكلة السكن الذي يعتبر من أول المشاكل التي تطرح على المهاجر.

ونظرا لغياب سياسة وطنية للإسكان والتخطيط الحضري فقد لجأ هؤلاء إلى تشكيل سلسلة من الخيام والأكواخ عرفت محليا "بجلة اشرويطة " تطوق أحياء المدينة

معبرة عن حدة أزمة السكن ، فكانت النواة الأولى لما عرف لاحقا بظاهرة الكثرة فبدؤوا ينتشرون في أراضي شبه خالية تشكل ضواحي للمدينة ، وقد استطاعوا الانتشار في الاتجاه الجنوبي والشرقي للعاصمة إذ انتشرت بسرعة فائقة مساكن متحركة وصلبة أحيانا. وقد ساعد على ذلك سهولة البناء وضعف قيمة مواده التي يغلب عليها الخشب والزنك والقماش ، كما استخدم الاسمنت في تشكيل بيوت رديئة، وقد لعب السلوك الاجتماعي والتعود على السكن في الخيام "الطبيعة البدوية" دورا كبيرا في تكيف هؤلاء السكان مع هذه المساكن غير اللائقة والتي أصبحت ظاهرة عادية لمدينة ظل توسعها الحضري منذ إنشائها خارجا عن كل التوقعات¹

وترافق مع التوسع العمراني أيضا، التحام بعض القرى بالمدينة، بسبب موقعها القريب من المدينة التي تتمدد هي الأخرى بدورها، وبمرور الوقت تحولت المناطق العشوائية إلى مراكز جذب سكاني للنازحين من خارج نواكشوط بحثا عن فرص عمل أو مواصلة للدراسة، حيث أنه في تلك الفترة تتركز المؤسسات التعليمية خاصة العليا منها في مدينة نواكشوط، ونتيجة لازمة الإسكان الطاحنة وارتفاع أسعار المساكن داخل المدن، والتعدي على أراضي الدولة تم بناء مساكن صغيرة المساحة تسكنها أعداد كبيرة، فنشأت مناطق عشوائية أهم خصائصها العمرانية أنها غير مخططة، شوارعها ضيقة، مزدحمة السكان، منعقدة أو قليلة المرافق تقتصر إلى الخدمات.

ويعتد الدافع الرئيسي والسبب الأول في الاستيطان في المناطق العشوائية، هو عدم

¹ لالة بنت سيدي الأمين، الهجرة الداخلية لمدينة نواكشوط " دراسة حي عرفات " بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب 2000، ص 12

توفر المسكن بسعر مناسب. في المناطق غير العشوائية، وبمجرد نشوء منطقة عشوائية فإنها سرعان ما تتكامل تحقيقا لاحتياجات الساكنين، ومعنى ذلك أن التنمية تتم ذاتيا بدء بالإسكان، ثم الخدمات، ثم ظهور فرص العمل وانتشار الأسواق، وتدبير الطرق وأساليب المواصلات التي تتبع الدولة بالضرورة أي أن المنطقة تقوم بتحقيق وتوفير احتياجاتها ذاتيا وهو ما يعد امتدادا للرغبة في تحقيق الاحتياجات الأساسية للمأوى ذاتيا.

ومن هنا يمكننا القول إن مسؤولية تكون المناطق العشوائية تقع على أجهزة الدولة نتيجة لتقصيرها، ففي الماضي لم تتفطن الدولة إلى عملية مواجهة أزمة الهجرة الداخلية، ولم تتخذ إجراءات لتدبير المساكن اللازمة للوافدين إلى المدينة، ومناطق الجذب السكاني بحيث يكون هناك تناسب بين معدلات فرص العمل المتاحة في المدن، وبين عدد المساكن اللازمة لتوطين العاملين بها، وبأسعار تتناسب مع مستويات دخولهم¹، فهكذا انتشرت الأحياء العشوائية وتمددت متمثلة في ما اصطلح عليها محليا بالكرزة، وقبل الحديث عن المسار التاريخي لتطور الأحياء العشوائية، أرى أنه من الضروري تحديد مصطلح الكرزة

2. الكبة: هي مصطلح محلي باللهجة الحسانية وأصله كبّ: أي رمى، مما يعني أن هذا السكن المعبر عنه بهذه المصطلح هو في الأساس هامشي ومرمي خارج المدينة. والكبة هي أول نمط من السكن العشوائي عرفته مدينة نواكشوط، حيث ظهرت بواده مع نهايات الستينات وبدرجة أكثر وضوحا في السبعينات وبداية الثمانينات، وهي حي سكني عشوائي يتكون أساسا من الأكواخ والخيام مقام على

¹ محمد الجوهري و آخرون ، دراسات اجتماعية معاصرة ، مرجع سبق ذكره ، ص 156

أرض ملك للدولة، يحظر على من يحتلها البناء فيها، تغيب فيها البنى والخدمات الأساسية، وتعتبرها السلطات الرسمية حيا غير شرعي وتشكل مع الكزرة الأحياء العشوائية.

3 . الكزرة: تحديد للمصطلح وسياق التطور

الكزرة هي الأخرى اسم محلي يدل باللهجة الحسانية على شيء تم أخذه بعدم رغبة من المأخوذ منه، وقد أطلق سكان نواكشوط كلمة "كزرة" على الحملة التي قاموا بها في أواخر الثمانينات، حين استولوا على مناطق واسعة من الأراضي التي تملكها الدولة وأقاموا بها مساكن متحركة وصلبة متحدين بذلك الرفض الذي أعلنته الدولة عن مثل هذه الأعمال وترجمت ذلك بأن خصصت فرقا من الشرطة والحرس الوطنيين تعمل على هدم كل ما تم بناؤه . لكنها وجدت نفسها عاجزة عن السيطرة على إرادة المواطنين الذين تمادوا في إعادة بناء ما تم هدمه ولو تكرّر الأمر عشرات المرات، ويطلق على ساكن الكزرة "كازر" وهي عبارة أصبحت شائعة في نواكشوط، فعندما تسأل أحد يقطن في مناطق "الكزرة" عن سكنه يقول لك وبراحة بال أنا "كازر". ومن طرائف الكزرة أنك لا تأمن على أرضك ولا بيتك في حالة غيابك، فقد قيل أن أحدهم أقام بيتا وفتح له بابا على المساحة التي استولي عليها وحدد حدوده وسافر ليوم أو اثنين ولم يكن أحد في بيته، وعندما عاد وجد بيته قد سد بالاسمنت وفتح له باب بالجهة المعاكسة، وعلى أرض جارته التي قامت بذلك واستطاعت أن تستولي بهذه الطريقة على بيته، وهذا ما يدل على أن الكزرة هي الاستيلاء على الأشياء بطرق غير شرعية ولا قانونية، والكزرة تختلف في معناها عن الكبة في الحسانية التي تعني "رمي الأشياء الغير صالحة للاستعمال" وهي تحمل معنى قدحيا، كما أنها تعني في مضمونها الاستسلام للأمر الواقع في

انتظار حل تتقدم به الدولة لحل مشكلة السكن وتختلف من حيث نوع البناء عن "الكرزة" ففي الأخيرة توجد مباني صلبة وأمل امتلاك الأرض التي أقيمت عليها هذه المباني ، أما في الأولى فإن المباني متحركة وأمل امتلاك الأرض المقام عليها ضئيل أو منعدم¹.

4 . مراحل توسع العشوائيات بمدينة نواكشوط

لقد خضعت مدينة نواكشوط عبر توسعها الحضري لمجموعة من العوامل تحكمت في هذا التوسع، وجعلت المدينة تعرف نموا عشوائيا تميزت كل من مراحلها بنمط خاص. وإذا ما استثنينا مرحلة إنشاء المدينة الذي واكب استقلال الدولة في: 1960/11/28 والتي حينها لم تكن منطقة نواكشوط تعرف أي نوع من أنواع التمدن مما يؤكد مقولة أنها العاصمة التي أنشئت من عدم²

إن التضخم الحضري لمدينة نواكشوط لا يرجع فقط إلى معدلات الزيادة الطبيعية للسكان وإنما أيضا وفي الأساس يرجع إلى موجات الهجرة التي شهدتها المدينة (نواكشوط) بشكل مكثف خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي. حيث اندفعت موجات بشرية من البدو وكذا من المناطق الحضرية المتخلفة ومناطق الدفع وبشكل مستمر إلى نواكشوط بسبب موجات الجفاف التي قضت على الغطاء النباتي وعلى ما يزيد على (75%) من ثروتهم الحيوانية، هذا بالإضافة إلى البطالة والجوع والأمية المتفشية وانعدام الخدمات بصفة عامة، الأمر الذي يكشف غياب

¹ لالة بنت سيدي الأمين ، الهجرة الداخلية لمدينة نواكشوط ، مرجع سبق ذكره ص 20

² لالة بنت سيدي الأمين، الهجرة ودورها في التوسع الحضري لمدينة نواكشوط ، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث ، جامعة نواكشوط ، العدد التاسع ، 2011

خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المتكاملة على مستوى البلد، وعدم تحقيق توازن بين مناطق الدفع في الأقاليم الريفية والمراكز الحضرية .
لقد كان للنمو السريع غير المتوقع للسكان الناتج عن الهجرات الشديدة نتائج على النمو المجالي للمدينة ونمط هيكلتها وتنظيمها وتسييرها ، حيث انتقل تعداد سكان هذه المدينة من 5008 نسمة سنة 1962 إلى 393325 نسمة 1988 ثم إلى 611388 سنة 2000 وحسب الإسقاطات الديمغرافية فإن ساكني هذه المدينة وصل إلى مليون 1000000 نسمة سنة 2010، وقد أحدثت هذه الوتيرة المتزايدة للسكان اختلالات اجتماعية عميقة على مستوى نواكشوط جعلت من الصعوبة بمكان السيطرة على نموها العمراني والتحكم في تسييرها¹.

لقد استمر التدفق السكاني على العاصمة بدرجة تفوق ما هو متاح من مباني ومنشآت سكنية وخدمات اجتماعية، فاكثرت نواكشوط بالسكان وتأزمت مشكلة الإسكان، فأصبحت المدينة تنمو تلقائيا وبشكل عشوائي كلما زاد عدد السكان، وانتشرت ظاهرة المناطق الفقيرة التي يعيش أصحابها في مساكن سيئة وريئة للغاية تتمثل في (بيوت الخيام) و(مدن الصفيح) و(الأكواخ) التي تتخلل العاصمة وتحيط بها من كل جانب مكونة بذلك حزاما من الفقر المدقع، كما تقطن هذه الأحياء الفقيرة أعداد غفيرة من السكان المعوزين والعاطلين عن العمل أو ممن يؤدون أعمالا بأجور زهيدة لا تسد حاجياتهم الضرورية. ومن الملاحظ أن ساكني نواكشوط وخاصة (المهاجرين) منهم يتكدسون في الأحياء ذات الأوضاع

¹ ج . إ . م ، مجموعة نواكشوط الحضرية ، أطلس نواكشوط " البنية التحتية والخدمات الحضرية ، تنسيق عبد اللطيف ولد محمد عبد الرحمن وآخرين سحب : فاستي . ديماس ، سين . تيتيان ، فرنسا ، فبراير 2011 ص 14

الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، ثم في مداخل وأطراف المدينة وفي الأماكن التي تتمتع إلى حد ما بتجانس قيمي وعرقي ونسبة عالية من الإنجاب بمعنى أنهم يسكنون أماكن تشبه موطنهم الأصلي (الريف البادية) ثم إن هؤلاء يسكنون في الغالب في أجزاء المدينة الأقرب إلى مواطنهم الأصلية وكمثال على ذلك نجد أن مهاجري منطقة "آدرار" و"إنشيري" و"داخت أنواذيبو" يتجمعون في مقاطعة "لكصر" ومقاطعة "تيارت"، أما النازحون من إقليم اترارزه وحوض النهر والمقاطعات الشرقية فإنهم يتواجدون في الأحياء الجنوبية والجنوبية الشرقية من العاصمة مثل مقاطعة "السبخة" ومقاطعة "الميناء" ومقاطعة عرفات ومقاطعة "توجنين"¹

إن للهجرة التي عرفتها البلاد آثار بالغة، سواء على مستوى مناطق الاستقبال أو الإرسال، فالضغط المستمر على السكن ومختلف خدمات الصحة والتعليم والنقل وغيرها جعل مدينة نواكشوط مثلاً تعيش ضائقات متلاحقة بسبب الوافدين إليها الذين لم تهيأ تلك المراكز لاستيعابهم نتيجة غياب مخططات عمرانية². ذلك أن هذه المدينة ظلت تتميز بصافي هجرة موجب على المستوى الوطني أي أن عدد المهاجرين منها أقل من عدد المهاجرين إليها، وقد تميزت الهجرة من كل ولايات الوطن قبل جفاف السبعينات بفرديتها وذكوريتها غير أن هذه الوضعية تغيرت مع مطلع السبعينات وبداية الثمانينات لتتخذ الهجرة منحى آخر حيث ستصبح ذات

¹ محمد الأمين ولد محمد عبدالله، البنية السكانية في مدينة نواكشوط ودعائمتها ومشكلاتها، بحث دبلوم دراسات عليا في علم الاجتماع، معهد البحوث والدراسات، جامعة الدول العربية، القاهرة، مصر، 1989 ص 95

² ولد المحبوبي سيدي عبد الله، الهجرة الداخلية والتنمية في موريتانيا "الثنائي الحرج" صندوق الأمم المتحدة للسكان بموريتانيا، بالتعاون مع جامعة نواكشوط، 1997، ص 60

طابع عائلي بسبب نروح عدد مهم من الأسر إلى نواكشوط بحثا عن المساعدات الغذائية¹

5. أبعاد وتجليات توسع الكزرة

لقد بدأت أنوية لظهور أحياء جديدة على جنبات الطرق الرئيسية المنطلقة نحو المناطق الداخلية، طريق الأمل المتجهة نحو المناطق الشرقية وطريق روصو المتجهة نحو ولاية اترارزه، وطريق اكجوجت المتجهة نحو الجهات الشمالية، وقد جلبت هذه الطرق خاصة طريق الأمل وروصو أعداد هامة من سكان نواكشوط الذين انتشروا على جنبات هذه الطرق وأقاموا مساكن صلبة ومتحركة، غرضها الأساسي ملكية الأراضي وهي ظاهرة حديثة تميزت بها مرحلة الثمانينات وكانت منطقة توجنين هي منطلقها.

لقد اتسعت الرقعة المجالية لمدينة نواكشوط بإعلان مقاطعة توجنين حيث صدر المرسوم رقم: 80/199 بتاريخ: 1980/8/1 القاضي بزيادة مساحة نواكشوط من 536 كلم² وقد كانت هذه الضاحية تابعة إداريا لإقليم اترارزه وهي الضاحية الأولى للعاصمة وكانت في البداية محطة الاستراحة لأسر ميسورة الحال، إلا أن عدد سكانها قد تضاعف عدة مرات بسبب وجود طريق معبد سهل من المواصلات مع العاصمة إضافة إلى توفرها على المياه التي استفاد منها السكان بطرق شبه مجانية وغالبا ما تكون غير مرخصة من قبل شركة الماء والكهرباء وتتمر عبر المقاطعة أنابيب نقل المياه العاصمة الصادرة من منطقة إديني التي تزود نواكشوط

¹ الشيخ سعد بوه بن محمد الحسن ، التحولات المجالية والاقتصادية بولاية أترارزه ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس أكاد ، المغرب ، 2000 ص 168

حينها بمياه الشرب من بحيرة اترارزه كما أن لتدني أسعار الأرض دور كبير في تشجيع السكان على الاستقرار بها، وساهمت تجربتها في تشجيع السكان سواء أكانوا وافدين جدد أم قدامى إلى تشكيل أحياء جديدة تقوم بربط توجنين بأحياء العاصمة الأخرى فظهرت كزرة كل من تنسويلم وبوحديده، كارفور، عرفات، وحملت بعض هذه الأحياء أسماء تعبيراً عن تحدي الدولة مثل حي "كج الحاكم" وتعني هذه الكلمة الحسانية معنى يوازي باللغة العربية "رغم أنف الحاكم" وهذا الحي محاذي لمباني مكاتب المقاطعة وقامت الدولة بمقاومة بنائه عن طريق هدمه ، إلا أن تكرار بنائه أدى إلى جعله أمراً واقعاً يصعب تجاهله، وقد ظلت هذه الأحياء المكزورة تابعة لمقاطعة توجنين التي وصل عدد سكانها سنة 1988 إلى 74150 نسمة¹ بينما وصل في 2008 إلى 85060. ومن الجدير بالذكر أنها الكثافة السكانية هي الأكثر ارتفاعاً (241 إلى 300 نسمة/هـك) وتوجد بها أحياء تنسويلم وبوحديده². وهكذا ظلت أحياء الكزرة تنمو وتنتشر على كافة أطراف هذه المدينة، إلى أن تم تشريع بعض أراضيها لسكانه وما زال بعضها ينتظر التشريع كما تم ترحيل أجزاء من الكبات إليها، ففي الرياض تم ترحيل كبات كل من المقاطعة الخامسة والسادسة ولكصر وتيارت، وخصصت لهم الجهة الجنوبية منها والي دار النعيم "امزيلة" تم ترحيل بعض من كبات لكصر وتيارت كما لم تخلوا هذه المقاطعات من بعض السكان الذين لم يشاركوا في الكزرة، وكذلك ليسوا من سكان الكبات المرحلة ، حيث يقوم الحكام بتوزيع هذه الأراضي على من يشاءون من

¹ لالة بنت سيدي الأمين ، الهجرة الداخلية لمدينة نواكشوط ، مرجع سبق ذكره ص21

² ج . إ . م ، مجموعة نواكشوط الحضرية ، أطلس نواكشوط " البنية التحتية والخدمات

الحضرية ، مرجع سبق ذكره ص 43

السكان وقد أصبحت مدينة نواكشوط بعد إعلان هذه المقاطعات (دار النعيم، الرياض، عرفات) تسع مقاطعات متفاوتة من حيث عدد السكان.

وعموما أعود فأقول إن المناطق العشوائية (الكرزة، الكبة) هي تلك التجمعات السكانية التي نشأت في غياب التخطيط العام وخروجاً على القانون وأحياناً بالتعدي على أملاك الدولة (وفق المرسوم، القانون) وداخل هذه التجمعات ينشأ القطاع غير الرسمي بكل جوانبه في غياب كلي أو جزئي عن رقابة أجهزة الدولة، وتصبح هذه التجمعات مجتمعات صغيرة لها نسق مختلف عن باقي المجتمع فيما يطلق عليه هرناندو سوتف "نظام المعايير المجاوزة للقانون" وفي داخل هذه المناطق ينمو وينتشر القطاع غير الرسمي والذي يمكننا تعريفه بأنه مجموعة نشاطات تشكيلية اجتماعية، اقتصادية، تهدف إلى تلبية حاجات هذه التشكيلية أو الأفراد فيها، وتنجز نشاطاتها من خلال منشآت تعمل على تخفيف تكلفة ومدخلات النشاط والتحرر من القيود الرسمية. والإسكان غير الرسمي (الكرزة، الكبة) هو الوجه الآخر لعدم توافر فرص إسكان بأسعار تتناسب مع معدلات دخل سكان هذه المناطق العشوائية، كما يتصف بل ويوصف بأنه نمط من الإسكان الذي ينمو وينتشر في غيبة القوانين، وتتم فيه عمليات البناء بأسلوب الجهود الذاتية أو بواسطة وسطاء على أراضي غير قانونية أو بدون استخراج ترخيص بناء، أو غير مسجلة عقارياً، بما ذلك الأحياء المتدهورة عمرانياً أو غير المخصصة للسكن، وتكون غير مطابقة لأسس واشتراطات البناء والتنفيذ وقواعد الصحة العامة.

جدول رقم (2) توزيع سكان العشوائيات في نواكشوط حسب المقاطعات 2000

المقاطعة	تقدير أعداد سكان العشوائيات	النسبة (%)
توجنين	21700	39%
الميناء	66500	70%
دار النعيم	7700	13%
عرفات	47250	46%
Source : Bakkari, enquête sur la zone périurbaine de Nouakchott ¹ ,		

لقد ساعد على انتشار السكن الهش (الأحياء العشوائية) في نواكشوط، غياب الرقابة العمرانية وعدم احترام القواعد القائمة ونقص البنى التحتية وارتفاع أسعار القطع الأرضية المستصلحة ونقص عمليات السكن الاجتماعي، والتجدد الحضري وتتجلى هشاشة من خلال ارتفاع نسبة الأسر التي تقيم داخل الخيام أو الإخصاص أو أكواخ الصفيح على مستوى البلد جملة سنة 1990 (45%) وفي نواكشوط خاصة إلا أن أنماط السكن تشهد تحسنا طفيفا يرتبط بتحسين ظروف المعيشة. بيد أن المناطق العشوائية المتمثلة أساسا في السكن الهش (كالخيام، الإخصاص، أكواخ الصفيح) ظل يحتل موقعا مهما، إذ مثل مثلا سنة 2002 ما نسبته 33% من السكن على المستوى الوطني، بينما تمثل المنازل الأسمنتية نسبة قريبة من ذلك جدا (29%) مقابل الثلث الباقي للدور الطينية والحجرية.

وفي الوسط الحضري، تجدر الإشارة إلى توسع السكن الهش سنة 1996 في

¹ Mr Bakkari, une enquête sur la zone périurbaine de Nouakchott a été réalisée au moyen de la méthodologie HEA (Household Economy Approach) au profit de GRET. Année de référence : Avril 2009 – Mars 2010 p 7

نواكشوط، وفي باقي المدن الأخرى على التوالي بنسبة 16.8% و 10% من إجمالي عدد الأسر مقابل 24.3% سنة (2000)¹، بينما وصلت في 2008 نسبة السكن الهش (الخيام، الأكواخ، الأخصاص) 32.5% فيما مثلت المساكن الأخرى ما نسبته (67.5%)²

جدول رقم (3): الحجم الديمغرافي والمجالي للأحياء العشوائية بنواكشوط 2008

المعطيات	عرفات أ	عرفات ب	توجنين الشرقية	توجنين الغربية	تتسويلم	الحي الساكن	المجموع
المساحة بالهكتار	310	138	253	222	74	98	1095
تقديرات عدد السكان	61950	21600	47920	19190	18330	23200	192190
السكان اللازم ترحيلهم	4370	4890	6560	3370	3980	8140	31310

Source : (ADU) Etude pour la restructuration des quartiers précaires de Nouakchott, 17 Avril 2008

¹ ج . إ . م . وزارة الشؤون الاقتصادية وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية ، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة 2002 ، ص 37

² Office National de la Statistique ، Profil de la pauvreté en Mauritanie - 2008 ، Septembre 2009 ، page 8

6 . أنواع المساكن في نواكشوط

لقد تم اعتماد معايير محددة لتصنيف النسيج الحضري كنوع السكن باعتباره ذو صلة وثيقة بدخل الأسرة ومستوى التجهيزات والولوج إلى الخدمات الأساسية، والموقع الجغرافي وجاذبيته، والوضعية العقارية، والكثافة السكانية للأحياء. وعلى أساس هذه المعايير تم تحديد خمسة أنواع سكنية:

أ . مستوى سكني راق ويشمل الفيلات والمنازل المبنية بالاسمنت المسلح والمجهزة وذات الكثافة الضعيفة. وتوجد هذه الفئة بأحياء لكصر وتفرغ زينة وفي وسط حي المدينة وبالصاحية الشمالية الشرقية ، حيث يعتبر " حي لاس بلماس " شاهداً على رفاهية عيش هذه الفئة السكانية ، التي تملك الوسائل للإقامة بانتظام في جزر الكناريا .

ب . مستوى سكني متوسط ويشمل السكن المجهز، إلا أنه في نفس الوقت أكثر تواضعاً من الطراز الراقى، وتبلغ مساحة القطعة الأرضية 120م² وتوجد هذه المساكن أساساً شمال حي لكصر وفي الجنوب الغربي لتيارت وشرق حي السبخة والشمال الغربي للميناء وعدة مناطق بحي عرفات وتوجنين

ج . مسكن مختلط حيث يضم إلى جانب مباني الاسمنت المسلح ذات طابق أو طابقين مباني متواضعة، من طبقة أرضية مسقفة بالزنك ويتواجد هذا النمط بصورة خاصة في أحياء تيارت ودار النعيم وتوجنين وعرفات والرياض .

د . مستوى سكني متواضع ويطلق على أحياء معزولة في العادة وبعيدة عن الطرق المعبدة ، حيث يكون حجم المباني صغير والمواد المستعملة في بنائها رخيصة، ويقع في محيط المدينة، وفي شمال تيارت والشمال الشرقي لدار النعيم وجنوب

عرفات وشرق الرياض وفي أطراف السبخة والميناء

هـ . المساكن غير الثابتة وهي توجد على شريط يمتد من الغرب إلى الشرق من الميناء إلى توجنين مروراً بعرفات كما توجد أيضاً جيوب منها بدار النعيم وينبغي التمييز بين السكن المؤقت والكزرات فالأول يتكون من مساكن بسيطة (أكواخ أعرشة خيام) مسكونة بطريقة شرعية كما هو الحال في أحياء الصفيح القديمة بالميناء (الكبات) التي تم تنظيمها ما بين 2003 و 2010 وكذلك منطقة الحي الساكن ، شمال دار النعيم التي تمت إعادة تأهيلها 2010، أما مصطلح الكزرة فيعني القطع الأرضية المحتلة من طرف الفقراء وكذا المناطق الطرفية المحتلة من طرف ميسوري الحال حيث تتخذ مكاناً للراحة خلال العطل الأسبوعية¹.

ثالثاً: الاستراتيجيات و المقاربات

1 - حول دور الدولة

كثيراً ما يساء فهم التزامات الدولة إزاء الحق في السكن الملائم، فليس المقصود بهذه الالتزامات ضرورة قيام الدولة ببناء المساكن لجميع المواطنين أو توفير المساكن مجاناً للأفراد، أو حتى تلبية هذا الحق بنفس الأسلوب في كل مكان وفي جميع الأوقات ولكن التزامات الدولة بمقتضى الحق في السكن تتمثل في: العمل بجميع الوسائل المناسبة على ضمان إتاحة المسكن المقبول وبثمن معقول لكل فرد واتخاذ سلسلة من التدابير بحيث تعكس سياساتها وتشريعاتها كافة عناصر الحق

¹ ج . إ . م ، مجموعة نواكشوط الحضرية ، أطلس نواكشوط " البنية التحتية والخدمات الحضرية ، مرجع سبق ذكره ص 21

في السكن. وكذا حماية المنازل والأحياء السكنية ورفع مستواها لا القيام بتدميرها أو إحداث الضرر بها.

وعموماً شكلت إعادة تأهيل الأحياء العشوائية في مدينة نواكشوط وتخطيطها¹ أولوية من أولويات استراتيجيات محاربة الفقر التي تبنتها الدولة حتى الآن، ذلك أن هشاشة استقرار الفقراء في أطراف وهوامش المدينة يشكل عقبة كبرى أمام تحسين السكن وتثبيت السكان على نحو أفضل كما أنه يقف عائقاً أمام نفاذهم إلى الخدمات الاجتماعية، الأساسية وإيجاد أنشطة دائمة لصالحهم. ناهيك عن أن الحاجة للسكن لا تقل أهمية عن الحاجة للمأكل والمشرب والملبس، بل إن استقرار الإنسان لا يتم إلا بتوافر سكن ملائم. ومعلوم أنه وبعد أن انغمس الإنسان في التمدن بل وأصبح انغماسه غاية، أي غايته الاستزادة من فنون اللبس والسكن لم تعد الحاجة السكنية مقتصرة على (الضروريات) بل تعدته إلى الانغماس في الكماليات السكنية حسب متطلبات الحياة، و فوق هذا وذاك لقد انتقل الإنسان إلى مرحلة ما بعد الكماليات، وهي مرحلة تحول هذه الكماليات إلى ضروريات لا يستغني عنها بحال، فأصبح من الصعب التمييز بين الكمالي والضروري، ولعل هذا يذكرنا بما ذهب إليه ابن خلدون في (أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري

¹ التخطيط الهيكلي للمدينة أو القرية : هو المخطط الذي يوضح الاستخدامات المختلفة للأراضي على الخدمات والأنشطة المختلفة، حيث يحدد مناطق النشاطات الصناعية والسكنية والترفيهية والأراضي الفضاء وأراضي التطوير المستقبلي وغيرها من الاستخدامات المختلفة، سواء على مستوى المدينة أو القرية أو الإقليم أو الدولة فكل مستوى له مخطط هيكلي . المصدر : جهاد صالح عبد اللطيف سلامة، الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، رسالة ماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس،

وتتمدن المدينة إنما همهم " الضروري " من المعاش... فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكماليات من المعاش¹.

إن المتتبع للدراسات المتعلقة بقياس وتحديد الضوابط الاجتماعية المؤثر في نمط السكن يرى أنها قطعت شوطاً كبيراً في وضع الأسس والمعايير التي على أساسها يتم فهم وتوضيح هذه الضوابط وبالتالي يوجه الخطط الإسكانية لتتواءم وتتوافق هذه الضوابط تظهر عديد الدراسات والتحليلات أن السلطات العمومية في موريتانيا لم تعتمد سياسة سكنية تهدف بالأساس إلى القضاء على ظاهر السكن غير القانوني والتخفيف من حدة الأزمة السكنية فيما قبل 1974 وهو الوقت الذي أصبح فيه الشعور حاضراً بضرورة التدخل لإيجاد الحلول الملائمة لوضعية الإسكان، ومن ذلك الوقت ارتكزت سياسة الدولة حول محورين أساسيين :

أ . إنتاج المساكن بأسعار منخفضة عن طريق إحداث مؤسسات تهتم بتوفير المساكن الاجتماعية (شركة البناء والتسيير العقاري SOCOGIM2)

ب . إنجاز المقاسم المتطورة وتقسيمها لفائدة الفئات الفقيرة من السكان وخاصة على مستوى العاصمة نواكشوط

وعلى الرغم من أن تدخل الدولة في مجال الإسكان جاء متأخراً وذلك بعد أن أصبحت وضعية الإسكان معقدة، فإن المراكز التي انطلقت منها لم توصلها إلى نتائج ملموسة من شأنها التخفيف من حدة المشكل، بل إن هذه التدخلات كانت سلبية وزادت الوضع أكثر مما هو عليه، حيث عملت على إقصاء الفئات

¹ وليد المنيس ، الضوابط الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة في الطلب على السكن بالكويت ،

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد 42، الكويت 1985 ص 20

² la Société de Construction et de Gestion Immobilière SOCOGIM ;

الاجتماعية وانزلت نحو الفئات ذات الدخل المرتفع، وتمثل برامج سوكونجيم خير دليل على ذلك، فإذا كانت الدولة قد أوكلت إلى هذه الشركة جميع المهام المتعلقة بالإسكان وتوفير المساكن الاجتماعية سعياً منها للتخفيف من حدة أزمة السكن وخاصة بالعاصمة نواكشوط، فإن هذه المهمة لم تتحقق بما فيه الكفاية نظراً لمحدودية رأس مال هذه المؤسسة واعتمادها أساساً على الهيئات والمساعدات التي تتنازل عنها الدولة وضخامة حجم المسؤولية الموكلة لها، ومع ذلك فقد شملت تدخلاتها ثلاثة مدن أساسية هي نواكشوط وأنواذيبو وروصو، مع التركيز على العاصمة نواكشوط التي استقطبت 90% من مجموع الاستثمارات التي تم رصدتها نظراً لضخامة حجم المشكل السكني بهذه المدينة مقارنة بباقي المدن الأخرى.¹

لقد رافقت سياسة التقسيم المراحل الأولى لتأسيس العاصمة حيث جاءت في البداية تجسيدا لسياسة الإعمار وجذب المواطنين إليها، بل رافق ذلك تقديم لمساعدات مادية لكل من يرغب في الإقامة بهذا القسم وخاصة فيما قبل 1963.

وإذا كانت سياسة توزيع القطع الأرضية في العاصمة نواكشوط في مرحلتها الأولى جاءت نظراً لحاجة السكان القادمين إليها من جهة واستجابة لرؤية تهدف إلى إعمار المدينة من جهة أخرى فإن الأمر لم يعد كذلك منذ بداية السبعينات حين ضرب الجفاف الريف الموريتاني، ودفع بساكنه إلى الهجرة نحو المدن وخاصة نواكشوط، الأمر الذي خلق اختلالاً مجالياً عميقاً أثر وبشكل على مستوى كامل البلاد. ففي 1974 تم توزيع 7000 قطعة أرضية على الوافدين الجدد و أشفعت

¹ السالك ولد مولاي ولد أحمد شريف، توجهات وأهداف سياسات وبرامج التنمية الحضرية بموريتانيا، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نواكشوط،

ب1700 قطعة في 1975 وما هي إلا فترات قصيرة حتى تأكد أن 80% من القطع الموزعة آلت إلى منتفعين آخرين وتحول أصحابها إلى أطراف المدينة واستولوا على أراضٍ غير قانونية لتضاعف بذلك طلبات الحصول على الأرض كلما باشرت السلطات العمومية إلى توزيع مقاسم جديدة حتى سجلت المصالح الإدارية ما يزيد على 108000 طلب، في حين أن الحاجة إلى المساكن لا تتجاوز حسب التقديرات في تلك الفترة 30000 مسكن فقط¹

2. المحددات السوسيو اقتصادية للسياسات الإسكانية .

إن أي محاولة تسعى لدراسة الضوابط الاجتماعية والاقتصادية المحددة للسياسات الإسكانية بل والمؤثرة في الطلب على السكن، وما يرتبط بها لا بد أن يسبقها فهم واضح لساكنة المدينة، وفهم مثله للمدينة ولكل ما يمكن أن يمت بصلة إلى هذين العنصرين وأوجه التفاعل بينهما حسب المكان والزمان. ومما لا شك أن هذه الضوابط تتباين وتختلف باختلاف الناس والمدن، فما نراه فعلا في مدن وبين أفراد مجتمع ما لا يمكن أن يكون بنفس درجة الفعالية ذاتها في مجتمع آخر ومدن أخرى بالرغم من وجود توافق في الخطوط العامة والدقيقة التي تتبع أساسا من حاجة الإنسان للسكن والمعاش وحاجته للاستقرار .

لقد شهدت المقاربات والدراسات المتعلقة بالسياسات الإسكانية تطورا ملحوظا في مجال وضع الأسس والمعايير التي على أساسها يتم فهم وتوضيح هذه الضوابط وبالتالي توجيه الخطط الإسكانية لتوافق هذه الضوابط من خلال جرد مبسط لهذه الوسائل والمناهج، نجدها في الغالب تدور حول أربعة مناهج أساسية (اجتماعي ، جغرافي، اقتصادي، أنثروبولوجي) وبطبيعة الحال لكل وسيلة منهج وطريقة في

¹ نفس المرجع 143

تتبع الظاهرة المدروسة ، فإذا أخذنا المنهج الاجتماعي على سبيل المثال فهو منهج وصفي تجريبي ينبع أساسا من الدراسات الاجتماعية التي حاولت أن تكون تصورات معينة لأشكال الامتداد الحضري في المدن فيما لو كان هذا الامتداد يتخذ شكل الدوائر المركزية أو شكل القطاعات أو النوى المتعددة أو دوائر تتبعها محاور. بعد ذلك يفسر هذا المنهج الأنماط بصورة استقرائية، وتظهر فائدة هذا المنهج في أنه يعطي للباحث قدرة أكبر على فهم أنماط التركزات الحضرية وربطها مع مقاييس معينة ترتبط بحجم ودخل وعمر الأسرة التي تستوطن القطاعات السكنية عندما تهدف الدراسة إلى تتبع المشكلة الإسكانية. فعلى سبيل المثال يرى هذا المنهج أن الدخل والمستوى الاجتماعي يرتبطان بنمط مكاني يأخذ شكلا قطاعيا أو جزئيا ، حيث تتكثف الفئات الاجتماعية على امتداد قطاعات بالنظر إلى دخولها ومستوياتها. أما المنهج الجغرافي في تتبع الظاهرة السكنية وما يرتبط بها من مشاكل، فهو أيضا يستفيد من المنهج الاجتماعي السابق الذكر إلا أنه ينظر للمشكلة من خلال ثلاثة مجالات هي كما أشار روبسون (المجال أو الحيز السكني، المجال أو الحيز الاجتماعي ، المجال أو الحيز الطبيعي) فهذه هي المجالات الرئيسية التي تتعلق بالسكن ثم الإنسان ثم المكان الذي يتم عليه الاستخدام السكني. وعلى وجه الدقة فإن المقصود بالحيز السكني يعني تتبع الواقع السكني من حيث أحجامه وأنواعه ونمط توزيعه والقائم منه والمخزون الاحتياطي أو المستقبلي مما سيواجه به الأسر الساكنة من حيث حجمها وتركيبها العمري والوظيفي والدخل. وأما الحيز الطبيعي فهو المكان الذي يتم عليه التفاعل بين الحيز السكني والحيز الاجتماعي.

أما المنهج الاقتصادي في تتبع المشكلة الإسكانية والاستخدام المكاني في المدينة فهو هام جدا في تفسير كثير من الظواهر التي تميز سكان المدن من الوجهة

الاقتصادية، على سبيل المثال النظر إلى مراكز المدن على أنها توفر أقصى درجات من التسهيلات للوصول أو قابلية الوصول إليها من جميع النواحي الحضرية نظراً لأنها تمثل موقعا مركزيا. وبتحليل فرضيات كهذه فإن الموقع المركزي سيوفر مصدر جذب لعدد من أنواع الاستخدامات الوظيفية المكانية أكثر من أي مركز يتصف بالبعد عن المركز نحو الأطراف، وستدفع هذه الخاصية المركزية إلى التنافس للحصول على موقع هذا المكان، وبالتالي يؤدي هذا إلى رفع سعر الأرض في المركز، وبالمقابل سيقبل التنافس كلما ابتعدنا عن هذا الموقع الاستراتيجي وستقل أسعار الأرض بالبعد عن المركز حتى يصل السعر إلى أقل مستوى عند الأطراف. ومن ثم فإن طبيعة الاستخدام الوظيفي ستتغير كلما ابتعدنا عن مراكز المدن، وهذا يساعد الباحث على تحديد مواقع الاستخدام السكني بالعلاقة مع سعر وإيجار الأرض ، وسيؤدي هذا المدخل الاقتصادي إلى تغطية جزء لا يستهان به من جملة ما سيوفره المنهج الاجتماعي والمنهج الجغرافي السابق الذكر .

أما المنهج الأنثروبولوجي في تتبع المشكلة الإسكانية، فهو قد دخل في الدراسات التي تتعلق في بحث أنماط التركزات البشرية في المدن. وبالرغم من أن هذا العلم أساسا يهتم بدراسة المجتمعات التي هي أقرب للفطرة أو البدائية، إلا أنه مهم خاصة بفرعه الاجتماعي الثقافي في دراسة الثقافات والنسق القبلي والثقافي والعرفي للتجمعات والعرفي للتجمعات السكانية في المدن حتى لو كان ذلك فقط بالمنهجية أو الطريقة التي ندرس بها الظاهرة وليس بالضرورة الظاهرة نفسها من حيث

اعتبارها ضمن المنهج الأنثروبولوجي والمتعارف عليه علمياً، وذلك تجنباً للمشاكل التي قد تطرأ من تداخل المناهج الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية¹.

الخاتمة:

تتوقف مميزات ونمط السكن في بلد معين على عدة عوامل، من قبيل الخصائص الطبيعية والخصوصيات الاجتماعية والمؤسسية من جهة، كما تتوقف على معيشة السكان من جهة أخرى.

وفي موريتانيا ثار جدل كبير حول العوامل المؤدية إلى المناطق العشوائية خلال العقود الأخيرة خاصة في مدينة نواكشوط، التي شهدت نمواً حضرياً اتخذ طابعاً عشوائياً صاحبه زيادة في أعداد الفقراء الذين لا يحصلون على الحد الأدنى من الخدمات الحضرية.

من هنا إذا فإن تحليل وضعية السكن العشوائي، في هذا العمل يندرج في إطار تقييم أبعاد الفقر الذي يمثل أحد المكونات الهامة للتنمية البشرية المستدامة. ذلك أن البلد كان مسرحاً لجفاف مستمر تجسد في تقلبات اجتماعية واقتصادية ترجمت من بين أمور أخرى في شكل تحضر فوضوي للبدو وإنشاء مراكز حضرية جديدة ونمو للمراكز التي كانت قائمة، خصوصاً في مدينة نواكشوط التي شكلت المكان الأكثر استقطاباً للسكان المتضررين من موجات الجفاف. فإلى ذلك النزوح الهائل يعزى تزايد واتساع الأحياء الحضرية الهامشية، ذات السكن الهش المقامة بشكل عشوائي على أديم الأرض المغتصبة. كما ساعد على انتشار هذا النمط السكني غلاء أسعار القطع الأرضية المستصلحة والنواقص القائمة في ميدان سياسة السكن الاجتماعي. وبشكل اندماج هذه الأحياء عقبة كبرى أمام تحسين السكن والصرف الصحي. وعموماً تتفق جل الكتابات بشكل أساسي على أن التضخم الحضري الذي شهدته مدينة نواكشوط وما نجم عنه من زيادة في الأحياء العشوائية كان نتيجة مباشرة لارتفاع معدلات الهجرة الريفية الحضرية واستمرار ارتفاع معدلات

¹ وليد المنيسن، الضوابط الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة في الطلب على السكن بالكويت مرجع

الزيادة الطبيعية، بالإضافة إلى وجود عوامل طرد قوية في الريف وعوامل جذب أقوى في الحضر

كما يفسر ضعف دخل الأفراد والأسر إلى حد بعيد هشاشة السكن والنواقص في مجال الصرف الصحي في نواكشوط . فوطأة ظاهرة الفقر في البلد هي من الشدة بحيث أن معظم المداخل يكرس لتلبية الحاجيات الأولية من غذاء ودواء وكساء . وتتجلى العلاقة بين نمط السكن والدخل من خلال الإحصائيات التي تكشف أن السكن الهش منتشر أساسا في أوساط الفقراء والمملقين¹

في نفس الوقت الذي تتزايد فيه وبشكل ملموس الحاجة في مجال السكن نتيجة الارتفاع معدل الزيادة الطبيعية للسكان ارتفاع معدلات الإنجاب والخصوبة. الأمر الذي جعل إشكالية السكن مطروحة في هذه المدينة كأبرز المشاكل التي يعاني منها ذوي الدخل المحدود والفقراء بشكل عام أكثر من غيرهم.

إن التحديات التي لا زال يعاني منها السكان الأكثر فقرا في ما يتعلق بالحصول على السكن، تظهر عجزا وخطلا واضحين في كل البرامج التي استهدفت حل مشكل الإسكان، كما تظهر كذلك أن إشكالية السكن أصبحت ذات شعبية كبيرة . وهذا ما يعطي المشروعية في إعادة التفكير في النهج التقليدي وكذا في أداء الآليات الفنية والتقنية التي يستند عليها.²

¹ وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية في موريتانيا، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة والفقر، مرجع سبق ذكره ص 40

² Alain DURAND-LASSERVE , L'exclusion des pauvres dans les villes du tiers-monde , Editions L'Harmattan paris 1986 page 165

المراجع

- (1) إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007، عمان، الأردن
- (2) باقادر، أبو بكر أحمد، الفقر وآثاره الاجتماعية وبرامج وآليات مكافحته في دول مجلس التعاون، سلسلة الدراسات الاجتماعية والعمالية، العدد 47، الطبعة الأولى 2008، المنامة . البحرين
- (3) بياه بن محمد ناصر، من أزمة البادية إلى أزمة التحضر الفوضوي في موريتانيا " نواكشوط نموذجاً، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكادال، 2007.
- (4) جهاد صالح عبد اللطيف سلامة، الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، رسالة ماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين. 2010.
- (5) حافظ المداني، الاقتصاد اللاشكلي في تونس بين معالجة الفقر ودفع الحراك الاجتماعي، الحياة الثقافية، العدد 227، يناير 2012، تونس .
- (6) السالك ولد مولاي ولد أحمد شريف، توجهات وأهداف سياسات وبرامج التنمية الحضرية بموريتانيا، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نواكشوط، العدد الثامن، 2010
- (7) الشيخ سعد بوه بن محمد الحسن، التحولات المجالية والاقتصادية بولاية أترارزة، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكادال، المغرب 2000

(8) صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع و الديمغرافيا، الجزائر، 2007. 2008.

(9) عبد الله عطوي، السكان والتنمية البشرية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى 2004، بيروت . لبنان

(10) عبد الإله بنمليح، تهميش الرقيق في بلاد المغرب والأندلس في العصر الوسيط: الفعل ورد الفعل، دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن امسيك الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2011

(11) عدلي السمرى وآخرون، علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية، مطبعة العمرانية للاؤفست، الجيزة، مصر 2000

(12) عزيزة عبد الله النعيم، الفقر الحضري وارتباطه بالهجرة الداخلية " دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية في مدينة الرياض، مركز دراسات الوحدة العربية 2009

(13) لالة بنت سيدي الأمين، الهجرة الداخلية لمدينة نواكشوط، " دراسة حي عرفات " بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب 2000

(14) لالة بنت سيدي الأمين، الهجرة ودورها في التوسع الحضري لمدينة نواكشوط، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نواكشوط، العدد التاسع، 2011

- 15) مجموعة نواكشوط الحضرية، أطلس نواكشوط " البنية التحتية والخدمات الحضرية تنسيق عبد اللطيف ولد محمد عبد الرحمن وآخرين سحب: فاستي . ديماس، سين . تيتيان، فرنسا، فبراير 2011
- 16) محمد الأمين ولد محمد عبد الله، البنية السكانية في مدينة نواكشوط ودعائمتها ومشكلاتها، بحث دبلوم دراسات عليا في علم الاجتماع، معهد البحوث والدراسات، جامعة الدول العربية، القاهرة، مصر، 1989
- 17) محمد الجوهري و آخرون، دراسات اجتماعية معاصرة، جامعة القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 2006
- 18) وزارة الشؤون الاقتصادية وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة 2002
- 19) ولد المحبوبي سيدي عبد الله، الهجرة الداخلية والتنمية في موريتانيا "الثنائي الحرج" صندوق الأمم المتحدة للسكان بموريتانيا، بالتعاون مع جامعة نواكشوط، 1997
- 20) وليد المنيس، الضوابط الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة في الطلب على السكن بالكويت، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد 42، الكويت 1985
- 21) Agence de développement urbaine (ADU), Etude pour la restructuration des quartiers précaires de Nouakchott, 17 Avril 2008.
- 22) Alain DURAND-LASSERVE, L'exclusion des pauvres dans les villes du tiers-monde, Editions L'Harmattan paris 1986
- 23) Bakkari, une enquête sur la zone périurbaine de Nouakchott a été réalisée au moyen de la méthodologie HEA (Household Economy Approach) au profit de GRET. Année de référence : Avril 2009 – Mars 2010

- 24) Ministère des affaires économiques et du développement, Cadre stratégique de lutte contre la pauvreté 2011-2015, Volume 1 (Bilan de mise en œuvre CSLP 2006-2010)
- 25) Office National de la Statistique, Profil de la pauvreté en Mauritanie - 2008, Septembre 2009

إشكاليات التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية وأساليب معالجتها من خلال توجهات برنامج التنمية الحضرية: قراءة في منظور البرنامج وتقييم لحصيلته

أحمد ولد أحمد تلمود
قسم الجغرافيا

السالك ولد مولاي ولد أحمد شريف
قسم الجغرافيا

ملخص:

يشهد المجال الحضري الموريتاني أزمة اقتصادية واجتماعية ومجالية خطيرة بدأت ملامحها تترسخ منذ استقلال البلاد (1960) وتشيد العاصمة انواكشوط (1958). وتتجسد ملامح هذه الأزمة في النمو الحضري السريع للمدن والمراكز الحضرية بسبب الهجرات الداخلية التي عملت على إخلاء المناطق الريفية من سكانها وتتابع حلقات الجفاف والتصحر اللذين مافتتا يضريان هذا البلد خلال دورات عشرية في وقت كانت فيه الموارد المالية محدودة وتغيب فيه الرؤى والاستراتيجيات الواضحة للتخطيط المجالي. وقد أدت تلك العوامل إلى تراكم مشكلات التنمية الحضرية على مستوى مختلف المدن الموريتانية، حيث تنعدم البنى التحتية وتغيب الخدمات والمرافق العمومية الأساسية، مع تنامي ظاهرة السكن العشوائي واكتساح السكان المجال الحضري، مما أفرز فوضى عمرانية خطيرة وأنتج أشكالا من النمو الحضري الخارج عن نطاق التخطيط. ويزداد الأمر خطورة في ظل ضعف النشاط الاقتصادي بهذه المدن وعجزها عن تقديم فرص الحياة للسكان المهاجرين بفعل محدودية الأنشطة الاقتصادية وضعف قاعدتها الاقتصادية وعدم قدرتها على استقطاب مجالها المحلي.

ولئن كانت الخطط والبرامج التنموية التي تبنتها البلاد منذ الاستقلال وحتى نهاية التسعينات لم تعمل على إعطاء التنمية الحضرية مكانتها اللائقة كمكون أساسي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بل تم التركيز على تنمية القطاعات العصرية وإهمال القطاع الريفي والمراكز الحضرية فإن المخططين أدركوا جسامه الأخطاء التي تم ارتكابها في البداية وحاولوا من حين لآخر تدارك الموقف. إلا أن تلك ألفتة غالبا ما اصطدمت بجملة من العراقيل والظروف الطارئة ليبقى الحال عما هو عليه دونما تغيير.

ويمثل برنامج التنمية الحضرية الذي تم تبنيه منذ 2002 بتمويل من البنك الدولي تحولا جديدا في سياسة الدولة وتوجهاتها نحو تقديم الحلول لمشكلات التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية، وذلك انطلاقا من رؤية جديدة تحاول الانطلاق من تشخيص دقيق للقضايا المطروحة ورسم التصورات والحلول المناسبة لها.

مقدمة:

تختلف المدن الموريتانية من حيث تاريخ نشأتها وظروف نموها، حيث تتألف الشبكة الحضرية من ثلاث مكونات تتمثل أولاها في الرعي الأول الذي يؤسس لإعمار المجال الموريتاني وتمثله "القصور" التي يعود تأسيسها إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. أما البنية الحضرية الثانية فقد نشأت في عهد الاستعمار الفرنسي في الوقت الذي بدأ فيه انحطاط "القصور" تاركة المجال لازدواجية النمو والتراجع، أما البنية الحضرية الثالثة فقد برزت بعد الاستقلال حيث نشأت مدن جديدة معتمدة على الموارد المحلية أو الإرادة السياسية كما هو الحال

بانواكشوط. وفيما عدى تضخم المدينة الأولى (انواكشوط) فإن التراتبية الضعيفة للمدن الموريتانية تجعل من الصعب الحديث عن وجود شبكة حضرية حقيقية¹. فالمجال الحضري الموريتاني يضم 12 مدينة تشكل عواصم الولايات إضافة إلى مدينة انواكشوط عاصمة البلاد، وتتميز البنية الحضرية لهذا المجال بالتباين والاختلال الشديد حيث يظهر الدور الكبير لمدينة انواكشوط كقطب نمو حضري هام يستقطب ¼ من سكان البلاد ومعظم الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع وجود أطراف وسطى ذات تأثير إقليمي محدود في حين تشكل المدن الأخرى مجرد نقاط ارتكاز للسكان المهاجرين من المناطق الريفية. وتتركز معظم هذه المدن على الشريط الساحلي وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية من البلاد في حين تبقى المناطق الشرقية والشمالية محدودة التواجد إلى خالية تماما من المستقرات الحضرية بفعل انتشار النطاقات الصحراوية وندرة المياه وصعوبة ظروف العيش بها.

ومن الطبيعي أن تؤثر خصائص المجال الحضري على إشكاليات التنمية الحضرية وتوجهاتها على مستوى هذا البلد الذي ما فتئ يتعرض لأزمات اقتصادية واجتماعية ومجالية خطيرة أثرت بشكل كبير على مختلف البرامج التنموية. ورغم ضعف الاهتمام بالتخطيط المجالي والتنمية الحضرية بالذات من خلال ضعف المكانة التي منحت لهاتين المكونتين الأساسيتين ضمن برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية وما تلاها من برامج الإصلاح الهيكلي، فإن انجاز برنامج التنمية الحضرية يشكل تحولا جديدا في سياسة البلاد نحو اهتمام جديد بأزمة المجال الحضري والبحث عن الحلول الملائمة لها.

¹ - أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، اللوحة 7

وهكذا فإننا نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على إشكاليات التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية وسبل معالجتها من خلال المرحلة الأولى لبرنامج التنمية الحضرية الممول من قبل البنك العالمي (2002 - 2011)، وذلك من خلال البحث عن مدى الانسجام بين أهداف هذا البرنامج والإشكالات المطروحة.

I - إشكاليات التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية:

الواقع أن هناك كثيرا من العوامل التي ساعدت على سهولة تحديد الإشكاليات الكبرى المطروحة على مستوى التنمية الحضرية، فالمجال الوطني لا يزال يخضع منذ الاستقلال لنفس العوامل والآليات التي أدت إلى اختلاله وتأزمه كحلقات الجفاف والتصحر ونقص الإمكانيات المالية والحراك المجالي المتمثل في النزوح نحو المدن والمراكز الحضرية الكبرى، مما أفرز تجانسا للإشكاليات المطروحة على مستوى المدن حيث ظلت الجهود منصبة نحو إشكاليات توازن المجال وتحقيق اندماج عناصر منظومته وتكاملها والسيطرة على نمو المدن وفك عزلتها وتوفير البنى التحتية والخدمات الأساسية بها والعمل على أن تلعب دورا هاما في التنمية الاقتصادية والاجتماعية مع ضرورة الحفاظ على البيئة.

وسنحاول التعرض لأهم إشكاليات التنمية الحضرية التي برزت على مستوى المدن الموريتانية من خلال نتائج الدراسات التي تم القيام بها في إطار إعداد برامج التنمية الحضرية على مستوى عواصم الولايات، وذلك لإعطاء صورة عامة عن واقع هذا المجال، قبل أن نحاول في مرحلة لاحقة الوقوف على ما إذا كانت استراتيجيات التنمية الحضرية التي تم رسمها والأهداف المراد تحقيقها قادرة على تقديم الحلول لمثل هذه الإشكاليات وكيف استطاعت ذلك؟

1- إشكالية تشريعية ومؤسسية:

لابد في إطار تناول إشكالية التنمية الحضرية على مستوى المدن الموريتانية من التعرض للإشكاليات التشريعية والمؤسسية المطروحة والتي تمثل أهم عائق نحو تحقيق التنمية الحضرية المنشودة وذلك من خلال النقطتين التاليتين:

- البعد التشريعي: حيث تتكشف المشاكل المطروحة على هذا المستوى من خلال مدى فعالية نظام اللامركزية الناتجة عن نقص القوانين والتشريعات وعدم كفاية مستوى الصلاحيات والقرارات التي يتم اتخاذها على المستوى الإقليمي، فمنذ تبني اللامركزية نهاية الثمانينات لم تتمكن هذه السياسة من تحقيق المآرب المرجوة منها، حيث سعت الدولة إلى إنشاء البلديات وإطارها النمطي لتحمل مسؤولية كبرى في التنمية المحلية وهو ما لم يترافق والاعتمادات المالية الكفيلة بتحقيق هذه المهمة.

ومن ناحية أخرى تظهر القوانين والتشريعات ضعفا كبيرا فيما يتعلق بوضع آليات التسيير والتخطيط الحضري، حيث لا يزال القطاع العقاري بحاجة لمزيد من التقنين والضبط وخاصة في ظل النمو المتزايد للمدن وشغل السكان لاكتساح المجال الحضري. ويزداد الأمر خطورة في ظل غياب الوثائق المرجعية للتخطيط الحضري (المخططات المديرية لتهيئة المدن، مخططات استغلال الأراضي، مخططات التنمية البلدية..) مما أدى إلى نمو المدن بصورة فوضوية خارجة عن نطاق التخطيط والتنظيم¹.

- البعد المؤسسي: حيث لا يخرج كثيرا عن نطاق فشل اللامركزية وعجز أجهزة الدولة المركزية عن تأدية أدوارها ونقص مستوى تغطيتها ولا مركزيتها. فعدد

¹ - ولد مولاي ولد أحمد شريف السالك، 2008، التحضر غير القانوني ودوره في دينامية مدينة

أنواكشوط، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة تونس، ص 334

القطاعات الأساسية غير ممثلة داخل المدن الثانوية وإن كانت كذلك فإن أداءها بسيط بفعل ضعف ذلك التمثيل ومحدودية الوسائل والإمكانيات المخصصة لها. وهو ما من شأنه أن انعكس على دور هذه المراكز في استقطاب مجالها الإقليمي.

2- إشكالية النمو والتخطيط الحضري:

تشهد معظم المدن الموريتانية عديد المشكلات المرتبطة بالنمو الحضري حيث أدت الظروف العامة لذلك النمو إلى ولادة قسرية لكثير من المراكز الحضرية وتزامنت تلك الولادة مع تحولات اقتصادية واجتماعية ومجالية عميقة أدت إلى إحداث اختلالات متنوعة في مختلف أوجه الحياة الحضرية وخاصة العاصمة انواكشوط. وتتمثل أهم إشكاليات النمو الحضري في عدم القدرة على السيطرة عليه وتزايد الأحياء العشوائية ونقص الاندماج الحضري والتباين المجالي بين الأحياء.

• مشكل السيطرة على النمو الحضري: حيث عرفت مختلف المراكز الحضرية عموماً نمواً متسارعاً بسبب الهجرات الداخلية من جراء موجات الجفاف والتصحر، وهذا النمو لا يتضح على مستوى اتساع النسيج الحضري فحسب بقدر ما يتضح من خلال تزايد أعداد المراكز الحضرية التي أصبحت وجهة آمنة للمهاجرين من المناطق الريفية.

وتمثل مدينة انواكشوط خير مثال على ذلك، حيث ظلت تنمو بصورة سريعة خارج النطاقات المخصصة لذلك عبر محاور الطرق والاتصالات حتى أصبحت المساحة في حدود 40000 هكتار منها حوالي 20% من المساحة المتمدة¹. كما أن التقسيم الإداري واكبر هذا التطور حيث انتقل عدد المقاطعات من خمس مقاطعات

¹ - المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة انواكشوط، أفقي 2010 و 2020، وكالة التنمية

عام 1974 إلى تسع عام 1990. وقد كان لهذا المشكل انعكاسات سلبية على المجال الحضري بفعل تزايد السكن العشوائي والاحتلال غير القانوني للأراضي غير الصالحة للسكن، وانحراف النمو الحضري عما هو متوقع له وامتداد في شكل شريط على طول محاور الطرق والمواصلات كما هو الحال أيضا بمدينة نواكشوط. والعيون.

• مشكل السكن العشوائي: وهو أكبر تحد على مستوى جميع المدن الموريتانية. وتظهر هذه الظاهرة بشكل ملحوظ وواضح على مستوى العاصمة نواكشوط وناواذيبو حيث تتواجد أحياء الصفيح غير الثابتة (الكبه) إلى جانب المساكن غير القانونية الثابتة (ظاهرة الكزهر)¹. أما في المدن الأخرى فإن بناء المساكن بالأسمنت ومستواها الفني والعمراني نسبيا لا يمكن أن يخفي الطابع العشوائي وغير القانوني لأكثر من نصفها، حيث تتأتى تلك العشوائية من خلال فوضوية المساكن وعدم احترامها قواعد التخطيط العمراني في ظل غياب الوثائق المرجعية للتخطيط الحضري. وتتواجد هذه الظاهرة في كل من مدينة نواكشوط وكيهيدي وروصو وناواذيبو بصورة أشد من المدن الأخرى.

• نقص الاندماج الحضري: حيث تشهد معظم المدن الموريتانية نقصا كبيرا في الاندماج الحضري الداخلي والخارجي وتأخذ هذه المسألة أبعادا متعددة تنطلق من تجزئ وانقسام النسيج الحضري ونقص التكامل والاندماج بين هذه الأجزاء. وهكذا تظهر الأحياء معزولة عن بعضها البعض بفعل نقص محاور الربط والاتصال وتكدس الخدمات وتركزها في المراكز وتمثل مدينة سيلبابي خير مثال

¹ – Agence de Développement Urbain, Etude pour la restructuration des quartiers précaires de Nouakchott, Avril 2008, mémoire de programme, p 10

على نقص الاندماج الحضري¹، كما أن العاصمة أنواكشوط لا تزال تشكو هذه الظاهرة رغم السياسات التي تم اتخاذها للقضاء على هذه الظاهرة.

• العزل أو التباين المجالي: حيث تظهر الاختلافات والفوارق المجالية واضحة ضمن النسيج الحضري الذي يتميز بوجود مناطق الأحياء العشوائية والأحياء الفقيرة غير المنتظمة والعديمة التجهيزات والخدمات الأساسية في الأطراف، إلى جانب المناطق الأكثر حظوة في الغالب والتي غالبا ما تكون في المركز (الأحياء المحيطة بالأسواق والمناطق الإدارية عموما). ورغم وضوح هذه الظاهرة على مستوى العاصمة أنواكشوط وأنواذيبو فإن الصورة تتضح أكثر في المدن الثانوية وخاصة ازويرات وأنواذيبو وكيفه.

• فك العزلة: تعاني عديد المدن الداخلية الموريتانية عزلة شديدة داخل المجال الوطني فضلا عما يلاحظ من عزلة لها على المستوى الخارجي، حيث يمنحها بعضها الموقع الجغرافي مكانة هامة لأن تلعب دورا يتجاوز الحدود الوطنية مما يسمح لها بالازدهار والنمو والإشعاع. فعلى سبيل المثال تعاني مدينة النعمة في أقصى الجنوب الشرقي عزلة شديدة حيث يمثل طريق الأمل منفذها الوحيد في حين تظهر معزولة عن شمال البلاد (مشروع طريق النعمة أطار) ولا ترتبط بطريق معبد مع دولة مالي المجاورة، ونفس الأمر بالنسبة لمدينة تككجة الواقعة وسط البلاد حيث تبدو معزولة عن شمال البلاد وجنوبها باستثناء طريق

صنقرافه الذي يمثل مسلكها الوحيد الذي يربطها بالمجال الوطني والأمر نفسه بالنسبة لسيلبابي وكيهيدي والزويرات¹.

3- إشكالية ضعف القاعدة الاقتصادية وعدم تنوعها:

رغم تعدد الموارد الاقتصادية بموريتانيا فإن معظم المدن بما هي مراكز للأنشطة الاقتصادية والبشرية المختلفة لم تتمكن إلى حد الآن من لعب دورها الأساسي كبوتقة تنصهر فيها مختلف مكونات الاقتصاد الحضري، كما لم تستفد من الأنشطة البسيطة التي هي مسرح لها. ولعل مرد ذلك يرجع في أهم تفسيراته إلى ما تعانيه هذه المراكز من نقص في الخدمات والتجهيزات والبنية التحتية القادرة على تنمية الأنشطة وخلق مناخ الابتكار وبالتالي بناء قاعدة اقتصادية صلبة ومتنوعة داخل المجال الحضري. وعلى العموم يمكننا أن نلمس جوانب هذه الإشكالية من خلال النقاط التالية:

- غياب التجهيزات والبنية التحتية الأساسية: حيث تمثل الدعامة الأساسية لتنمية وتطور الأنشطة الاقتصادية بل والبشرية بصورة عامة. وفي ظل غيابها فإن الحديث عن النمو الاقتصادي يظل ضرباً من الخيال. وفي هذا الإطار فإن مختلف المدن الداخلية لم تزود بشبكات الكهرباء إلا في حدود 1994 عندما قامت الدولة بتوسيع نطاق تدخلات شركة المياه والكهرباء لتشمل المدن الثانوية إلى جانب العاصمتين السياسية والاقتصادية. ورغم ذلك فإن ما توفر من تلك الشبكات يظل دون المستوى حيث الانقطاعات المتبادلة والعجز الكبير. والأمر نفسه

¹ - أنظر لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع: ولد أحمد تلمود (أحمدود)، 2000، شبكة الطرق البرية في موريتانيا، دراسة تحليلية كمية، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، العدد الثامن، 2010، ص ص 97-124.

بالنسبة للبنى التحتية حيث تفتقر أغلب المدن الموريتانية للطرق والمدارس والمستوصفات وغير ذلك من مقومات البقاء والاستقرار فضلا عن العمل والنشاط الاقتصادي.

• محدودية تأثير الأنشطة الاقتصادية: حيث انعكست الوضعية السابقة على محدودية النشاط الاقتصادي واقتصاره في الأساس على القطاع غير المصنف الذي لا يعدو كونه مجرد مبادرات فردية لا ترقى إلى المستوى المطلوب. ومع ذلك اشتهرت بعض المدن بتركيز بعض الأنشطة المحددة كالصيد في انواذيبو، واستخراج خامات الحديد في الزويرات والذهب في اكجوجت والسياحة بأطار والزراعة المروية بروضو والتجارة بمدينة كيفه وغير ذلك¹. ورغم طابع التخصص هذا فإن أي من المدن السابقة لم تتمكن من الاستفادة من مؤهلاتها الاقتصادية، بل لم تساعد من حيث قدرتها الاستيعابية والاستقطابية ومستوى تجهيزها بالخدمات والمرافق الأساسية على ترقية هذه الأنشطة ولذلك ظلت هذه القدرات والإمكانات الطبيعية في استنزاف مستمر دون أي تأثير على المجال الحضري.

• ضعف العلاقة ما بين المدينة ومحيطها: عادة ما يقاس إشعاع المراكز الحضرية وقدرتها على استقطاب مجالها المحلي بأهمية العلاقة التي تربط المدينة بمحيطها الخارجي، ورغم كون المدينة نتاجا للتفاعل بين عناصر المنظومة المجالية القائم على التكامل والتماثل في تأدية الأدوار وخاصة بالنسبة للوسطين الريفي والحضري، فإن المدن الموريتانية بفعل ضعف قاعدتها الاقتصادية ومحدودية الخدمات الإشعاعية والاستقطابية التي تقدمها للمجال المحلي تظهر

¹ - لمزيد من المعلومات أنظر في هذا الإطار: ولد محمد فال عبد الله، السكان والتشغيل،

أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة تونس، 2000

مستوى بسيطاً من تلك العلاقة الأساسية في دينامية المجال الحضري. وإذا كانت الأدفاق التي شكلت بالنسبة للكثير من الباحثين محور اهتمام لتفسير الحراك السكاني عبر المجال وتبيين مستوى تلك الدينامية من خلال تيارات الهجرة الوافدة والمغادرة نحو المدن والمراكز فإن النتائج أثبتت في أهم جوانبها أن ظروف المكان وعوامل الطرد من الريف كانت أشد بكثير من مغريات الجذب في مناطق الاستقبال.¹ وهكذا فإن الهجرة لا تمثل دليلاً على التفاعل المكاني المثالي بقدر ما هي انعكاس لاختلال مجالي كبير. وعموماً فإن مختلف المدن والمراكز الحضرية بموريتانيا تظهر ذات تأثير محدود على محيطها باستثناء العاصمة انواكشوط التي تستقطب كامل المجال الوطني وما عدى ذلك فإن التدخل يبقى أمراً ملحا لهيكله المجال وخلق حاضرات توازن ذات إشعاع إقليمي عن طريق إعادة الحياة في المدن الثانوية لتلعب مكانتها الأساسية في تنمية البلاد.

4- إشكالية البيئة والتنمية المستدامة:

يرتبط هذان العنصران بصورة كبيرة؛ فتحقيق التنمية المستدامة يقتضي حماية البيئة والمحافظة عليها واستغلالها بصورة معقنة تستجيب لحاجيات السكان وتراعي مستقبل الأجيال اللاحقة. وهكذا أصبحت هذه الإشكالية مطروحة على مستوى مختلف بلدان العالم وخاصة النامية منه بالذات. وفي موريتانيا تتراءى أوجه مشكلات البيئة على مستوى المراكز الحضرية من خلال النقطتين التاليتين:

- مشكل الصرف الصحي: وهو أكبر المشاكل وأكثرها تعقيداً لا على مستوى المدن الداخلية بل كذلك على مستوى العاصمة انواكشوط؛ فمياه الأمطار غالباً ما

¹ - أنظر لمزيد من المعلومات أطروحة الأستاذ سيدي عبد الله المحبوب (1998) الهجرات الداخلية والتنمية بموريتانيا، الثنائي الحرج.

تتسبب في غمر أحياء بكاملها بسبب غياب قنوات الصرف، كما أن المياه المستعملة والمخلفات الضارة لا تزال تخزن في حفر (fosses) على حافة الطريق، مما يفتح الباب أمام تلوث الموائد المائية¹.

• مشكل حماية البيئة الحضرية: حيث تقع معظم المدن الموريتانية تحت وطأة المناخ القاسي والجفاف الشديد، مما جعل مشكل زحف الرمال وحماية المحيط الحضري أهم الأخطار التي تهدد مستقبل نموها الحضري. ضف إلى ذلك ما تعانيه المناطق المتاخمة من تدهور في الوسط الطبيعي وتراجع في إنتاجية التربة وخاصة مناطق الواحات بأطار وتكانت ومناطق الزراعة المروية بروضو. وبصورة عامة تتشعب إشكاليات التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية بدءا بالإطار التشريعي والمؤسسي الذي يضمن توفير الآليات وخلق الأجواء المناسبة لنمو المراكز الحضرية ثم السياق العام للنمو الحضري للمدن وما تتفرد به من خصوصيات أثرت بشكل كبير على مسيرتها وفعاليتها داخل المجال الإقليمي. ضف إلى ذلك ما تعانيه هذه المدن من مشكلات تتعلق بضعف القاعدة الاقتصادية وعدم تنوعها بما لا يسمح لها بلعب دورها المحوري في دفع عجلة التنمية المحلية واستقطاب مجالها الإقليمي وإشعاعها نحو المجال الوطني. كما أن الإشكاليات البيئية تظل حاضرة بقوة على مستوى المجال الحضري مما سيؤدي لا محالة إلى كبح كل محاولات إرساء أسس التنمية المستدامة ما لم تأخذ تلك الاعتبارات في الحسبان وتلقى الحلول الملائمة لها.

¹ -- Groupement BSA & Tenmiya, 2005, RIM, Programme de Développement Urbain, étude sur l'eau et l'assainissement urbain en Mauritanie, p. 13 et 27

وإذا كانت الصورة تبدو هكذا بالنسبة للإشكاليات المطروحة على مستوى المدن الموريتانية، فما هي أهم توجهات برامج التنمية الحضرية التي تم إعدادها على مستوى كل مدينة في إطار برنامج التنمية الحضرية الممول من طرف البنك الدولي؟ وكيف استطاعت من الناحية النظرية على الأقل تبصر واقع المدن والتطلع لإيجاد مستقبل نمو أفضل لها؟

II- المحاور الأساسية لتوجهات برنامج التنمية الحضرية للمدن الموريتانية:

رغم تعدد إشكاليات التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية وتعقدها وتنوع مجالاتها فإن ما يستقى من توجهات الدولة التي أعلنت عنها في إطار برنامج التنمية الحضرية الذي تم تمويله بالتعاون مع البنك الدولي (2002) يشير في واقع الأمر إلى إدراك ووعي كاملين بخطورة الوضع وصعوبة التعامل مع تلك الإشكاليات المتعددة انطلاقاً من المصادر والموارد المتاحة والإمكانات المالية المخصصة لهذا البرنامج. وهكذا فإن ما تم الاتفاق عليه من توجهات ومحاور أساسية لعلاج مشكلات المدن شكل في مجمله مجرد سلة لانتقاء البرامج ذات الطابع الأولوي، وحصيلة نظرية جاهزة للتطبيق على أرض الواقع ريثما تتوفر المصادر المالية اللازمة لذلك. وسنحاول هنا بالذات التعرف على المحاور الأساسية لتوجهات برنامج التنمية الحضرية إزاء ما هو مطروح من إشكالات تنموية محولين في الآن نفسه معرفة مستوى الانسجام والتناسق بين هذه المحاور والإشكالات السابقة الذكر ومدى قدرتها على تقديم حلول كافية وشفافية لها؟

ونشير هنا إلى أننا سنعتمد في تحديد محاور وتوجهات برنامج التنمية الحضرية هذا انطلاقاً مما ورد ضمن الوثائق التي تم إعدادها كأساس وإطار عام لتوجهات

هذا البرنامج والتي سعت إلى تحديد وتشخيص مشكلات المدن ثم تقديم الحلول واختيار البرامج ذات الطابع الأولي¹.

وهكذا يتبين من خلال تلك الوثائق أن المخططين أجمعوا أن محاور وتوجهات برنامج التنمية الحضرية للمدن الموريتانية ينبغي أن تسعى إلى تحقيق الرهانات التالية:

الرهان الأول: التنمية الحضرية

حيث يأتي تحقيق هذا الرهان انطلاقاً مما تم استنتاجه من مشكلات متعلقة بالخلل الوظيفي الذي تعاني منه جميع المدن الموريتانية باعتباره أهم معوقات التنمية الحضرية. وهكذا فإن التهيئة والتخطيط القائمين على التنمية الاقتصادية والاجتماعية يشكلان مفتاح بلوغ ذلك. وفي هذا الإطار ينبغي تحقيق الأهداف التالية²:

- إعادة هيكلة النسيج الحضري وتحسين التبادلات بين الأحياء: وذلك لفك العزلة عن الأحياء الطرفية وتحسين ظروف السكن وهيكلة النسيج الحضري عموماً. ومختلف التدخلات المزمع القيام بها في سبيل تحقيق هذه الأهداف بين مدينة وأخرى تصب في مجملها في نفس المنحى.
- تحسين تغطية السكان بالشبكات والطرق: وذلك لتلبية حاجيات السكان للخدمات الأساسية من مياه وكهرباء وصرف صحي وطرق إضافة إلى ضمان تأمينهم ضد أخطار الفيضانات كما يحدث لعديد المدن. وتتطلب التدخلات في هذا

¹ - هذه الوثائق تشمل كل المدن الموريتانية الثانوية في إطار إستراتيجية المشروع الهادفة لإحاطة هذه المدن ببرنامج للتنمية الحضرية.

² - قمنا هنا بمحاولة تلخيص وتصنيف مختلف الأهداف التي يسعى المشروع لتحقيقها من خلال الوثائق الخاصة بكل مدينة على حدة.

الصدد من ضرورة زيادة أعداد هذه الشبكات وإعادة تأهيلها وضمان حسن توزيعها داخل الأحياء.

• تحسين المشهد الحضري: ويدخل هذا الهدف في إطار سياسة تجميل المدن عن طريق تشجير الطرقات وغراسة الساحات الخضراء وذلك لضمان جمالية المشهد الحضري من جهة وتوفير الراحة والصحة للسكان، يضاف إلى ذلك العمل على تحسين المظهر المعماري للمدينة.

• تثمين التراث الحضري: وخاصة بموريتانيا حيث يعود تاريخ معظم المدن الموريتانية إلى الحقبة الاستعمارية باستثناء المدن التاريخية القديمة مما جعل أغلبها لا يحتوى على عناصر تراثية هامة مقارنة بالمدن القديمة والأثرية. إلا أن بعض تلك المراكز أصبح يضم شواهد تاريخية وتذكارية تجسد الذاكرة الوطنية مما يتطلب من السلطات العمومية حمايتها وصيانتها.

• ضمان الاستغلال الأمثل للمجال، حيث تتميز معظم المدن الموريتانية بظاهرة الاستغلال المفرط للمجال الحضري مما أدى إلى التوسع الأفقي السريع المفرط الذي من شأنه زيادة تكاليف توفير الخدمات والتجهيزات العمومية وعدم القدرة على تنظيم المدينة والتحكم فيها.

الرهان الثاني: التنمية الاقتصادية والاجتماعية

يرتكز هذا المحور على تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية وذلك بتعزيز البعد الاقتصادي والاجتماعي وإعطائهما مكانة هامة في قلب برامج التنمية الحضرية التي سيتم تنفيذها على مستوى المدن وذلك بإقامة البنى التحتية والتجهيزات الضرورية والاستجابة لحاجيات السكان المحليين.

• وهكذا فإن هدف التنمية الاقتصادية هو تحضير الظروف الملائمة لإقامة الأنشطة وتوسيع القاعدة الاقتصادية وذلك بإحاطة المدينة بمجالات مهيأة لتوطين

الأنشطة المنتجة وخاصة تلك التي تعتمد على المهن الحضرية الصغيرة ثم المهن المرتبطة بالنشاطات الاقتصادية الأخرى التي يمنحها المحيط الحضري للمدينة والتي تختلف من مدينة لأخرى، وهو ما يعني عموماً أن مجالات الأنشطة بالمدن تقتضي وضع برنامج لإعادة تأهيلها. وعموماً فإن التدخلات المزمع إنجازها لتحقيق هذا الهدف تأتي (رغم اختلافها من مدينة لأخرى) لتصب في دعم وتوفير الظروف الملائمة لتحقيق النمو الاقتصادي للمدن وإن كانت الطموحات والموارد غير متوازيتين من ناحية، كما أن حجم المشكلات وإرادة التعاطي معها وعلاجها مسألة فيها نظر.

- أما التنمية الاجتماعية: فإن الهدف هنا لا يختلف كثيراً عن أهداف التنمية الاقتصادية حيث يقوم على أساس تحسين مستوى الخدمات المقدمة للسكان ووضع التجهيزات والمرافق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية القادرة على تأمين متطلبات السكان على المستوى الجهوي (المستشفيات، المؤسسات التعليمية، مراكز التكوين المهني..)

الرهان الثالث: البيئة والتنمية المستدامة:

وتتعلق التوجهات في هذا المنحى مما تم تشخيصه سالفاً من مشكلات في هذا الصدد¹، وهكذا فإن الحلول بالنسبة لمختلف المدن ينبغي أن تراعي الظروف الصعبة التي تشهدها تلك المدن من جراء أخطار الفيضانات ومشاكل الصرف

¹ - Secrétariat d'Etat auprès du premier Ministre chargé de l'environnement, plan d'action nationale pour l'environnement (PANE, 2007- 2001), deuxième partie: Stratégie Nationale de Développement Durable, p 36

الصحي والتخلص من النفايات. وهكذا يقتضي الأمر العمل على تحقيق الأهداف التالية:

- ضمان حماية المدن من الفيضانات وخلق آلية لتسيير مياه الأمطار
- العمل على الحد من تلوث البيئة وتحسين البيئة الحضرية
- حماية مصادر المياه الصالحة للشرب وخاصة الموائد المائية
- وضع آلية جديدة لحل مشكل الصرف الصحي والمياه المستعملة

الرهان الرابع: فك العزلة عن المدن

تظهر هذه الإشكالية ذات مستويات متعددة بدءا بالمستوى المحلي الذي يضمن ربط الأحياء بالمدينة فيما بينها وربط المدينة بنظيراتها على المستوى الإقليمي والوطني ثم المستوى الخارجي حيث يمنح الموقع الجغرافي لبعض المدن الموريتانية مكانة هامة لئن تلعب دورا يتجاوز حدود مجالها الوطني، وهو ما من شأنه دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية واندماج البلاد ضمن منظومة إقليمية بل عالمية تزيد من مكانة هامة في عصر العولمة والاندماج والتكتلات الاقتصادية¹. وهكذا فإن الرهان هنا ينصب نحو تحقيق الأهداف التالية:

- ربط أحياء المدن فيما بينها عن طريق إقامة الطرقات داخل المدينة وضمان تواصل مختلف أجزائها

¹ - أنظر في هذا الإطار توجهات سياسة التهيئة الترابية من خلال:

MINISTÈRE DE L'INTERIEUR, Direction de l'Aménagement du Territoire et de l'Action régionale, Schéma National d'Aménagement du Territoire, phase II, profil de sept villes secondaires de Mauritanie, avril, 1987, 43 pages.

• ربط المدن فيما بينها وذلك بتدعيم شبكة الطرقات الجهوية والوطنية وإقامة طرقات ربط جديدة وإعادة تأهيل الطرقات المتهالكة.

• تعزيز مكانة ودور المدن الثانوية لتتجاوز إطارها الوطني عن طريق ربطها بالدول المجاورة، وخاصة المدن الحدودية (ازويرات في الشمال، النعمة وكيفه ولعيون وسيلبابي وروصو وكيهيدي في الجنوب والجنوب الشرقي).

وعموما فإن هذا الرهان يسعى إلى ضمان تحقيق الاندماج الحضري (على مستوى المدينة ثم الاندماج الإقليمي والوطني والدولي) إضافة إلى دعم انفتاح بعض المدن نحو الخارج وتعزيز مكانتها ضمن منظومة قارية. وهو ما يعني استمرار سيادة طابع الطموح والسعي بالنسبة لكل رهانات برامج التنمية الحضرية للمدن رغم محدودية الإمكانيات والموارد المتاحة.

وبصورة عامة يظهر من خلال الرهانات الأربعة التي حددها برامج التنمية الحضرية في المدن الموريتانية أن هناك وعيا بأبعاد وحجم إشكاليات التنمية الحضرية المطروحة على مستوى هذه المدن، وإن مختلف هذه التوجهات حاولت على حسن نية التعامل مع تلك القضايا بمستوى من الذكاء يطمح لتقديم الحلول بصورة عادلة وشاملة بالنسبة لمختلف أقاليم البلاد . إلا أننا في المقابل يمكن أن نصوغ بعض الملاحظات الهامة في هذا الشأن:

1- إن طابع الطموح المبالغ فيه على مستوى مختلف التوجهات التي تم رسمها ربما يؤدي إلى إحداث إرباك بالنسبة للمخططين وأصحاب القرار السياسي في اختيار وترتيب الأولويات من ناحية، وفي عدم القدرة على الموازنة بين الأولويات والموارد المتاحة من ناحية أخرى.

2- أن المحاور الأساسية الأربعة السابقة الذكر وإن كانت حاولت شمول مختلف أوجه الإشكالات المطروحة لم تأخذ في الحسبان المشكل التشريعي والمؤسسي بما

هو مفتاح تحقق التنمية الحضرية في جميع أوجهها المختلفة، فلا يمكن في نظرنا أن تتحقق تلك المساعي ما دام الإطارين التشريعي والمؤسسي بعيدين عن القدرة على تنظيم المجال الحضري والإجابة على التساؤلات المطروحة في هذا المجال. وهو مل لم تقدم وثيقة التوجهات التنموية إيضاحات عنه.

3- أن تنمية المدينة لا يمكن أن تنعزل عن رؤية متبصرة تأخذ بعين الاعتبار محيط المدينة ومجالها الذي تنتزل فيه، فالمدينة بوتقة تنصهر فيها عناصر المجال ولذا ينبغي التركيز على ظهورها ودمجها ضمن أي خطة تنموية لها.

4- إن اختلاف المجال الموريتاني وتنوع خصوصيات أجزائه (مجال الصيد والتعدين في الشمال، مجال زراعي رعوي، مجالي تجاري وتبادلات. أنظر شارل توبي). يجعل تقديم الحلول وفق رؤية ومنهج موحدتين وحتى إن كانت الخصوصيات تراعي في بعض الحالات سيؤدي إلى اختزال المشكلات المطروحة ويجعلها أسيرة المنهج غير الصائب في بعض الحالات، ذلك أن حصر التوجهات في زوايا النمو الحضري، التنمية الاقتصادية والاجتماعية، البيئة، فك العزلة، قد يكون منطقيا بالنسبة لبعض المدن ومجفيا بالنسبة لأخرى، لذا فإن الالتزام بهذا النسق غطى بعض المشكلات وحجب الحلول والتصورات التي كنا نتطلع لها بصورة منفصلة ومفصلة.

5- جاءت بعض الحلول التي قدمتها البرامج في صورة جوانب ضمن محاور كبرى وهو ما شكل اختزالا لمبتسر وإجحاف في حقه، حيث أن مثل هذه القضايا ينبغي أن يعالج ضمن برامج قطاعية منفصلة تحددتها سياسة وطنية واضحة: كبرنامج وطني للصرف الصحي، وبرنامج وطني لتوفير شبكات المياه والكهرباء...).

6- لم يرق البرنامج بصورة واضحة أو بما فيه الكفاية بالعمل على تكريس اللامركزية عن طريق دعم المجموعات المحلية بالقدر الكافي والممنهج وتحميلها دوراً أساسياً في دينامية العملية التنموية بما هي فاعل اجتماعي ومجالي هام.

7- على الرغم من إنشاء وكالة التنمية الحضرية كجهاز لتسهيل تطبيق وتنفيذ هذا البرنامج، إلا أن ذلك اقترن ومشاكل إدارية كبيرة تتعلق بالصلاحيات وصراع المسؤوليات والأدوار في ظل تعدد الفاعلين المتدخلين في نفس الزاوية: كوكالة تنفيذ الأشغال ذات الطابع العام والشغل، ثم وزارة الإسكان والعمارة وغير ذلك.. ورغم الملاحظات السابقة فإن برنامج التنمية الحضرية استطاع أن يتجاوز مرحلة تكريس التوجه الجديد لدى الدولة نحو العناية بالمجال الحضري ووضع إشكاليات التنمية الحضرية في قلب إشكاليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وهكذا فإن وقفنا على إنجازات هذا البرنامج ومحاولة تسليط الضوء وتقييم حصيلته في مراحله الأخيرة كفيلاً عن القول بأن استمرار هذا البرنامج وإدخال التحسينات اللازمة وتجاوز المشكلات التي طرحت على مستوى هذه المرحلة سيكون من دفع مستوى عجلة التنمية الحضرية بالمدن الموريتانية.

IV - تقييم لخصيلة وآفاق البرنامج

حري بنا هنا أن نقف على خصيلة هذا البرنامج بعدما تعرضنا في السابق للإشكالات المطروحة على مستوى المدن الموريتانية ورصدنا أهم توجهاته ومحاوره العامة. ونسعى في سبيل ذلك إلى إبراز ما إذا كانت الحلول المقترحة والبرامج المنفذة أسهمت في تحقيق حدة أزمة المجال الحضري وتحسين مستوى حياة السكان.

ولئن كانت توجهات البرنامج ومحاوره الأساسية قد ارتكزت كما رأينا في السابق على أربعة محاور أساسية هي التنمية الحضرية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية

والتنمية المستدامة والبيئة وفك العزلة عن المدينة، فإن المشاريع المنفذة يمكن أن توزع وفق المحاور التالية:

1. **الضبط الحضري:** حيث نشير هنا إلى أن التشخيص بين كما رأينا سابقا أهمية المشكل المتعلق بالإطار المؤسسي والتشريعي والتنمية الحضرية من ناحية، وتنظيم المجال الحضري وإعادة هيكلة النسيج الحضري للمدن من ناحية أخرى. وهكذا فإن هناك بعض المشاريع التي تم إنجازها في هذا الصدد، وأخرى لا تزال في طريق الإنجاز. مما يعني أن تلك الإشكاليات تم التصدي لها، حيث نذكر في هذا الصدد مشاريع إعادة هيكلة حي الكبة الذي هو أكبر أحياء السكن غير القانوني بالعاصمة ثم أحياء الكزة بانواكشوط لاحقا. أما فيما يتعلق بالإطار التشريعي فإن الأولوية تم إعطاؤها لوضع الوثائق المرجعية للتخطيط الحضري، حيث تمت إحاطة المدينة بمخطط مديري للتهيئة الحضرية¹ وقد كان من المقرر أن يتم تجديده 2010 إلا أن الخيارات ربما تتجه نحو إحاطة بلديات لكصر وتيارت والرياض بمخططات محلية للعمران بدلا من ذلك.

2. **البنى التحتية:** وهي أكثر الجوانب التي حظيت بأهمية ضمن برنامج التنمية الحضرية، وذلك مراعاة لما تم استنتاجه من خلال نتائج التشخيص حيث تبين أن جميع المدن الموريتانية تفتقر للبنى التحتية والخدمات الأساسية، ولذا كان التركيز على سد العجز وتلافي النقص الحاد في ذلك. وهكذا ارتكزت اهتمامات المشاريع المنفذة نحو تلبية الحاجيات الضرورية التي تم اختيارها حسب الأولوية كبناء

¹ - المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة انواكشوط، أفقي 2010 و 2020، وكالة التنمية الحضرية، وهو عبارة عن رؤية إستراتيجية لنمو مدينة انواكشوط ولا يمثل في الواقع وثيقة مرجعية عملية للتسيير أو التخطيط الحضري، حيث كان من المفترض أن يتبعه إنجاز مخطط محلي للعمران أكثر تفصيلا.

المراكز الصحية وإعادة تأهيلها، وتشبيد المدارس وترميمها، وبناء الأسواق وتعبيد الطرقات، وإقامة المجازر والمرائب وبناء المقرات الإدارية للبلديات، وحماية المدن من خطر الفيضانات وتزويدها بشبكات الماء والكهرباء، والعمل على فك العزلة عن الأحياء داخل المدينة، وضمان ترابط عناصر المنظومة المدنية واشتغالها داخل المجال الوطني¹. ورغم حاجة مختلف المدن الماسة إلى إقامة مثل هذه البنى التحتية والتجهيزات فإن توزيعها راعى معايير الأولوية بالنسبة لكل مدينة مع التركيز على العاصمة انواكشوط التي حظيت بنصيب الأسد. وتشير الوثيقة الخاصة بنتائج تنفيذ هذا البرنامج² إلى تمويل حوالي 40 مشروعاً ضمن المكونة ب و ج 3 المتعلقة فقط بالوكالة الموريتانية لتنفيذ الأشغال ذات الطابع العمومي والعمل وبالذات في الجانب المتعلق بالوكالة الدولية للتنمية (IDA)، وهو ما يعني أهمية هذه التدخلات وخاصة إذا نظرنا إلى جميع مكونات وجوانب تدخل البرنامج المتعددة.

3. **الصرف الصحي:** وهي إحدى معضلات التنمية الحضرية بالبلاد بدءاً بالعاصمة انواكشوط وانتهاءً بباقي المدن الأخرى. ورغم التكاليف الباهظة لمواجهة هذه المشكلة المعقدة وتقديم حلول لها فإن تدخلات البرنامج حرصت على تقديم علاجات لأهم أوجه هذه الإشكالية: كحماية المدن من الفيضانات، والتخلص من مياه الأمطار، ومعالجة النفايات الصلبة. وهكذا فإن الحصيصة المنفذة في هذا الإطار تشير إلى إنجازات هامة إلا أن حجم المشكل المطروح ومحدودية الموارد

¹ -RIM, PDU de douze villes secondaires (partie 4: La mise en place du plan de programme urbain).

² - Ministère des Affaires Economiques, PDU, note mensuelle sur la mise en œuvre du PDU, moi de décembre 2009.

والإمكانيات المالية نسبياً جعل من الصعب بمكان أن يتم علاج المسألة خلال مرحلة البرنامج الأولى، وخاصة في ظل تعدد اهتماماته وتنوع مجالات تدخله. وبصورة عامة يمكننا القول إن تدخلات برنامج التنمية الحضرية انطلقت بصورة رئيسية من المشكلات المطروحة على مستوى المدن وحاولت تقديم حلول لها على ضوء الموارد المتاحة والإمكانيات المتوفرة. وقد شكل توفير البنى التحتية وحماية المدن وتنظيمها أهم المحاور الكبرى لتلك التدخلات. ويبقى تحقيق التنمية الحضرية وتجاوز المشكلات المطروحة على مستوى المدن الموريتانية رهين الاستمرار في التوجهات التنموية، والخيارات التي انطلق منها هذا البرنامج، وتعميق النظر في مختلف أبعادها وجوانبها المتعددة. وبغض النظر عن الحكم على نتائج هذا البرنامج وتقييمها فإن بإمكاننا أن نصوغ الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: لم تكن الظروف مهيأة على الصعيدين المؤسسي والتشريعي بما يكفي لتذليل جميع الصعوبات والعراقيل أمام هذا البرنامج وذلك لتمكينه من تحقيق أهداف التنمية التي يسعى لتحقيقها. فعلى المستوى المؤسسي: تتكفل عدة قطاعات مختلفة بمهام تتعلق بالتنمية الحضرية، بل إن الصلاحيات غير دقيقة ومشته بصورة بعيدة عن التكامل فيما بينها لمواجهة الأزمة (سوكوجيم، وكالة التنمية الحضرية، وزارة الإسكان والعمران، القطاعات الأخرى...) أما على المستوى التشريعي: فإن القوانين والوثائق المرجعية للتخطيط الحضري لم تكن على المستوى الكافي والضروري لانطلاق تنمية حضرية حقيقية وشاملة (نقص مخططات العمران المحلية والمخططات المديرية للعمران...) كما أن القطاع العقاري لم يكن أحسن حال من سابقه، حيث يشهد فوضى عارمة يذكيها شغف السكان نحو اكتساح المجال الحضري والمضاربات العقارية المستمرة. وهو ما من شأنه أن

أربك مختلف التدخلات بل عرقل البرامج التنموية (غياب الساحات العمومية بالعاصمة لإقامة التجهيزات والخدمات على سبيل المثال)
الملاحظة الثانية: لم تمثل تجربة البنك الدولي بتمويله برنامج التنمية الحضرية بموريتانيا أولى نماذج تدخل البنك في مجال التنمية الحضرية، بل إن هناك العديد من البلدان السائرة في طريق النمو حذت نفس المنحى وتمكنت من تحقيق نتائج طيبة في هذا الصدد، وهو ما يدعونا للقول إن استفادة البلد من هذه التدخلات ترتبط بمدى قدرته على توظيف المصادر المالية الممنوحة له ووضوح الأهداف والاستراتيجيات التي يرسمها وعقلنة البرامج التي يتم تنفيذها. إلا أننا في المقابل يمكن أن نتساءل عن مدى قدرة أو إمكانية استفادة البلدان في تمويل التنمية الحضرية بالاعتماد على المصادر الخارجية دون التركيز على تعبئة الموارد الذاتية لمواجهة المشكلات المطروحة؟

الملاحظة الثالثة: تتعلق بمنطق اشتغال هذا البرنامج والفاعلين الأساسيين فيه: هل هو البنك الدولي (مصدر التمويل) وهل تتدخل هذه المؤسسة باعتبارها فاعلا خارجيا (غير وطني) في إطار نشاط داخلي (وطني)، أم أن الدولة ومختلف مصالحها وأجهزتها الإدارية هي التي تقرر باعتبارها فاعلا وطنيا مركزيا وأساسيا؟ وما هو دور السلطة المحلية والسكان المستهدفين في اتخاذ القرارات؟ وما هو موقف البلدية ومختلف المصالح العمرانية الأخرى؟ وكيف ترتبط أو تتدخل مختلف الجهات السابقة من خلال هذا البرنامج؟¹ وفي إطار الحديث عن السلطة ومستوى القرار يظهر أن الدولة وإن كانت ذات صلاحيات واسعة ونفوذ قوي أمام الأجهزة التنفيذية والإدارية الأخرى، فإنها سرعان ما تخضع لتأثير الفاعلين الخارجيين

¹ - ولد مولاي ولد أحمد شريف (السالك)، 2008، مرجع سبق ذكره، ص 319

الأكثر قوة، كالبنك الدولي، باعتباره مصدر التمويل، مما يسمح له بفرض الأفكار والآراء ذات التأثير المباشر على الخيارات والأولويات التنموية. وهكذا يتضح أن نظام الفاعلين في هذا البرنامج يتكون من بنيتين مترابيتين حسب أهمية ودور الفاعلين في تمويل وتسيير وتنفيذ المشروع:

- بنية عمودية: وهي مصدر السلطة والقرارات وتشمل "الفاعلين الكبار" وهنا يمكن أن نميز بين صنفين من الفاعلين حسب مستويات القرار المختلفة: الصنف الأول: المستوى الدولي كالبنك العالمي باعتباره "فاعلا كبيرا"¹ أو "خارجيا"² يمارس أنشطته داخل المجال المحلي، ويكونه مصدر التمويل فإنه غالبا ما يتدخل على مستوى السياسات والأولويات التنموية التي سيتم اتخاذها. أما الصنف الثاني فيمثله المستوى الوطني للقرار، ونعني هنا الفاعل الوطني ذو النشاط التأثيري على المستوى المحلي ونقصد بذلك الدولة باعتبارها أداة الضبط والتنظيم المجالي، وحتى وإن كانت المصالح والأجهزة الإدارية الأخرى حدثت من هذا الدور في إطار اللامركزية، فإن تحديد السياسة الحضرية والخيارات التنموية لا يزال ينطلق من المستوى الوطني للقرار.

- بنية أفقية: وتشمل "الفاعلين الصغار" سواء كانوا تقنيين حكوميين، أم خواص تابعين لمكاتب الدراسات الفنية التي تقوم بإعداد تلك الدراسات تبعا لتوجهات السلطات المحلية (البلدية، وكالة التنمية الحضرية، خلية التنسيق..)، كما

¹ -BELHEDI (A), 2002, Les acteurs et l'espace : quelques éléments de problématiques, 3eme séance scientifiques du Laboratoire de la Dynamique et Planification Spatiale, FSHS, Tunis, 27 nov.2002, 11p.

² -Di Méo (G), 1986, Objectivation et représentation des formations socio-spatiales: de l'acteur au territoire, Annales de Géographie, N° 537, pp 564 – 594.

تضم هذه الفئة المعماريون الذين يقومون بإنجاز الدراسات لفائدة السكان وتبعا لتوجيهاتهم ورغباتهم، إضافة إلى مختلف مراكز السلطة المحلية (الإدارات المركزية المهمة بالعمران، وكالة التنمية الحضرية، البلدية) والمنظمات غير الحكومية والسكان المستفيدين من العملية التنموية.

وعلى العموم ورغم طموحات برنامج التنمية الحضرية وما حققه من إنجازات هامة في سبيل تقديم الحلول لمشكلات المدن الموريتانية فإن مما لا شك فيه أن الملاحظات السابقة أثرت بشكل أو بآخر على أداء هذا البرنامج وأعاقته جهوده. وهو ما يعني أن الاستمرار في هذا التوجه يقتضي التصدي لمثل هذه القضايا حتى لا تكون التدخلات مجرد حلول آنية ومسكنات لا ترقى إلى مستوى تقديم العلاج النهائي لإشكاليات التنمية الحضرية.

الخاتمة:

يشهد المجال الحضري بموريتانيا أزمة خطيرة تتجسد أهم مظاهرها فيما تعانيه المدن من مشكلات تمس مختلف جوانب الحياة، حيث تنعدم الخدمات والمرافق العمومية وتغيب التجهيزات والبنى التحتية الأساسية، إضافة إلى اختلال النمو الحضري وضعف القاعدة الاقتصادية وتراكم المشكلات البيئية وعدم وضوح الإطارين المؤسسي والتشريعي للتخطيط الحضري. ويزداد الأمر خطورة في ظل غياب سياسة حضرية واضحة منذ الاستقلال وحتى منتصف التسعينات؛ حيث تميزت خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تبنتها الدولة بضعف مكانة التنمية الحضرية تارة وإهمالها تارة أخرى. وهكذا تم لفترة طويلة إهمال المدن والمراكز الحضرية كإطار ملائم لتنمية الأنشطة القطاعية العصرية التي يراها المخططون العصا السحرية التي ينبغي التوكؤ عليها لتخفيف أعباء المشاكل

التنمية المطروحة، ومع ذلك لم تتمكن هذه الأنشطة رغم الأولوية التي حظيت بها من تحقيق آمال وطموحات المخططيين في وقت تسارعت فيه تيارات الهجرات نحو المدن والمراكز الحضرية وخاصة العاصمة انواكشوط مما أدى إلى فشل البرامج وتراكم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والمجالية بهذه المدن.

وسعى منها لتدارك الموقف وتقديم الحلول لتلك المشكلات قامت الدولة بتمويل من البنك الدولي بإنجاز برنامج التنمية الحضرية (الذي يمتد ما بين 2002 و 2010) ورغم أهمية الأهداف التي رسمها هذا البرنامج والاستراتيجيات التي طرحها فإن حجم المشكلات المتعددة والمختلفة التي تعاني منها المدن، وطبيعة نطاق التدخل وما يشهده من غموض وليس فيما يتعلق بالتنمية الحضرية والفاعلين فيها، ومحدودية الموارد والإمكانيات المالية الذاتية كل ذلك قد عمل على امتصاص نتائج هذا البرنامج وتغطيتها.

ومع ذلك تشير الخلاصات المستنتجة من نتائج تشخيص مشكلات التنمية الحضرية في إطار هذا البرنامج وكذا الحلول والتوجهات التي ينبغي اتخاذها إلى وعي بخطورة الأزمة التي يعانيها المجال الحضري وتعدد جوانبها. ويبقى التعاطي مع تلك الأزمة وتقديم الحلول لها رهين الاستمرار في توجهات وأهداف هذا البرنامج وتعميق التحليل في المشاكل التي يعانيها والعقبات التي تعترض سبيله وذلك بعد إجراء دراسة حصيلة وتقييم لهذه المرحلة لتمهيد الظروف والاستعداد بحزم للمراحل القادمة.

المراجع:

- ☞ المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة انواكشوط، أفقي 2010 و 2020، وكالة التنمية الحضرية، 118 ص
- ☞ ولد محمد فال عبد الله، السكان والتشغيل، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة تونس، 2000، 490 ص
- ☞ أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي
- ☞ ولد المحبوبي (سيدي عبد الله)، الهجرات الداخلية والتنمية بموريتانيا، الثنائي الحرج، المطبعة الجديدة، 545 ص.
- ☞ ولد مولاي ولد أحمد شريف (السالك)، التحضر غير القانوني ودوره في دينامية مدينة أنواكشوط، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة تونس، 508 ص
- ☞ ولد أحمد تلمود (أحمود)، 2000، شبكة الطرق البرية في موريتانيا، دراسة تحليلية كمية، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث، العدد الثامن، 2010، ص ص 97-124.
- ☞ M.I.P.T., Congrès National des Maires Mauritanien, travaux d'atelier, recommandations et résolutions, Nouakchott, 27-30 Avril 1995, p. 18
- ☞ Groupement BSA & Tenmiya, RIM, Programme de Développement Urbain, étude sur l'eau et l'assainissement urbain en Mauritanie, 2005, p 13 et 27 85p.

☞ Secrétariat d'Etat auprès du premier ministre chargé de l'environnement, plan d'action nationale pour l'environnement (PANE, 2007- 2001), deuxième partie : Stratégie Nationale de Développement Durable, 102 p.

☞ MINISTERE DE L'INTERIEUR, Direction de l'Aménagement du Territoire et de l'Action régionale, Schéma National d'Aménagement du Territoire, phase II, profil de sept villes secondaires de Mauritanie, avril, 1987, 43 pages.

☞ Di Méo (G), 1986, Objectivation et représentation des formations socio-spatiales : de l'acteur au territoire, Annales de Géographie, N° 537, pp 564 – 594.

☞ Agence de Développement Urbain, Etude pour la restructuration des quartiers précaires de Nouakchott, Avril 2008, mémoire de programme, 107p.

☞ BELHEDI (A), 2002, Les acteurs et l'espace : quelques éléments de problématiques, 3eme séance scientifiques du Laboratoire de la Dynamique et Planification Spatiale, FSHS, Tunis, 27nov. 2002, 11p

☞ Commune de Nouakchott, Stratégie de développement de la ville de Nouakchott, Phase II, 2002, 83 p

☞ Ministère des Affaires Economiques, PDU, note mensuelle sur la mise en œuvre du PDU, décembre 2009.

النمو السكاني وتأثيره على مدينة انواكشوط

زينب الملقبة النزهة بنت محمد

قسم الجغرافيا

المقدمة:

لقد أدى النمو السكاني المذهل الذي عرفته وما زالت تعرفه معظم عواصم البلدان السائرة في طريق النمو، ومدنها الكبرى، والذي بلغ ذروته في السنوات الأخيرة، إلى مشاكل السكن، وتدهور الإطار الحياتي في كثير من أحيائها وخاصة الضاحوية منها. كما أدى إلى اختلال العلاقة الوظيفية في المدن، بين المركز والمحيط. فأصبحت المدينة عاجزة عن توفير الاحتياجات اللازمة لسكانها، من سكن لائق، وتجهيزات، ومتطلبات ضرورية لتنمية مستوى الحياة.

وتتدرج الدول العربية في صياغ هذه الدول السائرة في طريق النمو، حيث ساهمت حركات الهجرة الداخلية (النزوح من الريف إلى المدن) بنصيب هام في النمو الديمغرافي الحضري للمدينة. ففي المغرب وصلت نسبة النزوح للفترة ما بين (1971- 1982) إلى 39 %، كما أن نصف سكان القاهرة ولدوا خارجها.

وقد كانت العاصمة انواكشوط في مقدمة المدن التي أصبحت مثقلة بالسكان، دون أن تكون التهيئة الحضرية قد عرفت طريقها إليها، مما أضاف تعقيدات جديدة إلى واقع المدينة الذي لم يضع أصحابه في عين الاعتبار انعكاسات النمو المستقبلي للسكان. والذي أدى إلى ظهور أشكال من التوسع العشوائي لم تكن مألوفة لدى سكان المدينة، وما يزيد المشكلة تعقيدا هو استمرار ظاهرة استهلاك المجال عشوائيا والذي لم يراع فيه اختيار المواضع الملائمة ولا المجال المهيأ للتعمير، إضافة إلى صعوبة إيجاد الحلول الناجعة والعملية لها.

لذا أضحت قضية تنظيم استهلاك المجال الحضري للمدينة وإيجاد توافق بين عناصر المجال الطبيعية والبشرية من أهم القضايا، التي تواجه المختصين في التهيئة الحضرية لتسارع وتيرة النمو السكاني، وما ترتب عن ذلك من توسع في المحيط العمراني، الذي ما فتئ يتزايد يوما بعد يوم وبطريقة عشوائية وغير منتظمة.

أولا: النمو السكاني وخصائصه

1- النمو السكاني

يعد النمو السكاني في العالم أبرز الظواهر الديمغرافية المميزة في العصر الحديث، حيث يمثل تحديا هاما للبشرية وخاصة بالنسبة للشعوب النامية التي يتزايد سكانها بمعدل كبير يزيد على معدل التزايد في التنمية الاقتصادية بها، وعلى إمكانيات توفير الغذاء لسكانها في ظل الظروف الراهنة¹.

لقد أصبحت انواكشوط بعد أربعين سنة فقط من إنشائها أهم مدينة في البلاد سواء من الناحية الديمغرافية أو من الناحية السياسية، وهذا التركيز الكبير الذي لا يعتمد على موارد محلية، يبرز التحول العميق للمجتمع الموريتاني البدوي الذي أصبح ما يقارب ربعه اليوم يقيم بهذه المدينة.

1-1 مراحل النمو السكاني:

يمثل النمو السكاني الملحوظ في موريتانيا تحولا عميقا في المجتمع الموريتاني عموما ومدينة انواكشوط خصوصا وذلك لأسباب اقتصادية و سياسية واجتماعية، ونتيجة لذلك صارت انواكشوط اليوم مكان تشكل المجتمع وتأسيس الأمة².

¹ د. فتحي محمد أبو عيانة، "جغرافية السكان أسس وتطبيقات"، جامعة الإسكندرية. سنة 1999، ص 35

² وكالة التنمية الحضرية المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة انواكشوط أفقي 2010 و 2020 انواكشوط 2003.

وقد حير كل المخططين نموها السريع، إذ تطورت من بلدة ريفية صغيرة يقطنها حوالي 2000 ساكن سنة 1955 إلى مدينة تضم 134.704 ساكنا سنة 1977.¹ وفي سنة 1980 قدر عدد سكان المدينة بحوالي (200.000 نسمة)، ولعل أهم أسباب هذا التفاوت في التغيرات هو تجاهل المخططين والممولين الفرنسيين الأوائل للحجم السكاني ليصبح ذلك مبررا لتقليل النفقات لإنشاء البنى التحتية اللازمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت موجة الجفاف التي ضربت البلاد خلال العقدين الأخيرين عاملا آخر وسببا أيضا في الزيادة المفرطة لسكان انواكشوط²، ولقد ظل عدد السكان في تزايد مستمر حتى وصل (393.325 نسمة) حسب إحصاء السكان سنة 1988، ثم إلى (611.883 نسمة) سنة 2000. ورغم تباطؤ النمو تواصل تأثير الهجرة الريفية على المدينة التي تحتضن اليوم ربع مجموع سكان البلد وهو ما يقارب نصف السكان الحضريين. وخلال العقود الأربعة الماضية (1960-2000) تضاعف عدد سكان انواكشوط 122 مرة تقريبا، وقد عرف خلال هذه الفترة متوسط نمو يقارب ب 9,13 ويشمل هذا التطور فترات مختلفة جدا.

إن الانفجار السكاني في السنوات الأولى من الاستقلال يعكس قلة السكان في العاصمة الجديدة (وهو النمو الذي شهدته الدول الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء عند استقلالها).

¹ دليل إحصاء السكان والمساكن (1977)، إدارة الإحصاء الوطني.

² محمد لمين ولد عبد الله، الآثار الاجتماعية والثقافية لظاهرة النمو الحضري في مدينة انواكشوط، بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في علم الاجتماع، القاهرة، ص 69

تضاعف سكان انواكشوط أربع مرات في الفترة ما بين 1975 و 1990 حيث ارتفع العدد من 135.000 إلى 420.000 وهو ما يمثل نسبة نمو سنوي مدهشة (تبلغ 8%) إذ ما قورنت بمدن داكار، باماكو، وكونا كري التي شهدت في نفس الفترة نسبة نمو تتراوح ما بين 4 إلى 5% وهي نسب اعتبرت كبيرة.

كل هذا يؤكد أن التطور السكاني لمدينة انواكشوط فاق توقعات كل المراقبين كما جسد إلى حد بعيد الصعوبات المستقبلية خصوصا نمو الأحياء المحيطة بالمدينة. وتجدر الإشارة إلى أن بداية هذه الفترة تميزت بالتأثير السيئ والبالغ للجفاف الذي ضرب بلدان الساحل بداية السبعينات.

لوحظ تباطؤ في النمو بداية السبعينات يتناسب وانخفاض الهجرة في اتجاه العاصمة انواكشوط، وقد أكد إحصاء سنة 2000 ذلك، حيث نسبة النمو المسجلة في الفترة ما بين 1988 - 2000 لم تتجاوز 3.75%.¹

1-1-1 نمو ديمغرافي هام نسبيا في النصف الأول من الستينات 1961-1964: لقد مرت مدينة انواكشوط منذ سنة 1961 إلى حدود الفترة 1964 بنمو ديمغرافي هام، حيث تضاعف عدد السكان مرة واحدة خلال ثلاث سنوات لينتقل من (5800 نسمة) سنة 1961 ليصل إلى (12387 نسمة) سنة 1964، أي بزيادة 6587 نسمة، وهو ما يمثل نسبة تطور تقدر ب 113,56‰²، هذا النسق المذهل للنمو الديمغرافي يفسر باستقطاب المدينة لعمال القطاع الإداري وأسرهم، إضافة إلى

¹ وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية مرجع سبق ذكره. ص 16.
² زين العابدين ولد سيداتي، الأنشطة التجارية والتوسع الحضري والتنظيم المجالي لمدينة انواكشوط، مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا. فرع التهيئة العمرانية ص 51

المهتمين بالسياسة، هذا إلى جانب تدفق الهجرة ونزوح السكان من داخل البلاد والمناطق المجاورة سعياً لامتلاكهم قطع أرضية لاسيما وإن المدينة حديثة التعمير والدولة تقسم هذه الأراضي بسخاء.

1-1-2 تراجع واستقرار نسبي إلى حدود نهاية الستينيات 1965-1969:

تميزت هذه الفترة بتراجع نسبي في نسبة النمو حيث انتقل العدد السكاني الإجمالي للمدينة من 17500 نسمة سنة 1965 إلى 20.845 نسمة سنة 1969 أي بزيادة قدرها 3345 نسمة لمدة أربع سنوات أي بنسبة تطور تقدر بـ 19,11%¹، ويرجع سبب هذا التراجع إلى عدة عوامل أهمها تراجع تيارات الهجرة وخاصة عودة عدد هام من العائلات المهاجرة في بداية الستينيات إلى أماكنهم الأصلية بعد تراجع فترة الجفاف، بتهاطل كميات معتبرة من الأمطار خلال هذه الفترة وبالتحديد في سنة 1966، بالإضافة إلى الاضطرابات السياسية التي حدثت في نفس السنة والتي أسفرت عن هجرة مضادة، كل ذلك أدى إلى انخفاض عدد السكان الذين استقطبتهم المدينة سابقاً، مع أنه مع نهاية الستينيات وبداية السبعينات فترة استفحال الجفاف ستشهد المدينة مرحلة جديدة من النمو الديموغرافي.

1-1-3 مرحلة انطلاق الانفجار السكاني:

لقد تعرضت موريتانيا عموماً في أواخر الستينيات من القرن الماضي إلى جفاف حاد حيث تناقصت كميات الأمطار عن متوسطها السنوي 326,2 ملم سنة 1967 إلى 162,8 ملم سنة 1968.²

¹ زين العابدين ولد سيداتي، مرجع سبق ذكره، ص 51.

² لالة بنت سيد الأمين، "الهجرة الداخلية لمدينة انواكشوط، دراسة حالة حي عرفات"، دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا، السنة الجامعية 1999 - 2000، الرباط، ص 18.

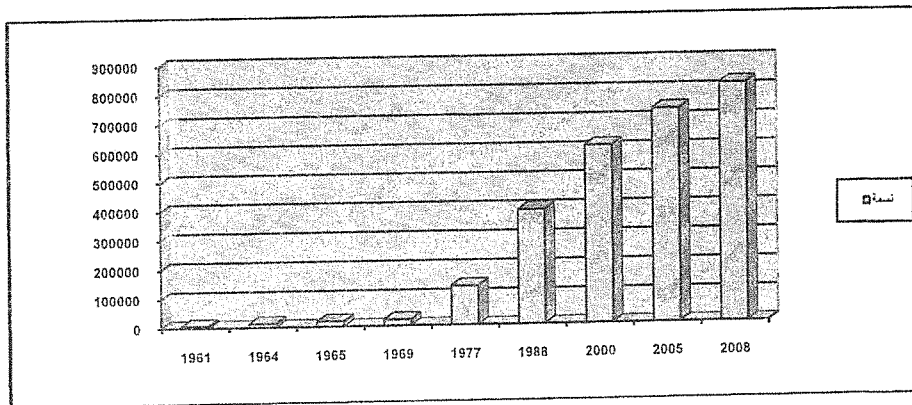
حيث مرت البلاد بظروف قاسية نتج عنها تراجع الزراعة الموسمية المعتمدة على التساقطات، وهلك المواشي التي يركز عليها الاقتصاد الريفي، مما جعل فئات عريضة من السكان تعاني من مخلفات هذا الجفاف الذي أدى إلى اختلال التوازن بين الريف والحضر، فما إن وصلت سنة 1973 حتى عادت الزيادة في المدينة إلى عهد بداية الستينيات، إلا أن هذه الزيادة السكانية تختلف عن سابقتها في التركيب العمري فإن كانت الأولى شملت أكبر عدد من النشطين فإنها في هذه المرة شملت أفواجا من الرضع والشيخوخ هربا من تأثير المجاعة، فقد كانت الأسرة تنتقل بكل أفرادها لأن الظروف فرضت ذلك. وبالتالي شهدت هذه الفترة نموا ديمغرافيا عظيما.

الجدول (01): تطور سكان مدينة انواكشوط للفترة من (1961 - 2008)

السنوات	عدد السكان	نوع التعداد
1961	5800	تقديري
1964	12387	—
1965	17500	—
1969	20845	—
1977	134704	حقيقي
1988	393325	—
2000	611883	—
2005	735544	تقديري
2008	824435	—

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء

الشكل (01): تطور سكان مدينة انواكشوط للفترة من (1961 - 2008)



المصدر إعداد الباحثة بالاعتماد على الجدول (01)

ففي نهاية الفترة الأولى 1977 بلغ عدد السكان (134704 نسمة)¹ أي بزيادة تجاوزت 113 نسمة للفترة الفاصلة بين 1969 و 1977، أما الزيادة السنوية للسكان فقد بلغت في تلك السنة أكثر من 14 نسمة/السنة، وترجع هذه الزيادة إلى الأسباب السابقة الذكر، وعلى الرغم من كل هذا فقد عرفت البلاد خلال هذه الفترة وخصوصا في السنوات المئوية 74 - 1975 انتعاشا اقتصاديا تمثل في التحسن النسبي لكمية الأمطار واستصدار عملة وطنية، وتأميم شركة الحديد والمناجم، مما خلق مراكز جذب جديدة تخفف من شدة الوطأة نسبيا على العاصمة²، ولكن كل هذا لم يوقف الهجرة نحو مدينة انواكشوط، لأن المواطن أصبح يبحث عن مصادر جديدة أضمن من الزراعة والرعي.

إضافة إلى ذلك أن مدينة انواكشوط تحتضن في هذه الفترة معظم المؤسسات التعليمية العامة والفنية بما فيها الثانويات ومدرسة تكوين المعلمين، والإدارة... فهي تتفرد عن سائر المدن الأخرى .

أما الفترة الثانية، من 1977 إلى غاية 2000 التي قدر عدد السكان بها بـ (611.883 نسمة) بزيادة مطلقة للسكان وصلت إلى (468.491) نسمة لنفس الفترة وبزيادة سنوية تجاوزت (20369) نسمة/السنة.

إن ظاهرة النمو الديمغرافي بمدينة انواكشوط لم تكن منتظمة، فهي تتغير من فترة إلى أخرى، وهي تتأثر بعوامل مباشرة مثل النمو غير الطبيعي المتمثل في الهجرة

¹ زين العابدين ولد سيدات، مرجع سبق ذكره.

² نفس المرجع، ص 53.

والنمو الطبيعي الناتج عن المواليد و الوفيات، إضافة إلى عوامل غير مباشرة ولكنها تعتبر المحرك الأساسي للعوامل المباشرة ونقصد بذلك التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها البلاد.

2-1 الزيادة الطبيعية ودورها في نمو السكان

تعد نظرية الانتقال الديمغرافي من أبرز المظاهر المرتبطة بدراسة السكان، وهي باختصار تمثل العلاقة بين معدل المواليد ومعدل الوفيات وما تنتجه من مؤثرات ديمغرافية تنعكس على معدل النمو السكاني في المجتمع. هذه الخصائص الديناميكية أوردها الدكتور صفوح الأخرس بقوله : "يعرف التغيير في حجم السكان سواء بالزيادة أو النقصان بالحركة، والحركة السكانية حصيلة عوامل ثلاثة هي: الولادات، الوفيات والهجرة، وتتجدد المجتمعات تبعا لهذه العوامل".¹

1-2-1 الولادات:

رغم أن انخفاض الولادات يعتبر اليوم من أهم الأحداث الديمغرافية التي يشهدها العالم منذ سنوات عديدة. ورغم أن أغلب التجمعات الحضرية ببلدان العالم الثالث قد تأثرت بهذه الظاهرة العالمية فإن نسبة الولادات بمدينة انواكشوط لا تزال مرتفعة جدا، حيث وصلت حسب تقديرات مكتب الإحصاء لسنة 1993 نسبة الخام للولادات (35,4 %) في حين كانت تقدر في منتصف الثمانينات ب (47 %) وهي أعلى نسبة سجلت، وبعد ذلك بدأت النسبة تنخفض حيث بلغت سنة 1996 (21,5 %).

¹ د. صفوح الأخرس، "علم السكان وقضايا التنمية والتخطيط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980، ص 135.

إلا أن الحقيقة الهامة هي أن عدد المواليد في مدينة انواكشوط يصل في المتوسط إلى نحو (28 %) في حين أن هذا التراجع الذي سجلته نسبة الولادات بنواكشوط يبقى محدودا.

الجدول رقم (02): توزيع الولادات في مدينة انواكشوط حسب فئات أعمار الأمهات والجنس خلال 12 شهر الأخيرة سنة 1988.

الفئات العمرية	ذكور	النسبة المئوية للذكور %	الإناث	النسبة المئوية للإناث %	المجموع
15 - 19	2448	11,14	2488	11,83	4936
20 - 24	5187	23,60	6144	24,46	10331
25 - 29	5889	26,80	4904	23,32	10793
30 - 34	4286	19,50	4390	20,87	8676
35 - 39	2622	11,93	2585	12,29	5207
40 - 44	1009	4,59	1023	4,86	2032
45 - 49	365	1,66	322	1,53	678

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء، دليل إحصاء السكان والمساكن 1988. يلاحظ من خلال الجدول رقم (02) أن الفئة ما بين (15-29 سنة) ترتفع فيها نسبة الولادة وذلك راجع إلى أن نسبة الخصوبة لدى هذه الفئة مرتفعة، بينما تبدأ في التناقص عند الفئة (39-43 سنة). وذلك ناتج عن أن فترة الإنجاب تبدأ في التناقص عند هذه الفئة حتى نهاية فترة الخصوبة.

1-2-2 الوفيات:

حسب مصلحة الإحصاء الوطني فإنه خلال سنة 1993 بلغت نسبة الوفيات المسجلة بمدينة انواكشوط، 29%¹، ويمكن الاطمئنان إلى التقديرات القائلة بأن نسبة الوفيات أكثر انخفاضاً بانواكشوط منها في باقي المدن الأخرى نظراً للتركيب العمري والنوعي لسكان العاصمة انواكشوط ويمكن القول أن نسبة الوفيات تجد تفسيرها في نسبة ارتفاع الوفيات بين الأطفال في السنة الأولى حيث تبلغ هذه النسبة 170%، بينما ترتفع في أحياء الانتظار (الكبة*، الكزرة*) في انواكشوط فتصل إلى 252%² وهذه النسبة المرتفعة ربما تكون مدعاة للريبة بيد أنها ليست مستعدة في ظل الظروف الصحية والاقتصادية التي تعيش فيها نسبة 44,3% من سكان انواكشوط.

واليوم تشهد نسبة النمو الطبيعي بنواكشوط تغيراً من سنة إلى أخرى، إذ أن تطورها يبدو في تزايد ويبقى دائماً في ارتفاع، ففي بداية الستينات قدرت نسبة النمو الطبيعي لسكان المدينة بـ 1,7 % وخلال سنة 1965 ارتفع إلى 2,17 % وبدأ في الارتفاع إلى أن وصل 2,5 % سنة 1978³، لكنها واصلت الارتفاع أيضاً لتصل إلى أكثر من 3,3 % خلال التسعينات و يرجع هذا الارتفاع نتيجة للتراجع المحسوس للوفيات وبقاء نسبة الولادات مرتفعة جداً.

¹ المكتب الوطني للإحصاء، دليل الإحصاء السنوي مسح 1993.

* الكبة: اسم محلي يعني "رمي الأشياء الغير صالحة للاستعمال".

* الكزرة: اسم محلي يدل باللهجة الحسانية على شيء تم أخذه بعدم رغبة من المأخوذ منه

² محمد بباة محمد ناصر، "مدينة انواكشوط، دراسة في الجغرافيا الحضرية"، رسالة ماجستير في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، ص 63.

³ المحبوبي سيدي عبد الله، الهجرات الداخلية إلى مدينة انواكشوط، رسالة ماجستير جامعة الملك سعود، الرياض 1984، ص 52.

ومهما يكن فكل الأرقام والنسب تجعلنا نقر بأن مدينة انواكشوط لا تزال إلى اليوم تمر بمرحلة الانفجار الديمغرافي، وهي لم تصل بعد إلى مرحلة الانتقال الديمغرافي التي بدأت تعرفها أغلب عواصم العالم الثالث. هذا النسق المتزايد والمتسارع للنمو الطبيعي من الأكيد أنه سيؤثر على نسبة النمو الديمغرافي.

1-2-3- الهجرة وأثرها على نمو السكان:

تعد الهجرة عنصرا رئيسيا من عناصر الدراسة السكانية، ذلك لأنها فيما عدا الزيادة الطبيعية تعد المصدر الوحيد لتغير حجم السكان¹. وتعرف الهجرة بأنها حركة انتقال السكان من مكان الأصل إلى مكان الوصول، أي أنها تشمل التغيرات في مكان السكن والإقامة الاعتيادي إلى مكان آخر مختلف². ويظهر دور الهجرة بارزا في نمو سكان المدن وخاصة العواصم منها نظرا لما تتمتع به من عوامل جذب، ولعل مدينة انواكشوط مثالا للعواصم حديثة النشأة التي لعبت الهجرة الداخلية إليها أكبر دور في نموها، فقد أدت موجات الجفاف الحاد التي أصابت البلاد منذ أواخر عقد الستينات إلى زيادة عوامل الطرد المختلفة من المناطق البدوية والريفية، إذ عملت المصائب الناجمة عن ظروف الجفاف والمضاعفات الاقتصادية الناتجة عن حرب الصحراء (سنة 1975) في أن تلجأ أعداد متزايدة من المهاجرين إلى ترك مواطنهم الأصلية والنزوح نحو مدينة

¹ د. فتحي محمد أبو عيانة، مرجع سابق ص 51.

² بشير مقيس، "مدينة وهران دراسة جغرافية العمران، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائرية 1982، ص 144.

انواكشوط التي أصبحت منذ إنشائها تتوفر على عوامل جذب أساسية بحكم ما تقوم به من خدمات إدارية واجتماعية واقتصادية.

وفي هذا الإطار فإن انواكشوط تمثل نموذجا صادقا لجذب المهاجرين من مختلف المناطق الداخلية في الوطن الموريتاني، حيث تشير البيانات الإحصائية سنة 1989 إلى أن نسبة السكان غير المولودين في مدينة انواكشوط بلغت نسبتهم 57,79 % من مجموع سكان المدينة¹، وتهيمن مدينة انواكشوط على تيارات الهجرة الإقليمية بين مختلف مناطق البلاد، فلقد كانت التقديرات الإدارية سنة 1958 تفترض أن عدد سكان انواكشوط سيصل إلى (8000 نسمة) سنة 1970، إلا أن الرقم تجاوز ذلك بكثير وأصبح يتراوح ما بين (35.000 - 40.000 نسمة) بحلول سنة 1970. وقد أصبح نمو العاصمة أسرع عندما استقطبت تلك الأعداد الكبيرة من السكان الذين فقدوا أهم مقومات بقائهم الريفي إثر سنوات الجفاف الذي ضرب البلاد، فقد استأثرت انواكشوط وحدها حسب تعداد 1977 بأكثر من نصف المهاجرين داخل الوطن مكونة بذلك محور الجذب الأول.

الجدول (03): الأسباب الرئيسية للهجرة إلى مدينة انواكشوط سنة 1982.

دوافع الهجرة	النسبة المئوية %
طلب العمل	49.33
من أجل العلاج	8.00
من أجل متابعة الدراسة	1.33
من أجل الحصول على أغراض أخرى	7.50
الجفاف	8.00

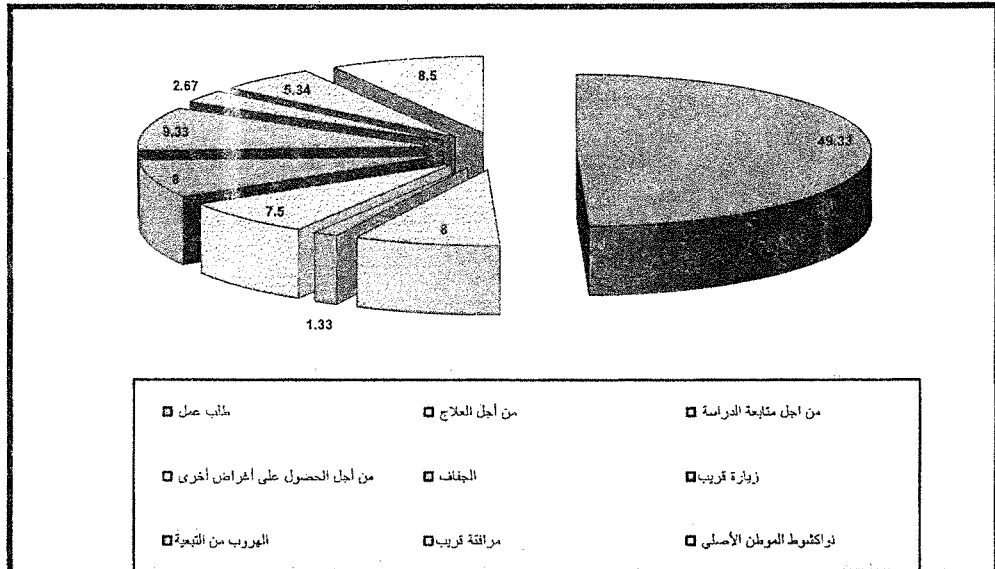
1 دليل الإحصاء السنوي 1989، المكتب الوطني للإحصاء، ص 61.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

9.33	زيارة قريب
2.67	الهروب من التبعية
5.34	مرافقة قريب
8.5	انواكشوط الموطن الأصلي

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء، دليل إحصاء السكان 1988.

الشكل (02): الأسباب الرئيسية للهجرة إلى مدينة انواكشوط سنة 1988



المصدر: إعداد الباحثة بالاعتماد على الجدول (03)

الجدول (04): صافي الهجرة الداخلية لمدينة انواكشوط في الفترة (1977-1988).

السنوات	الوافدون	النسبة المئوية	المغادرين	النسبة المئوية	صافي الهجرة/ن	معدل صافي
---------	----------	----------------	-----------	----------------	---------------	-----------

الهجرة		للمغادرين %		للوافدين %		
62.82	73145	12.54	14602 نسمة	75.36	87747	1977
46.99	183503	30.39	132247	50.38	196750	1988

المصدر: مصفوفات الهجرة لتعداد 1977، 1988، المكتب الوطني للإحصاء.

و يظهر لنا من خلال هذه المعطيات ذلك الدور الذي أصبحت تمثله العاصمة انواكشوط على المستوى الوطني، فهي بمثابة منطقة الجذب الوحيدة التي تمتص النصيب الأوفر من صافي الهجرة الداخلية، نظرا لدورها الاقتصادي المميز ومكانتها السياسية كعاصمة لهذه البلاد.

كما تعكس هذه المعطيات هشاشة المناطق الداخلية المصدرة لهذه الهجرة والتي غالبا ما تعيش اختلالا على مستوى بنيتها الاقتصادية دفعت في الأخير بأبنائها إلى الهجرة بحثا عن مستويات أفضل من حيث العمل والدخل.

2- خصائص سكان المدينة:

بدأت دراسة الخصائص الديمغرافية لسكان المدن تحظى بأهمية كبيرة لدى دراسة السكان، وذلك للاختلاف الواضح بينها وبين سكان الريف، وقد كان مجال الاهتمام يدور حول دراسة تباين توزيع السكان على رقعة المدينة وضواحيها والتغيرات التي تطرأ على حركة السكان بها.

ويتباين توزيع السكان على رقعة المدينة تباينا كبيرا تبعا لحجم المدينة ووظائفها وموضعها الجغرافي ويمكن القول أن القاعدة العامة في هذا التوزيع هي ارتفاع الكثافة قرب منطقة النواة وانخفاضها بالابتعاد عنه، وليس معدل الهبوط واحدا في

كل الاتجاهات بطبيعة الحال، ذلك لأن السكان يميلون للتركز على امتداد شرايين النقل أو بالقرب منها، وتظل المناطق النائية مخلخلة السكان بصفة عامة.

2-1 التوزيع الجغرافي لسكان المدينة :

نتيجة للنمو السكاني السريع الذي تشهده المنطقة منذ نشأتها، قامت السلطات الموريتانية إلى تغيير حدودها الإدارية، حيث ارتفعت مساحتها من 6600 هكتار سنة 1950 إلى 38581 هكتار سنة 1980.¹

ومن حيث طبيعة الموقع وضواحيه، فإن الحدود الحالية للمدينة لا تعتمد على عناصر جغرافية طبيعية وإنما تستند على مخطط للتقطيع الإداري وبذلك صارت مدينة انواكشوط على شكل مضلع له قمم تصل الكلم 18 على الطريق الجنوبي (اتجاه روصو) والكلم 13 على الطريق الشرقي المسمى (طريق الأمل) والكلم 12 على طريق أكجوجت.

2-2 توزيع السكان حسب المقاطعات:

- لقد شهد التقطيع الداخلي لمدينة انواكشوط تغيرات جديدة، حيث أنشئت في البداية، خمس دوائر حضرية سنة 1974 ثم أصبحت 9 مقاطعات، يتوزع عليها سكان المدينة، ولا زال هذا التقطيع ساري المفعول.²

¹ وكالة التنمية الحضرية. مرجع، سبق ذكره، ص 16.

² وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية مرجع سبق ذكره، ص 16.

الجدول (05): توزيع سكان مقاطعات أنواكشوط حسب إحصاءات 1988 - 2000.

المقاطعات	السكان 1988	النسبة المئوية %	السكان 2000	النسبة المئوية %
تيارت	35971	9.14	50748	8.29
لكصر	71687	18.22	42043	6.58
تفرغ زينة	26586	6.75	42043	6.87
توجنين	74510	18.94	72121	11.78
السبخة	69538	17.67	100961	16.36
الميناء	115033	29.24	82483	13.48
عرفات	×	×	88104	14.39
دار النعيم	×	×	64666	10.56
الرياض	×	×	72121	11.65
المجموع	393325	99.96	611883	99.96

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء، دليل إحصاء السكان والمساكن، 1988-2000.

وإذا ما قارنا بين توزيع سكان مقاطعات أنواكشوط حسب إحصائي 1988 و 2000 نلاحظ أنه في سنة 1988 احتلت مقاطعة الميناء أكبر عدد سكان العاصمة وتليها مقاطعة توجنين حيث مثلت مقاطعة الميناء نسبة 29.24 % من سكان العاصمة أي ما يزيد على ربع سكان العاصمة بينما تمثل مقاطعة توجنين نسبة 18.94 % من سكان مدينة أنواكشوط بينما تظهر ثلاث مقاطعات جديدة لم تظهر في إحصاء 1988 وهذه المقاطعات هي، مقاطعة عرفات، ودار النعيم، والرياض، حسب

إحصاء 2000 والنتيجة التي يمكن الخروج بها من خلال هذين الجدولين هي أن مساحة العاصمة ثابتة بينما السكان يتزايدون مما ينتج عنه اكتظاظ وخروج عن المجال المحدد للعاصمة.

3-2 توزيع السكان حسب الكثافة :

يتوزع سكان مدينة انواكشوط على 9 مقاطعات وتختلف هذه المقاطعات من حيث حجم السكان، ومن حيث البعد والقرب عن مركز المدينة، وقد أثرت عدة عوامل طبيعية وبشرية في هذا التوزيع، مما أدى إلى اختلاف الكثافة في مقاطعات العاصمة.

4-2 تركيب السكان

1-4-2 التركيب النوعي للسكان:

إن التركيب النوعي في مدينة انواكشوط يعتبر ذا أثر بالغ على خصائص سكان المدينة، حيث يؤثر هذا التركيب على جملة من الخصائص الاجتماعية و الاقتصادية وحتى الديمغرافية بحيث يؤثر على المواليد و الوفيات و ينتج عن ذلك تأثير على الخصوبة والزيادة الطبيعية وتصبح الهجرة حساسة في هذا الشأن، لأن التركيب النوعي يرتبط بالفئة النشطة من السكان.

الجدول (06): التوزيع النوعي لسكان مقاطعات انواكشوط لسنة 2000 م.

المقاطعات	الذكور	النسبة المئوية للذكور	الإناث	النسبة المئوية للإناث	المجموع	نسبة النوع لكل 100 امرأة
تيارت	24723	08	26025	8.58	50748	94.99
لكصر	20813	6.73	19458	6.42	40271	106.96

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

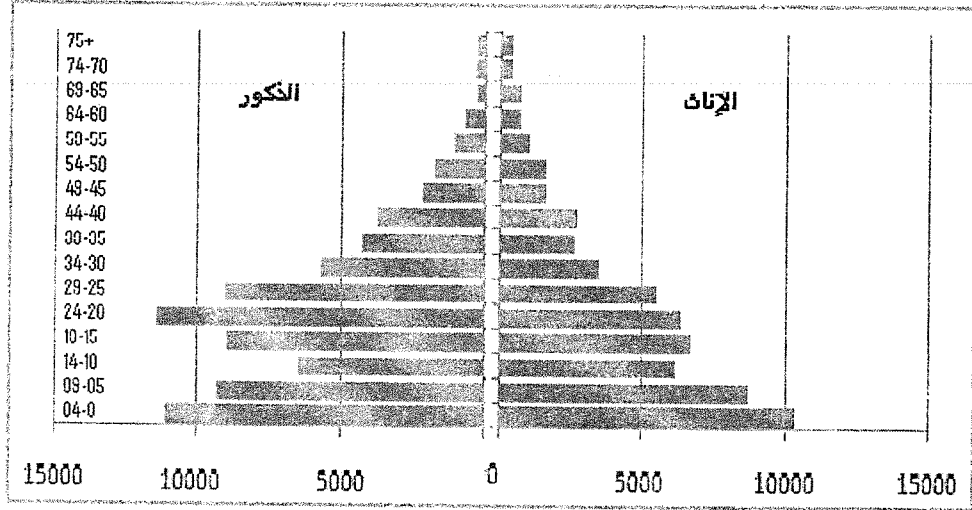
118.08	42063	6.36	19278	7.37	28765	تفرغ زينة
94.34	72121	12.24	37109	11.33	35013	توجنين
112.65	100161	15.54	47100	17.18	53061	السبخة
104.41	82483	13.31	40351	13.64	42132	الميناء
97.97	88104	14.68	44503	14.11	43601	عرفات
100.22	64666	10.65	32296	10.48	32370	دار النعيم
93.02	71286	12.18	36921	11.12	34355	الرياض
101.9	611883	99.96	303051	99.96	308832	المجموع

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء، دليل إحصاء السكان 2000.

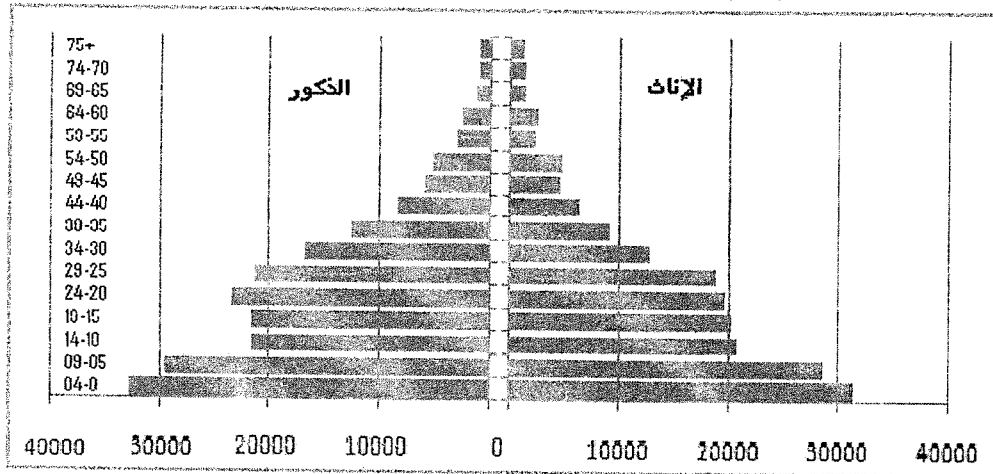
2-4-2 التركيب العمري للسكان:

لا شك أن للتركيب العمري مؤشرات هامة بالنسبة للمجتمع المدروس من حيث البنية الاقتصادية والديموغرافية والاجتماعية. إذا كانت النسبة الخام للولادات مرتفعة بانتظام، وإذا كان العمر المرتقب عند الولادة ونسبة الشيوخ ضعيفة، وهي وضعية تنطبق على الهرم السكاني بمدينة انواكشوط، فساكن المدينة يتميزون بالفتوة والشباب واتساع قاعدة الهرم السكاني.

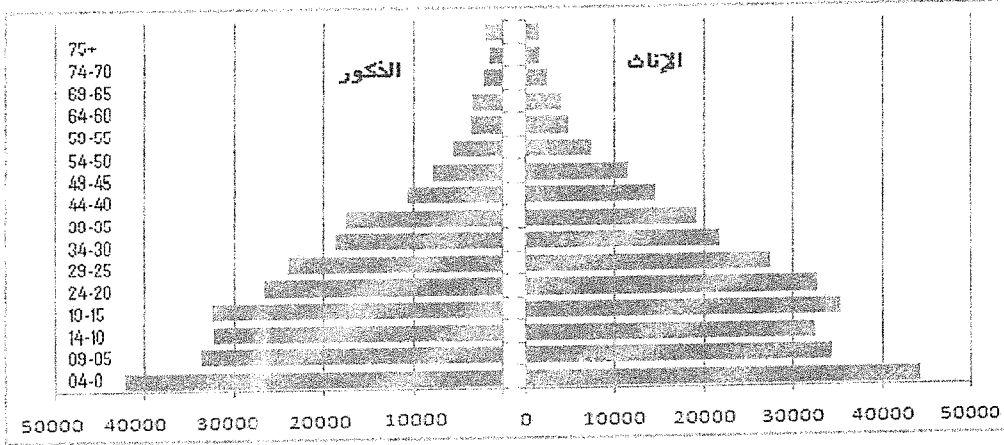
الشكل (03) : هرم الأعمار لسكان مدينة انواكشوط 1977.



الشكل (04) : هرم الأعمار لسكان مدينة انواكشوط 1988.



2000. الشكل (05): هرم الأعمار لسكان مدينة انواكشوط.



إن التطورات الحاصلة على مستوى هرم السكان بين التعدادات الإحصائية محدودة جداً، فمن خلال المقارنة بين هرمي السكان لتعدادي (1977 و 1988) تظهر لنا ملامح السكان في الدول النامية والمتمثلة في فتوة السكان، إذ تظهر قاعدة الهرم عريضة في حين تتناقص مستوياته الأخرى باتجاه القمة مع بروز شذوذ في بعض الفئات في كل من الهرمين.

ونفس القاعدة تتكرر بالنسبة لهرم السكان لسنة 2000 الارتفاع في نسبة الفئات العمرية الصغيرة التي تصل عند الذكور إلى (17.87 %) بينما تبلغ عند الإناث (19.33 %) ويرجع هذا الارتفاع إلى الظروف العامة التي تشهدها البلاد وخصوصاً انواكشوط والمتمثلة أساساً في انخفاض الوفيات وخاصة وفيات الأطفال الرضع، مما ترك أثره على فئات العمر خاصة بين (0-20) سنة، إضافة إلى الدور الذي لعبته الهجرة، كل ذلك ساهم في توفير قاعدة شابة هامة.

2-4-3 التركيب المهني لسكان انواكشوط:

2-4-3-1 السكان النشطون:

لقد قدر عدد التشيطين المشتغلين بمدينة انواكشوط حسب تعداد 1988 بـ (127066) عامل، أي نسبة نشاط تقدر بـ (32.3 %) وهي نسبة هامة نسبيا وتفوق المعدل الوطني والذي قدر بـ (31.42 %) في نفس السنة.¹ إن حجم اليد العاملة يقدر بحوالي (180022) شخص، نجد من بينهم (127066) شخصا في حالة نشاط فعلي، لذا فإن نسبة النشطين المشتغلين من جملة السكان الذين هم في سن الشغل (20 - 59 سنة) تقدر بـ (70.58 %). أما على المستوى الوطني فإن النسبة تبدو أقل أهمية، حيث قدرت بـ (88.27 %) في نفس السنة. ومع ذلك فإن هذه النسبة تبقى محدودة إذا قارنا نسبة المشتغلين بالحجم الإجمالي لسكان المدينة، حيث تسجل (32.3 %)، في حين قدر عدد الناشطين في المدينة سنة 2000 بـ (312505) شخص أي بنسبة 51.07%².

¹ عبدوتي ولد علي: التخطيط الإقليمي في موريتانيا، دراسة في البعد المكاني للتنمية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا، جامعة الدول العربية، قسم البحوث والدراسات الجغرافية، السنة الجامعية، 1996 - 1997.

² سيد أحمد ولد أحمد، "حماية المصايد البحرية من التدهور، دراسة حالة موريتانيا"، مذكرة بحث مقدمة لنيل شهادة ماجستير، في التهيئة الإقليمية، جامعة هوارى بومدين، الجزائر 2006-2007، ص 22.

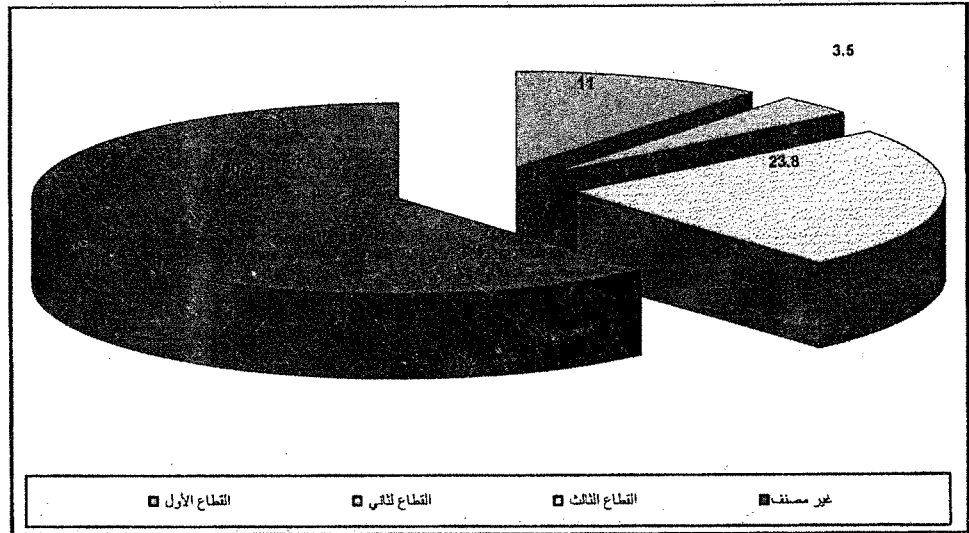
2-3-4-2 توزيع النشاطين حسب القطاعات الاقتصادية :

إن بنية مدينة انواكشوط وظروفها المناخية غير مساعدة على نمو القطاع الأول في المنطقة خاصة القطاع الزراعي، هذا إذا ما استثنينا بعض الزراعات السنوية التي لا تحتل من المساحة الإجمالية للمدينة مكانا رحبا، ولا تستوعب من القوة النشطة إلا قليلا.

أما تربية الحيوانات فتكاد تكون معدومة، وما يوجد منها رغم قلته يدخل في النظام التجاري الشخصي.

ويأتي الصيد البحري ليحتل المرتبة الأولى، من هذا القطاع بالرغم من امتناع بعض السكان عن امتهانه فترة طويلة، لعدم خبرتهم به لأنهم في الأصل رعاة لا يعرفون إلا الانتجاع والترحال، إلا أنه نشاط يستقطب مجموعة كبيرة من القوة النشطة من السكان الأفارقة وخصوصا النازحين من دول أخرى ولكن منذ التسعينات أخذ الوضع يتحسن نسبيا بانتشار الوعي بين الشباب العاطلين وتنبههم لهذه المصادر الاقتصادية المهدورة وبالتالي بدأوا يتوجهون إلى العمل بهذا الميدان والانخراط فيه. حيث وصلت نسبة العاملين في هذا القطاع سنة 2000 إلى 10.8% بينما وصلت نسبة العاملين في الزراعة نسبة 0.2% في نفس السنة، وبذا يكون الصيد البحري في المرتبة الأولى في هذا القطاع.

الشكل (06): توزيع النشطين حسب القطاعات الاقتصادية سنة 2000



إعداد الباحثة بالاعتماد على المعطيات السابق

ثانيا: التجهيزات والخدمات الاجتماعية

1- التجهيزات التعليمية:

إن مدينة نواكشوط هي العاصمة السياسية والإدارية مما جعلها قطب جذب للسكان من مختلف مناطق البلاد أملاً فيما توفره من مساعدات غذائية وصحية وتعليم مجانية.

وتستحوذ مدينة نواكشوط على نسبة 22 % من التعليم الابتدائي في موريتانيا، و 40 % من التعليم الثانوي، و 100 % من التعليم العالي¹.

وبلغ عدد المؤسسات التعليمية في نواكشوط سنة (1989 م) 65 مؤسسة تعليمية منها 44 مدرسة ابتدائية، 12 ثانوية و 4 مدارس للتكوين الفني والمهني، و 4 معاهد عليا، وجامعة واحدة*.

إن هذا التركيز للمؤسسات التعليمية بمستوياتها المختلفة زاد الضغط على العاصمة بسبب توافد الطلاب الذين جاءوا لإكمال دراستهم في المعاهد العليا والفنية والجامعة.

2- التجهيزات الصحية:

تستأثر مدينة نواكشوط في مجال الصحة بقسط كبير من التجهيزات الطبية والأطباء والممرضين، وبذلك يكون توزيع الخدمات الصحية غير متوازن بين العاصمة نواكشوط وباقي الولايات الموريتانية الأخرى.

¹ محمد الأمين موسى، "البنية السكانية في مدينة نواكشوط ومشكلاتها"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1989، ص 89.

* أنشئت جامعة نواكشوط بتاريخ 3 سبتمبر 1981، وبها كليتان هما كلية الآداب والعلوم الإنسانية وكلية العلوم القانونية والاقتصادية، وتخرجت أول دفعات هذه الجامعة خلال السنة الدراسية 84 - 1985.

فمدينة نواكشوط بها حوالي 30 % من الممرضين ذوي الخبرة و 50 % من القابلات و 50 % من مجموع التجهيزات الصحية، وبها 7 مستويات عامة. وهذا العدد لا يقارن بكم المترددين على هذه المستوصفات ذات الاستيعابية الضعيفة، فقد بلغ عدد السكان لكل مركز ونقطة قرابة 16.000 نسمة في نواكشوط سنة 2004¹ والتي مازالت تشكو من اكتظاظ هياكلها الصحية، نتيجة لاتساع الحاجات المرتبطة بالنمو الديمغرافي السريع للسكان، وذلك بالرغم من كونها تتوفر على أكبر عدد من المستشفيات والعيادات الخاصة بالمقارنة مع بقية مدن البلاد، فنواكشوط يوجد بها المستشفى الوطني الوحيد في البلاد والذي يرجع تاريخ إنشائه إلى الستينات، وأصبحت تصب فيه كل مصحات الداخل نظرا لقدرته الاستيعابية من جهة ومجانية العلاج من جهة أخرى. وتوجد به كذلك بعض التخصصات المهمة في الأمراض الشائعة، وبعض التخصصات في أمراض ظل الموريتانيون يجهلون علاجها بالطرق العلمية حتى وقت قريب، كالأمراض العقلية والعصبية التي أصبح فيها متخصصون اللذين أثبتوا جدارتهم من خلال ما يشفى على أيديهم يوميا من مرضى.

ثالثا: التنظيم المجالي لمدينة نواكشوط

إن تنظيم العلاقات بين الظواهر الطبيعية و البشرية، في مكان ما يتطلب دراسة دقيقة للمجال، والسكان، باعتبارهما العنصران الأساسيان لهذه العلاقة، يؤثر كل منهما في الآخر تأثيرا متبادلا، فالنمو السكاني يحدد إلى درجة كبيرة تطور

¹ وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة والفقر 2005، مرجع سابق.

الاحتياجات الاقتصادية، والاجتماعية، كما أن له علاقة مباشرة بالإطار المبني، وسبل توسعه. وهذا لوضع البرامج والمخططات العمرانية المناسبة. وفي ظل غياب سياسة عمرانية واضحة المعالم للتحكم في أساليب التعمير عرفت مدينة نواكشوط جملة من التحولات السريعة، انعكست مباشرة على تنظيمها وهيكلتها العمرانية بصفة عامة، ومناطقها المركزية على الخصوص. والتي تعاني اليوم من تشبع مفرط بسبب احتكاكها لمختلف المؤسسات العمومية. فالمدينة اليوم تنمو وتتنظم اقتصاديا، ومجاليا، وعمرانيا، بصفة عشوائية وبمعزل شبه تام عن نظامها المركزي.

1- النظام العمراني لمدينة نواكشوط

جاءت التوقعات التي رافقت ميلاد العاصمة نواكشوط خاطئة، إذ لم تكن تضع في الاعتبار سوى بضعة آلاف من البشر هم سكان نواكشوط، بعد مضي عقد من الزمن على نشأتها. إلا أن هذا الرقم تضاعف عدة مرات، خلال الفترة الزمنية نفسها وصاحبه بوادر تنذر بقابلية الانفجار السكاني بين حين وآخر. وقد بذلت السلطات جهودا حثيثة بهدف ضمان حياة أفضل لسكان العاصمة، فوزعت القطع الأرضية، وحاولت إعادة التوازن بين الريف والحضر، عن طريق محاولة تثبيت السكان في مواطنهم الأصلية، إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن

لقد تضاعفت المساحة الإجمالية التي تشغلها مدينة نواكشوط 33 مرة خلال فترة وجيزة من تاريخ نشأتها بعد 35 سنة فبعد أن كانت مساحتها الإجمالية لا تتجاوز حوالي 240 هكتار في سنة 1960، أصبحت في سنة 1995 تشغل مساحة 7933

هكتار¹، ويرجع سبب هذا التوسع العمراني إلى نهج الدولة سياسة تقسيم القطع الأرضية على المواطنين والتي قلما تراعي فيها المناهج والطرق العلمية الدقيقة. لقد نجم عن هذه التقسيمات منذ مطلع السبعينات من القرن الماضي وحتى اليوم توسعا كبيرا في الأحياء المخططة، والدفع بالأحياء العشوائية إلى أماكن أبعد من أطراف المدينة، وقد شكلت قلة الأراضي السبب المباشر في فتح المنطقة الشرقية من المدينة أمام مسلسل التحضر، وذلك بعد أن كانت تعتبر منطقة احتياطية مخصصة للاستخدامات الزراعية وهو ما يفسر سرعة نموها المجالي.

2- الأحياء العشوائية والمجال بالمدينة:

إن الانفجار الديموغرافي الذي عرفته مدينة نواكشوط والذي تجاوز 12.178 ساكن سنة 1965 إلى 134.704 ساكن سنة 1977 ليصل إلى 393.325 ساكن سنة 1988، حيث أن معدل الزيادة المتوسط بلغ 19.94 % أي أن السكان تضاعفوا في الفترة ما بين 1977 - 1988 إذ تضاعفوا 10 مرات ما بين 1965 - 1977. قد أدى إلى توسع عشوائي ترجمته في السبعينات أحياء القصدير التي كانت تستوعب كل الوافدين والمعانين من أزمة السكن في تلك الحقبة، إلا أن تماطل الدولة في حل مشكل الصفيح بعد 1974 جعل سكانه وغيرهم من الوافدين الجدد والمؤجرين للمساكن يفكرون في طرق بديلة لوضعيتهم السكنية، فكانت "الكزرة" هي الحل الوحيد في ظل غياب سياسة وطنية تأخذ بعين الاعتبار الانفجار الديموغرافي وما قد يترتب عنه من مخاطر نمو عشوائي.

¹ محمد بن أعبيد، نظام المركزية و التنظيم الحضري لمدينة نواكشوط، رسالة ماجستير في

الجغرافيا، جامعة هواري بومدين، الجزائر، 2000، ص 127

3- التأثير المجالي لظاهرة الأحياء العشوائية:

لقد وصل تطور انتشار هذا النوع من المساكن بالعاصمة إلى مستويات سرعان ما أصبحت تشكل مخاوف لدى المسؤولين الإداريين.

ففي سنة 1982 شكلت هذه المساكن 51 % من مجموع مساكن المدينة، ويسكنها أكثر من نصف سكان المدينة.

وتنتشر هذه المساكن العشوائية بصفة فوضوية، ولا تتبع أية خطة عمرانية معينة، كما أنها عادة ما تتمركز في مساحة ضيقة وحتى الشوارع تبدو غير واضحة، ففي سنة 1980 خصصت إدارة الإسكان 28.5 % من مساحة المدينة للسكن العشوائي، مقابل 71.5 % من المساحة المبرمجة للسكن الراقى.

إن سهولة التشييد وقلة التكاليف، جعلت هذا النوع من السكن الأكثر شيوعا، والأسرع من الناحية الديناميكية، فالمساكن هنا عبارة عن بيوت من الصفيح، فهي إما من صفائح الخشب، أو من الزنك. يتم تصميمها محليا، وهو ما جعله بالتالي يحتل حيزا كبيرا من حيث المجال المعاش. حيث بلغت مساحة "الكبة" الواقعة في أحياء مقاطعة الميناء حسب وكالة التنمية الحضرية، 178 هكتارا، تكتظ فيها مساكن من الأكواخ يصل عددها حوالي 7474 كوخا. سنة 2005. وتصل فيها كثافة المسكن الواحد إلى 5-6 أفراد.

ونتيجة لانتشار هذا النوع من المساكن أصبحت المدينة تعيش في تناقض تام، حيث المباني الراقية، والقطع الأرضية السكنية المشبعة تحيط بها أحزمة من المساكن والأحياء العشوائية. وإذا كان النزوح الريفي سببا رئيسيا في ظهور هذا النمط من السكن، فإن وجود فراغات شاغرة وشاسعة، خاصة على أطراف الحدود الإدارية للمقاطعات يعتبر واحدا من بين أبرز العوامل المشجعة على انتشار هذا النوع من الأحياء العشوائية.

الخاتمة:

لقد شهدت العاصمة انواكشوط منذ نشأتها غداة الاستقلال نموا سكانيا تماشى مع نمو الدولة الموريتانية نفسها، فقد استقطبت كمثيالاتها من العواصم الوظائف السياسية والإدارية للدولة الحديثة واستمر هذا الدور مع استئثار العاصمة بالمؤسسات الصحية والتعليمية وكذلك المؤسسات المالية والتجارية، وتتجمع هذه الوظائف كلها في حيز ضيق حول موضعها الأصلي إلى الجنوب من القصر الرئاسي.

أما الأنشطة الأخرى مثل الصناعة، فتتوزع حسب درجتها في الضواحي. وبرغم التركيز الشديد للتجهيزات الصحية والتعليمية وخاصة مؤسسات التعليم العالي، فإن ظروف الحياة تظل صعبة بالنسبة لـ (44%) من سكان انواكشوط، فلا تتوفر الأحياء غير المخططة التي تطوق المدينة على التجهيزات الأساسية المياه والكهرباء، والصرف الصحي والطرق....الخ.

إن هذه الأحياء التي برزت بصورة استعجالية كحل لمشكل السكن في العاصمة الجديدة عرفت استقرارا كبيرا في مظهرها العام أكثر من أعداد سكانها، فالكثافة فيها أعلى الكثافات في المدينة (أكثر من 40 مسكنا في الهكتار).

وقد أوقفت الدولة توسع "الكبات" دون أن تقضى عليها وعلى العكس من ذلك فإن الأحياء الهامشية الأخرى لا تزال تتنامى.

وكخلاصة لما تقدم تحليله ومعالجته نجد أن مدينة انواكشوط تعرضت ولازالت تتعرض لتغيرات أساسية في نسيجها العمراني وذلك نتيجة لعدة حقائق من أهمها :

- واقع النمو السكاني الكبير بالمدينة، والذي ساعدت على رفعة الزيادة الطبيعية، وتدفق المهاجرين الوافدين الباحثين عن حياة أفضل.

- عدم التجانس في توزيع السكان، والمساكن عبر مختلف القطاعات العمرانية، واستهلاك غير عقلاني للمجال بسبب انتشار السكن الفوضوي.
- نقص وعجز كمي، ونوعي في السكن.
- عدم كفاءة وكفاية التجهيزات العمومية الموجودة بها.

المراجع باللغة العربية

الكتب:

- 1- أبو عيانة فتحي، مشكلات السكان في الوطن العربي، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1978.
- 2- أبو عيانة فتحي، جغرافية السكان، أسس وتطبيقات، جامعة الإسكندرية 1999.
- 3- مقيس بشير، دراسة جغرافية العمران، مدينة وهران، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

الأطروحات:

- 1- ابن عبيد محمد، نظام المركزية والتنظيم الحضري لمدينة انواكشوط، رسالة ماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا، 2000.
- 2- بنت سيدى الأمين لالة، الهجرة الداخلية لمدينة انواكشوط، دراسة حالة عرفات، دبلوم الدراسات العليا، في الجغرافيا، الرباط 2000.
- 3- سيد عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية إلى مدينة انواكشوط، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، الرياض، 1984.
- 4- موسى محمد الأمين، البنية السكانية في مدينة انواكشوط، ومشكلاتها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1989.

5- محمد ناصر محمد بياه، مدينة انواكشوط دراسة في الجغرافيا الحضرية، رسالة الماجستير، كلية الآداب بجامعة الملك سعود.

6- ولد احمد سيد أحمد، حماية المصايد البحرية من التدهور دراسة حالة موريتانيا بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا جامعة هواري بومدين الجزائر 2007.

7- ولد سيدات زين العابدين، لأنشطة التجارية والتوسع الحضري والتنظيم المجالي لمدينة انواكشوط، مقدمة لنيل شهادة ماجستير في الجغرافيا ،جامعة هواري بومدين، الجزائر، 2000.

8- ولد عالي عبدوتي، التخطيط الإقليمي في موريتانيا دراسة في البعد المكاني للتنمية بحث مقدم لنيل درجة ماجستير في الجغرافيا جامعة الدول العربية قسم البحوث و الدراسات الجغرافية القاهرة 1997.

9- ولد عبد الله محمد الأمين، الآثار الاجتماعية والثقافية لظاهرة النمو الحضري في مدينة انواكشوط، بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في علم الاجتماع ، القاهرة 1998.

التقارير و الوثائق و المنشورات

- 1- المكتب الوطني للإحصاء دليل الإحصاء السنوي 1989
- 2- المكتب الوطني للإحصاء دليل إحصاء السكان و المساكن 1977
- 3- المكتب الوطني للإحصاء الإحصاء العام للسكان و المساكن 2000
- 4- وزارة الشؤون الاقتصادية و التنمية التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة و الفقر 2005.

- 5- صفوح الأخرس علم السكان و قضايا التنمية و التخطيط، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي دمشق 1980 .
- 6- وكالة التنمية الحضرية المخطط التوجيهي للتنمية الحضرية لمدينة انواكشوط أففي 2010 - 2020
- 7- مختبر الدراسات و البحوث الجغرافية أطلس الهجرات و التسيير الإقليمي، جامعة انواكشوط بالتعاون مع جامعة روان، مختبر دراسات التنمية في الأقاليم الجافة الفرنسي سنة 2000

